# اشتباك عربي

العدد الرابع

## شخصية العدد

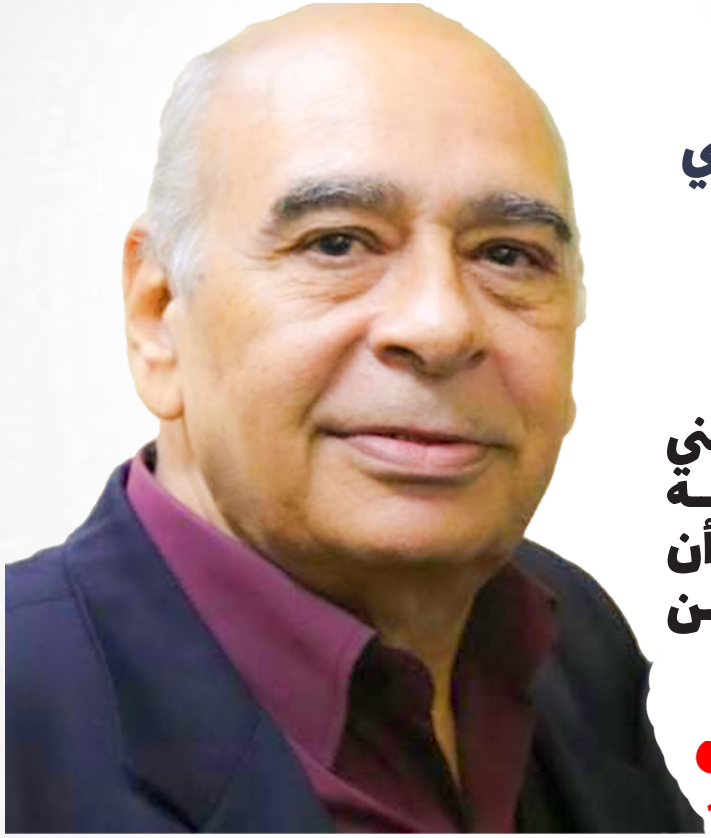

الكاتب احمد الخميسي

«يوسف إدريس قدمني للقراء، وانا اتمثل عبارته «ربما لم تتح لي الظروف أن أقول الحقيقة كلها، لكن كل ما قلته حقيقة».

إشتباك فك الارتباط إبّان التحول من الإمبريالية للعولمة
«عادل سمارة»

ميل معدل الربح للهبوط
«سيد البدري»

المشهد العالمي

المشهد العربي

الاستبداد الشرقي
«سلام موسى جعفر»

جذور الماركسية العربية وروادها ..
«موفق محادين»

إيران - الواقع والتصورات
«احمد صبري»

منازلة رأس المال في حقله الحقوقي - اختيار للهزيمة .. «ابراهيم أحنصال»

يوم الزيارة
«محمود فنون»

(هيكل) نماذج ليبرالية ..
«احمد حسين»

# كلمة العدد من أشتباك

في التصدي لأهم مهمة تاريخية وراهنة في الوطن العربي وتحديداً لمواجهة الثورة المضادة بمكوناتها:

- التوحش الإمبريالي
- الكيان الصهيوني
- قوى الدين السياسي
- الأنظمة العربية التابعة

وتبلور تحالف هذه الأطراف في هجمتها الجارية ضد الأمة العربية في الربيع/الخريفي مجسدة في طبعة جديدة من الاستشراق هو الاستشراق الإرهابي، وجدنا ضرورة لإشتباك عربي كي تشارك مختلف المواقع الأخرى ذات التوجه الوحدوي العروبي والإشتراكي مثل موقع كنعان.
فالهجمة ومن ثم الصد والرد تؤكد وجوب قول ماو: «دع مائة زهرة تتفتح».
يصدر عدد الشتاء (العدد الرابع) من مجلة اشتباك عربي

وللإطلاع على الأعداد السابقة اليكم روابط التحميل :
العدد الثالث من اشتباك عربي :
Ia1MXEDYOuCX1hmzIrdr'VssaC3xzoyqko/view?usp=drivesdk/https://drive.google.com/file/d
**العدد الثاني من اشتباك عربي :
xAH1bxQXuAlAKwkGMfPR1vkeAYOUICM/view?usp=sharing_1/https://drive.google.com/file/d
**العدد الأول من اشتباك عربي :
Uoe1QqPZFBRtCGrcMZFYQ1BnNxi1req/view?usp=drivesdk_1/https://drive.google.com/file/d

# الفهرس


المشهد العالمي ..... ٤
المشهد العربي ..... ١٣
الاستبداد «الشرقي» .. سلام موسى جعفر ..... ٢٨
جذور الماركسية العربية وروادها .. موفق محادين ..... ٣٧
إشتباك فك الارتباط إبَّان التحول من الإمبريالية للعولمة .. عادل سمارة ..... ٤٦
ميل معدل الربح للهبوط وتأثيره على طبيعة إمبريالية عصر العولمة (١) .. سيد البدري ..... ٦٩
منازلة رأس المال في حقله الحقوقي – اختيار للهزيمة .. ابراهيم أحنصال ..... ٨٣
إيران – التصورات والواقع .. احمد صبري ..... ٨٧
شخصية العدد .. حوار مع الكاتب احمد الخميسي ..... ٩٥
يـوم الزيارة .. محمود فنون ..... ١٠١
هيكل – نماذج ليبرالية .. احمد حسين ..... ١٠٩

# المشهد العالمي

## الرأسمالية وحروب دائمة

ربما أكثر ما يتكرر اليوم لدى التقدميين في العالم أن القطب الأوحد يتداعى، وأن مناخا جديداً لتعددية قطبية تظهر براعمه، وهذا متوقع بالطبع. لكن هذا يجب ألا يتحول إلى هتاف واحتفال بسقوط الإمبريالية وتفكيك قبضتها في وقت قريب.

لا يخفى على متتبع أن هناك حالة من التدافع الدولي والذي بدوره لا بد أن يخلق أو يقود إلى توازنات جديدة طبقاً لمعيار القوة هنا وهناك، وهذا بالطبع محصور في القوى أو الأنظمة ذات السيادة

أو ما فوق السيادة، أي الإمبريالية بالطبع بقيادة الولايات المتحدة وغيرها من دول المركز.

في هذا التوازن أو إعادة ذلك، للأسف فإن أغلب الأنظمة العربية ترمي بنفسها في خدمة سيدها الإمبريالي بدل أن تأخذ اختلال التوازن، ومن ثم تبلور توازنات جديدة يمكن أن يكون للعرب ثمة دور هام وأهم فيها. وهذا يؤكد بأن منظومة الحكم العربية ممعنة في كل من آفتيْ القطرية والتبعية ما يقتضي من حركة الثورة العربية النضال الحاد ضدها.

لو طالع المرء طريقة أداء الإعلام في معظم بلدان العالم للاحظ أن الخبر الأول في كل

بلد وعن كل بلد يبدأ بما فعلته أو صرحت به الإدارة الأمريكية، بينما يورِد الخبر الثاني أو الثالث عن البلد نفسه! وهذا يؤكد أن الإمبريالية لا تزال قوية ومؤذية وخطيرة بقدر قوتها، مما يستدعي من الثوريين في العالم والأنظمة الخارجة عن عباءة الإمبريالية أو التي تصبو إلى ذلك أن تضع القوة الخطرة للإمبريالية في الاعتبار، بل إن على العالم ألا ينفي احتمال لجوء الإمبريالية إلى حرب مجنونة إذا ما وجدت نفسها تُزاح عن صدر الكوكب.

مع وجود وهيمنة الرأسمالية/ الإمبريالية على العالم يمكننا القول بأنه في حرب دائمة سواء: طبقياً على صعيد الدولة أو المجتمع الواحد أو قومياً بين أمة وأخرى، وبغض النظر إن كانت هذه الحرب ساخنة أم باردة فهذا أمر آخر لا ينفي حال برودة الحرب أنها ليست قائمة. لذا، ليس صحيحاً القول بأن العالم اليوم في أو على حافة حرب عالمية ثالثة، طالما أن كل تلك الحروب مشتعلة مما يسمح لنا بالقول بأن الحرب الآن أي حرب الدفاع الروسية ضد الناتو هي الحرب الأشد والأوسع في هذا العام من هذا القرن، لكنها ليست الوحيدة ولم تأتِ بعدَ عالم بلا حروب.

## المرحلة الريعية الثانية في حرب الدفاع الروسية:

كما أشرنا في أعداد سابقة من إشتباك عربي، فإن هذه الحرب وإن اتخذت طابعاً تعددياً من حيث الميادين: أي حرب الريع والعسكر والثقافة والإعلام والسياسة، إلا أنها تتصف بسمات جديدة:

السمة الأولى: حرب الإمبريالية بالإنابة: بعد تجربة الولايات المتحدة الحرب بجنودها في فيتنام ثم العراق وأفغانستان، نلاحظ في الحرب الجارية أن الولايات المتحدة تقاتل بأدواتها أكثر مما تقاتل بجنودها.

ففي حين التحقت الولايات المتحدة بأوروبا بعد أكثر من سنة على اشتعال كل من الحربين المسميتين العالمية الأولى والثانية، فإن الولايات المتحدة تحارب روسيا بأوروبا أو بالناتو بأجمعه دون دخول جندي أمريكي في الحرب بشكل رسمي ومباشر. ولا نقصد هنا عدم وجود خبراء ومدربين من أمريكا وأوروبا في أوكرانيا، بل الحرب الإقتصادية الريعية بين روسيا والغرب حيث تقودها أمريكا ويدفع ثمنها الأوروبيون خاصة ومباشرة، الأمر الذي أدى إلى دفع الأوروبيين أثمانا باهظة ثمناً لوارداتهم من الطاقة وحتى عدم توفر مصادر كافية من الطاقة لأوروبا، مما دفع حكوماتها إلى التبضُّع بالكشكول من عديد الدول في بلدان المحيط.

أما السمة الثانية: لهذه الحرب بعد عشرة أشهر من حصولها، فهي حرب الريع أو المرحلة الثانية من حرب الريع بين الشركات الأمريكية والمستهلك الأوروبي الذي يدفع أسعارا

عالية للشركات الأمريكية رغما عنه. فقد وصلت تقديرات الصحافة الأمريكية بأن الشركات الأمريكية ربحت من أوروبا

في هذه الحرب 200 مليار دولار كفارق سعر بين أسعار الطاقة الأمريكية ونظيرتها الروسية.

فقد تحولت أوروبا إلى مستورد اضطراري للطاقة الأمريكية باسعار تصل أربعة أضعاف ما كانت تدفعه مقابل نفس الكمية من الطاقة للشركات الروسية.

ماذا يعني هذا؟

## من حرب طبقية إلى صراع طبقي:

هي حرب طبقية قومية معاً. هي حرب طبقية بين الأوليغارشية الأوروبية التي تتشارك مع الأمريكية سواء فيما تسمى طبقة رأسمالية شركاتية عالمية، وهي قومية بمعنى العدوان الاقتصادي التسويقي الأمريكي على المستهلك الأوروبي.

وهذا ينفي المزاعم التي رددت كثيراً بأن اوروبا وهي تقاطع روسيا فإنها تطلق النار على قدميها، فليست القيادات الأوروبية حمقاء وساذجة ولا تابعة كما هي الطبقات الحاكمة في عديد بلدان المحيط، بل هي أوليغارشية تقع مصالحها في بنية الشركات الكبرى (متعدية الجنسية) مما يعني أن هذه الطبقة الحاكمة في أوروبا هي معولمة أي لا قومية، وبدورها هذا تقوم بحرب أهلية ضد مختلف الطبقات الاجتماعية الأخرى حيث تكسب حصة من التي تكسبها السيطرة الشركاتية الأمريكية.

والسؤال: على ضوء التململ والإضرابات في عديد البلدان الأوروبية احتجاجا على دفع مبالغ أكثر والحصول على تدفئة أقل، إضافة إلى نقص الوقود الضروري لكثير من المصانع والمشافي والمرافق العامة، فهل سيقود هذا التململ إلى حراك شعبي يصطدم بالسلطات الأوليغارشية في أوروبا الأمر الذي يضعها أمام خيارين:

- إما النزول عند حق الشارع في تسوية الأمور مع روسيا خاصة وأن الشعوب الأوروبية لا ترى أن هناك خطراً روسيا على أوروبا؛
- أو اللجوء إلى تجربة القمع عبر منع التظاهرات والإضرابات...الخ،كما تخطط حكومة بريطانيا أو كما ادعت حكومة ألمانيا بأن انقلابا جرى تحضيره ومن ثم كشفه ضدها!

لعل الحاسم في هذا الصدد هي أشهر الشتاء الذي ابتدأ في أوروبا وهي الفترة الزمنية التي تراهن عليها مختلف الأطراف، أي روسيا وبالمقابل الأنظمة الحاكمة في الغرب عموماً، من الذي سوف يصمد أكثر.

وقد لا يطول زمن الإجابة على الشق الثاني من السؤال: هل ستتحول الحرب الطبقية من الأوليغارشية إلى صراع طبقي في أوروبا؟

السمة الثالثة: هي حرب التسلُح الاضطراري الأوروبي:

بقيادة وتعليمات الولايات المتحدة قذفت أوروبا بالكثير مما لديها من الأسلحة في

أوكرانيا، الأمر الذي أفرغ مخازنها ووضعها في وضعية الاستيراد من الولايات المتحدة.

قاد هذا بالطبع إلى انتعاش شركات السلاح الأمريكية التي من مصلحتها استدامة الحرب، وبالتالي فهذه فاتورة نفقات جديدة وإضافية على المجتمع وخاصة الطبقات الشعبية هناك، حيث تقل خدمات الأنظمة لصالح مدفوعاتها مقابل السلاح والذخائر والإنفاق على الجيوش الأمريكية التي تتكاثر في محيط روسيا.

زيلينسكي مع بايدن في زيارته للبيت الأبيض

هذا الدور التصديري للسلاح يعيد إلى الأذهان عقيدة أيزنهاور في التفوق التسليحي الأمريكي على العالم، حيث أقام المجمع العسكري حين رئاسته. وهو كضارية إمبريالي كان يُدرك أن السبق في الإنتاج المدني لا يحول دون بروز منافسين، بينما اختيار السبق العسكري أقرب إلى مواصلة التفوق الأمريكي.

صحيح أن الحرب حتى الآن هي كما بدأت أساساً حرب عسكرية داخل أوكرانيا بين روسيا والناتو، ولكنها أيضا حرب اقتصادية ريعية بين أمريكا وروسيا حيث تحل الريوع الأمريكية في أوروبا محل الروسية من جهة، ولكنها وصلت حد الاستغلال الأمريكي البشع للأسواق الأوروبية مما كشف أن ما يحصل هي حرب ريعية أمريكية ضد أوروبا، ولكن في ثوب التصدي لما يسمى العدوان الروسي.

## بين الإنشغال والتراخي والتفلُّت والحرب النفطية

شهدت بلدان المحيط فترتي تراخٍ لقبضة الإمبريالية بعد الحربين الأولى والثانية من القرن الماضي، حيث استغلت بعض البلدان تلك الفترة لتُقيم درجة من التصنيع على أرضية إحلال الواردات وحتى إقامة صناعات ذاتية البنية. هذا إن لم نتحدث عن الثورات سواء البلشفية أو لاحقاً الصينية وتوسع الكتلة الشرقية إلى شرق أوروبا.

يشهد العالم اليوم تراخٍ في قبضة الإمبريالية الأمريكية التي لم تعد تقوم بحرب مباشرة بجنودها سوى في بقع صغيرة ومحدودة، وضد دول مُتعبة كتشغيل قواعدها في سوريا والعراق.

تشكل فترة التراخي هذه فرصة وتحدياً معاً للدول الريعية وخاصة النفطية منها، وعلى رأسها أوبك دون أن نقول أوبك بلاص.

فالفرصة هي في ارتفاع كلف الطاقة مباشرة بسبب الحرب وتردد أوروبا في شراء الطاقة من روسيا، وإرغام الحكومات لمستهلكيها على شراء الطاقة الأمريكية.

تشير تقديرات أمريكية أن الطاقة هناك ليست كافية لسد الحاجة العالمية لتكون بديلا للطاقة الروسية، وبأن النفط الصخري الأمريكي يبشر بالنضوب أو أن بعضه قد نضب.

وفي السياق نفسه فإن هذا النفط هو

الذي سمح لأمريكا منذ قرابة عقد من الزمان بالتوقف شبه التام عن حاجتها لنفط الخليج، الأمر الذي قاد إلى تسويق الخليج وخاصة السعودية نفطها إلى الصين المستهلك الجائع بشكل متزايد (٢٥٪ اليوم)، بل إن مضادي الصين يتهمونها بأنها تلتهم المواد الخام على الصعيد العالمي.

لكن التطور الدرامي كان في شن الغرب حرباً جديدة ضد روسيا بفرض سقف سعري لنفط روسيا لا يتجاوز ٦٠ دولارا للبرميل، علماً بأن معدل السعر العالمي وصل ما فوق مئة دولار.

وإذا كانت فرصة البيع للصين وتحول أوروبا إلى استجداء النفط من بلدان المحيط النفطية، الأمر الذي سهَّل تفلُت هذه البلدان على الأقل باتجاه الحصول على أرباح أكثر وليس شرطا أن تتجه لإقامة صناعات محلية، فإن فرض السقف على سعر النفط الروسي يعني أن الغرب قسم العالم إلى فسطاطين/ خيمتين:

- الغرب الذي يتحكم إلى حد كبير بناقلات السفن والسيطرة البحرية وهي الأمور التي تحدث عنها ماكندر ونظرائه من الجغراسيين منذ سبعين عاما، ويتحكم بشركات التأمين إضافة إلى اقامة ٨٠٠ قاعدة عسكرية أمريكية في العالم مقابل عدد ضئيل لمختلف الدول الكبرى، الأمر الذي يوحي بأن الاستقطاب يولد بالضرورة الاستقطاب المضاد. وبالطبع فان قرار الغرب هذا يعني إصرار الغرب على أن يكون صاحب القرار المُلزم لعالم بأسره!
- أي تكتل روسيا والصين وتسهيل توريد النفط الروسي إلى الصين براً مع تحالف مع الدول التي سيمر أو يمر منها هذا النفط. ولكن القرار الغربي يفرض على الدول العربية والإفريقية النفطية أن تنحاز إلى القطب الشرقي لأن وصول نفطها إليه مضطر لسلوك طريق البحار.

حتى الآن هناك ملامح تململ من السعودية، ولكن هذا لا يعني خروجها عن المدار الأمريكي، بمعنى أنها قد تتوصل إلى موقف متوسط هو مواصلة توريد النفط للصين دون تجاوز السقف المفروض. ذلك لأن بنية النظام السعودي والخليجي هشة على الأقل في مستويين:

الأول: هي أنظمة لا تقوى على تبني أي مستوى من الحماية الشعبية فما بالك بفك الارتباط.

والثاني: أن بنيتها الدفاعية هشة، الأمر الذي ستحاول الولايات المتحدة والغرب الضغط عليها بكل من:

- وقف توريد السلاح
- تخويفها من الدور الإيراني.
- ووضع يدها على أرصدة كامل الخليج عبر بلطجة معهودة.

يُعيد تسقيف سعر النفط الروسي إلى

الأذهان المزاعم الغربية عام ١٩٩١ حين ابتدعت مقولة: «إن النفط سلعة عالمية» ولذا لا يحق لدولة التحكم بسعره ولا لمجموعة دول بقصد المنتجين. وكان ذلك مدخلا لتبرير الحرب على العراق والتي شارك فيها عرب ومسلمين، وها هم يأكلون نفس الضربة في العدوان الاقتصادي ضد سوريا وإيران وحتى لبنان!

لكن الغرب قد قرر القيام بهذا التحكم، كما أنه يتحاشى الجدال بأنه إذا كان النفط سلعة عالمية يجب تسييرها وتيسيرها لصالح مختلف الأمم، فإن التكنولوجيا هي كذلك لكنها قيد الاحتكار. وبالطبع فإن الراسمالية قد خصخصت حتى الماء.

## الإمبريالية وإشعال الحرائق:

كما أشرنا سابقاً، فالحروب قائمة على الصعيد العالمي بوتائر متعددة من حيث الشدة أو الكُمون. والمشكلة أن محرك هذه الحروب هو المركز الإمبريالي.

- فالحرب الصهيونية ضد سوريا لا تتوقف وإن لم تأخذ وضعاً شاملاً.
- والحرب الأمريكية على سوريا والعراق سواء بوجود وتنشيط قواعدها أو بإعادة تفعيل داعش لم تتوقف.
- والحرب المتوقعة من نظام المغرب بإشراف الكيان ضد الجزائر والبوليساريو محتملة وسهلة الإشعال في أية لحظة، خاصة وأن الجزائر أخذت تلعب دوراً واسعاً بسبب إمكاناتها النفطية وتمنعها النسبي عن تلبية المطالب الأوروبية مراعاة لعلاقتها بروسيا، أو نظراً لتقوية ترسانتها العسكرية في علاقتها بالاتحاد الروسي طبعاً .
- ولا توجد مؤشرات على توقف حقيقي للعدوان ضد اليمن ولا تأكيدات بأن الهدوء النسبي لن ينفجر.
- كما يمكن قراءة محاولات التخريب وتحريك أولاد الثورات الملونة في إيران على أنها حرب بالإنابة.
- وتحريك أمريكا لإذربيجان ضد أرمينيا بإغلاق الممر الذي يربط منطقة ناجورنو كاراباخ بأرمينيا لإشغال روسيا وتهديد إيران مجدداً.
- وعدم التوقف عن التخريب في أمريكا اللاتينية كما حصل في ديسمبر ٢٠٢٢ ضد الرئيس اليساري المنتخب في بيرو.
- هذا إن لم نذكر حرب التعطيش التي تقوم بها تركيا ضد العراق وسوريا وتقوم بها إثيوبيا ضد مصر.
- لنتذكر أن أمريكا حاولت في بداية الحرب بين روسيا والناتو جرَّ الهند للوقوف ضد الصين آخذة في الاعتبار أو مرتكزة على العلاقات المتعكرة بين الصين والهند. حينها صرح مصدر رسمي هندي بأن الهند لا تتلقى

تعليمات من أحد في إدارة علاقاتها. لكن هذا، كما يبدو، لم يكن سوى ردا دبلوماسيا. شاهد ذلك بداية تحركات عسكرية هندية في منطقة هماليا تجاه الصين وهذا بحد ذاته مشاغلة تُريح الناتو الذي يأمل بأن تكون حرباً!

- هذا ناهيك عن محاولات أمريكا اللّحاق بالنشاط الصيني في إفريقيا متمظهراً في محاولات الرئيس الأمريكي بايدن تنشيط علاقات بلاده الإقتصادية مع عدد من الدول الإفريقية لاقتلاع الدور الصيني من هناك، وكانت أمريكا قد نجحت في ذلك وخاصة في دول عربية. لكن كما يبدو، فإن قدرة الصين على الضخ المالي الموسع وتقديم شروط أفضل بكثير من شروط الغرب وعدم وجود تاريخ استعماري للصين في إفريقيا ولا في غيرها، تجعل مهمة أمريكا متعرقلة ومتثاقلة رغم وجود أنظمة فاسدة في إفريقيا تتوق لبقاء التبعية، نظراً لارتباطها كأنظمة تمثل مصالح الطبقات الراسمالية الكمبرادورية في بلدانها.

ما نرمي إليه هنا ليس مسحاً لكل ما يدور أو تديره الرأسمالية/ الإمبريالية وأدواتها وتوابعها المقربين من حروب، ولكن لتبيان بأن الإمبريالية لن تتوقف عن صنعة الحرب لأن الحرب هي إتلاف موارد العالم وتحصيل أعلى تراكم ممكن لصناعة السلاح وخاصة الأمريكي، وهذا في حقيقة الأمر هو التعويض عن مغادرة الغرب وخاصة أمريكا لكثير من مواقع الإنتاج طالما أن التراكم يتحصَّل عبر بيع الأسلحة للمتحاربين. وبهذا تحقق أمريكا إضافة إلى ثمن الأسلحة في الأوضاع العادية ريعاً إضافيا هو الريع الناتج عن فارق السعر بين الهدوء واشتعال الحرب!

## القومية الثالثة في خدمة صانعها الأمريكي

طبقاً للمركزانية الأوروبية، فقد أُطلق على فترة القوميات في أوروبا الغربية خاصة منتصف القرن التاسع عشر «عصر القوميات» بقصد اعتبار ما يحصل في أوروبا قابل للانطباق على كل العالم!

ولكننا نعتبر تلك موجة القومية الأولى والتي ظهَّرت الحداثة الأوروبية والاستعمار معاً. بينما كانت الموجة القومية الثانية هي فترة التحرر السياسي لبلدان المحيط من الاستعمار وهي موجة ثورية تقدمية جرى لجمها لاحقاً بتفكك أو بُهوت كتلة عدم الانحياز حيث سيطرت الرأسمالية المحيطية الكمبرادورية في معظم هذه البلدان وانخرطت في تبعية للإمبريالية.

أما موجة القومية الثالثة فقد صيغت إثر تفكك الكتلة الشرقية، حيث صنَّعتها الإمبريالية كموجة «قومية» جديدة هي موجة القومية الثالثة، والتي ركزت على تحريك الإثنيات والطوائف في الدول التي تهدف الإمبريالية إلى تفكيكها وكان

التطبيق في الاتحاد السوفييتي بعد تفكيكه، وفي السودان ويوغسلافيا والعراق وسوريا واليمن...الخ.

وبغض النظر عن نجاح التطبيق هنا أو هناك، فإن هذه الموجة التي تتشكل من دور خاص لشرائح الكمبرادور في بلدان التطبيق وتحالف هذه الشرائح مع القيادات الطائفية وحتى الجهوية في تلكم البلدان، لتخليق كيانات لا تقوى على الصمود بذاتها من جهة وهي في عداء مع محيطها من جهة ثانية، وهو ما نسميه «حروب الصغار الدائمة».

يصب هذا بالطبع في طاحونة التراكم لصالح الإمبريالية سواء لإضعاف الدول المستهدفة أو لتصريف السلاح إلى البلدان والكيانات المقتتلة، ناهيك طبعا أن تتبيعها واستغلال ثرواتها والحيلولة دون قيامها بتبني أية سياسات تنموية.

لعل النموذج الأخطر على هذه الموجة هي حالة الكر-صهاينة في سوريا وفي العراق والدور التركي في إدلب، وتحريك كمبرادوري/ طائفي في السويداء في سوريا. وكل هذا يخدم الدور التركي في اقتطاع أراض سورية وعراقية ويحول دون تماسك الدولتين.

## الحمائية الأمريكية لاقتصادها

لطالما حاجج الاقتصاديون الإشتراكيون بأن الراسمالية تقتضي وتتبنى بالضرورة الحماية الاقتصادية وصولا إلى الاستقطاب، ودحضوا مزاعم حرية التجارة و«دعه يعمل دعه يمر» و« تحرير التجارة الدولية»، مؤكدين بأن النص اللغوي هو حرية التبادل والتطبيق العملي حماية اقتصادية من كل دولة لاقتصادها.

وقد اتضحت حقيقية ذلك على مدار عمر النظام الرأسمالي في هيمنته على العالم، لكن تطورات حرب روسيا ضد الناتو كشفت عن تبني واضح للولايات المتحدة للحماية الإقتصادية حتى مع شركائها الأوروبيين إلى درجة تشكي هؤلاء من ذلك.

بل وصل الأمر إلى تحويل اقتصادات أوروبا إلى محميات أمريكية وخاصة بإرغامها على استيراد الطاقة من أمريكا بأسعار عالية ومفروضة.

والسؤال هنا: هل ستلعب هذه المسألة دوراً في حراك اجتماعي لدى الطبقات الشعبية وحتى الوسطى الأوروبية، لا سيما وأن هذا الفرض والإملاء مترافق مع إرغام أوروبا على المشاركة في الحرب ضد روسيا وتعريض أوروبا لتكون ساحة الصدام الموسع المحتمل؟

هذا بالطبع برسم القوى التقدمية هناك!

## إيكوس.. التحشيد ضد الصين

إذا كانت الولايات المتحدة قد دخلت الحرب الريعية مباشرة ضد روسيا والحرب بالإنابة ضد روسيا في أوكرانيا وفي غير مكان، فإنها لن تدخل الحرب هكذا، أو هكذا فقط ضد الصين لا سيما وهي تلهج بضرورة لجم الصين أو هزيمتها منذ قرابة عقدين من الزمن.

وعلى الرغم من أن كامل الغرب في خدمة السياسة الأمريكية إلا أن تحالف إيكوس هو مركز هذا العدوان المحتمل، وهو إلى

جانب الولايات المتحدة هناك بريطانيا وأستراليا، وكوريا الجنوبية واليابان.

ولا شك أن مصير أو نتيجة الحرب في أوكرانيا سيكون لها تأثيرها إلى درجة القرار الحاسم في حرب إيكوس ضد الصين، بمعنى الحرب الفورية كما تستميت لذلك أستراليا، أو التلكؤ أو الانتهاء إلى مساومة ما.

بيت القصيد هنا أن الولايات المتحدة لن تتنازل عن سيطرتها على الكوكب بلا ثمن وقد يكون ثمناً على حساب البشرية كلها.

هل ستتمكن الصين وروسيا من سحب الفتيل الانتحاري من الوحش الإمبريالي والتوصل إلى هدنة عالمية؟؟؟ لا ندري بعد.

## الصين الحمراء في مكة:

تشكل زيارة الرئيس الصيني للسعودية ولقائه عددا من الحكام العرب محاولة صينية للحصول على مزيد من الكعكة في الاقتصادات العربية، التي تلتقي على طاولة مؤتمر وتختلف في بناء العلاقات بما هي علاقات فرادى مع أي من القطبين. وبالتالي، فالكاسب هو هذا القطب أو ذاك لأن المطلوب هو اقتصاد عربي واحد وهذا غائب. (نترك هذا للمشهد العربي).

## لماذا يتخابث الوحش:

هناك، في الأيام الأخيرة من عام ٢٠٢٢ تحركات أمريكية ذات طابع مختلف عن نهجها الصدامي العدواني والفوقي ضد بلدان العالم الأخرى. ففي حين تفرض على أوروبا حليفتها التاريخية شروطاً قاسية على المجتمعات الأوروبية المرفهة نتيجة تاريخ من تحويل فائض القيمة التاريخية من المحيط إلى المركز (الراحل د.أنور عبد الملك).

هذا التغير الجديد والمتسم بمرونة تُناقض عهدها السابق تجاه فنزويلا على سبيل المثال، حيث قررت تنشيط استيرادها للنفط من فنزويلا بعد محاولات حصار قاتل وحتى تشكيل قيادة تابعة ضد النظام الثوري الشرعي في كاراكاس! ولا شك أن لهذا علاقة بطواف الغرب مختلف بلدان إنتاج النفط لتعويض ما انقطع من النفط الروسي.

وكذلك عدم الرد المتشدد على استقبال أنظمة الخليج التابعة لأمريكا للرئيس الصيني وعقد اتفاقات مع الصين بدل أن كانت أمريكا تُعامل هذه الأنظمة بالأوامر فقط. ويندرج في هذا السياق إعادة التوجه الأمريكي إلى إفريقيا كما أشار المشهد أعلاه.

لا شك بأن هذا الأسلوب الجديد هو تعبير عن ملامح الضعف وليس دليلاً على تغير في النهج الإمبريالي.

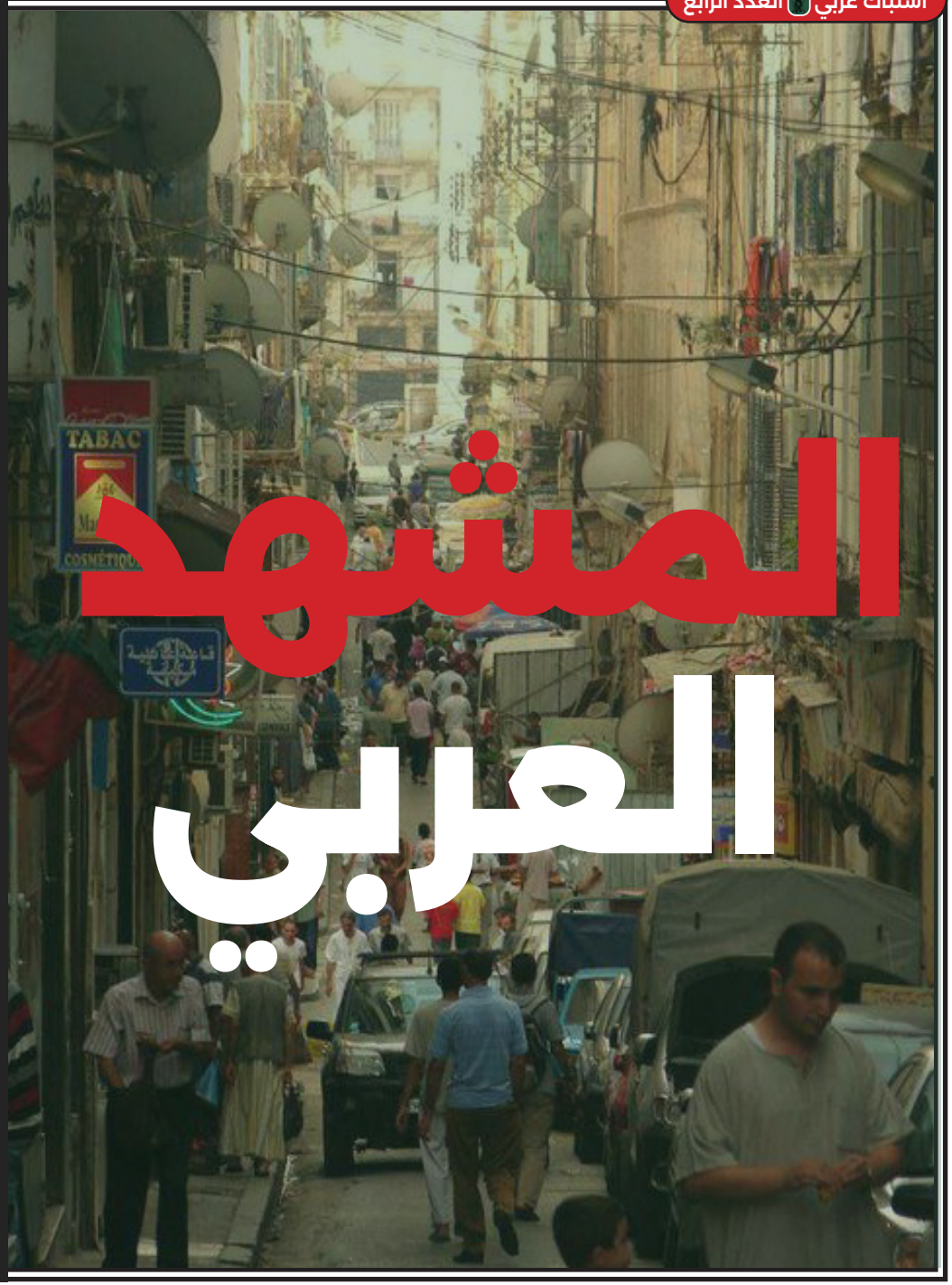


# المشهد العربي

في ختام عام ٢٠٢٢، أفاد تقرير للجنة الأمم المتحدة الاقتصادية والاجتماعية لغربي آسيا (الإسكوا) الذي صدر في الأيام الأخير للعام، ارتفاع «مستويات الفقر في المنطقة العربية في عام ٢٠٢٢ مقارنة بالسنوات الماضية ليصل عدد الفقراء إلى ما يقرب من ١٣٠ مليون شخص، أي ما يمثل ثلث سكان المنطقة العربية، باستثناء دول مجلس التعاون الخليجي وليبيا، وذلك وفقا لخطوط الفقر الوطنية». إضافة لذلك، توقع التقرير «أن تستمر (معدلات الفقر) في الارتفاع خلال العامين المقبلين لتصل إلى ٣٦٪ في عام ٢٠٢٤. أما فيما يخص البطالة، فأفاد التقرير أن المنطقة العربية سجلت «أعلى معدّل بطالة عالميا في عام ٢٠٢٢ بنسبة ١٢٪».

اللافت أن التقرير يتوقع أن تشهد «اقتصادات المنطقة العربيّة نموا بنسبة ٤.٥٪ في عام ٢٠٢٣ و٣.٤٪ في عام ٢٠٢٤، إلا أن معدلات الفقر ستستمر بالارتفاع، برغم هذا النمو وبرغم توقع انخفاض التضخم من ١٤٪ عام ٢٠٢٢ الى ٨٪ و٤.٥٪ على التوالي خلال العامين القادمين. أيضا، برغم هذا النمو، فإن التقرير لا يتوقع انخفاضا ملموسا في معدلات البطالة (فقط من ١٢٪ حاليا وهي النسبة الأعلى في العالم الى ١١.٧٪ في العام القادم). هذا يعني أن المعضلة الأساسية هي في النموذج الاقتصادي السائد في المنطقة العربية، وأن الاستمرار في تداول الأخبار عن ارتفاع معدلات النمو وتوقعات بارتفاع معدلات النمو في المستقبل، هي جزء من الدعاية والتضليل. حال الوطن العربي الراهن المرعب، كما يشير له التقرير على الأقل في حالتي النسبة العالية للفقر (ثلث السكان خارج مجلس التعاون الخليجي) ومعدلات البطالة (١٢٪) الأعلى في العالم، يؤكد أن التكامل بين العدوان الخارجي والسياسات الاقتصادية المحلية (المفروضة من الخارج بتعاون الشرائح المتنفذة والمرتبطة مصلحيا بالخارج) هياستمرار لحالة الحروب الدائمة التي تشن على الوطن العربي.

## مقدمة: الحروب المستمرة على العرب

خلال القرن الماضي، لم تتوقف الحروب (وليس الحرب) المتعددة الأشكال والجبهات (عسكريا، اقتصاديا، سياسيا، ثقافيا) على الوطن العربي مطلقا، وشاركت فيها أساسا الولايات المتحدة الأميركية وأوروبا، لدرجة أن الوطن العربي تعرض منذ الحرب العالمية الثانية لأعلى نسبة تواتر للحروب والعدوان العسكري على وجه الأرض. فمنذ نكبة فلسطين، ذات العلاقة المباشرة بنتائج الحربين العالميتين، حتى اليوم لم تتوقف الحروب على أمتنا حتى عاما واحدا. على العكس، كنا نشهد باستمرار حروب كبرى كل عقد تقريبا، يمكن النظر إليها بأثر رجعي الآن على أنها كانت محطات لحصاد النتائج السياسية والاقتصادية والعسكرية والثقافية للحروب المستمرة علينا (نكبة فلسطين ١٩٤٨، الحرب على الثورة الجزائرية ١٩٥٤، العدوان الثلاثي في حرب السويس ١٩٥٦، حرب اليمن ١٩٦٢، النكسة ١٩٦٧، غزو لبنان ١٩٧٨ و١٩٨٢، غزو وتدمير العراق ١٩٩١ و٢٠٠٣).

ومنذ مطلع القرن الحالي، شكل الوطن العربي أيضا منطقة للتدخل العسكري الإمبريالي الغربي، عدى عن الأشكال الأخرى للحروب، لا مثيل لها في عالم ما بعد الحرب الباردة – الغزو الأمريكي الهمجي للعراق مرتين وبنتائج كارثية، العدوان الصهيوني الهمجي على لبنان ٢٠٠٦، الحروب المستمرة على فلسطين وحروب عسكرية شبه سنوية على غزة، حروب الناتو ووكلائه العرب على ليبيا، حروب الولايات المتحدة والإمبريالية الغربية والكيان الصهيوني ووكلائهم الإقليميين والمحليين المستمرة على سورية منذ ٢٠١١، حروب دول مجلس التعاون الخليجي ودول عربية أخرى مدعومة من واشنطن والغرب الامبريالي على اليمن المستمرة منذ ٢٠١٥.

لحظة إعلان جورج بوش العدوان الامريكي على العراق

لكن منذ غزو العراق في ٢٠٠٣ بدأت تتضح وتتكشف حقيقة ومعالم وطبيعة الحروب على الوطن أكثر مع تطور الجيل الجديد من الحرب (وليس المقصود هنا تقنيات الحرب، بل أهدافها). فكما ذكرنا مرارا في اشتباك، يظهر جليا أننا أمام فئة غير تقليدية، بل ومختلفة من الحروب تعرف بـ «الحرب المستمرة» أو «الحرب الدائمة» (كما سماها الأكاديمي العربي علي القادري). وهذه الحروب لا تستهدف تحقيق النصر العسكري التقليدي بهزيمة الخصم، أو حتى تحقيق نتائج سياسية عميقة الأثر كتغيير الأنظمة السياسية واستتباعها فقط، كما هي العادة في الحروب التقليدية. بل، إن هدف هذه الحروب هو إنتاج دول ومجتمعات عربية (وجنوبية أيضا) فاشلة بشكل دائم ومستدام، من أجل تأمين بعيد المدى للتنظيم الاستراتيجي للإقليم القائم يضمن المصالح الإمبريالية الغربية في بلادنا في المستقبل، ويضمن وجود الكيان الصهيوني كذراع متقدمة وضاربة للإمبريالية الغربية. فالتنظيم/الترتيب الاستراتيجي للإقليم هو شرط استدامة مصالح الإمبريالية الغربية ووجود الكيان الصهيوني من جهة، وأيضا وجود وتحقيق مصالح القوى/ الشرائح الاجتماعية المتنفذة في الوطن العربي التي تلتقي في مصالحها وأمنها الطبقي مع مصالح العدو الغربي والصهيوني.

لهذا لا يبدو لنا في اشتباك لغزا على الإطلاق أن بعض الدول العربية التي لم تتعرض كغيرها لحملات مستمرة من العدوان العسكري الهمجي، بل وحتى تعتبر أنظمتها حليفة للولايات المتحدة وبينها وبين الكيان الصهيوني معاهدات «سلام» كالأردن ومصر ليست بأقل فشلا مستداما من الدول الأخرى التي تتعرض لعدوان مستمر. فالحروب على

هذه الدول تأخذ شكل الحروب الاقتصادية، أو «التنمية المعكوسة» التي تنتج عن تطبيق السياسات التي يفرضها البنك الدولي وصندوق النقد. فهذه الإستراتيجيات التي لم تنتج تنمية حقيقية في أي دولة نفذت سياساتها على الإطلاق، تعمل وبشكل فعال ومنهجي على اجتثاث قدرات وإمكانيات الوطن العربي على النمو (انظر «التنمية العربية ممنوعة: آليات التراكم عبر الحروب العدوانية»). فمراجعة ما حصل في وللوطن العربي خلال العقود الخمسة الماضية فقط، وهي عمر اختراق النيوليبرالية لبلادنا تشي بأن الوطن العربي خَضَعَ (أو أُخْضِعَ بالقوة غالباً) لعملية تنمية معكوسة (Dedevelopment) عبر تجريده من قدراته وإمكانياته على النمو. وتاريخ التنمية المعكوسة في الوطن العربي هو، هو، تاريخ النيوليبرالية في بلادنا.

كل المؤشرات الاقتصادية (الفقر طويل الأمد، ارتفاع معدلات البطالة ومستويات اللامساواة، تدفق الموارد الحقيقية والمالية، الانتهاكات المستمرة لحقوق الإنسان الأساسية من قبل الأنظمة والاستعمار العسكري لفلسطين، العدوان العسكري الغربي المستمر على بعض الأقطار العربية، وغيرها الكثير مقارنة بالمعايير العالمية) تؤكد أن ما حصل خلال العقود الثلاثة الماضية هو «عملية تفكيك متعمد ومنهجي لقدرة الوطن العربي» على التحول هيكلياً وبالتالي اجتثاث قدرته على النمو. وفوق ذلك كله، لم يتعرض الوطن العربي مثل باقي دول الجنوب لعملية كلاسيكية من إنتاج التخلف (underdevelopment) فقط، ولم يتعرض للتبعات المتوحشة التقليدية لنماذج ووصفات النمو المفروضة من البنك الدولي وصندوق النقد (طرد آلاف الفلاحين من الأرض وتحويلهم ليد عاملة رخيصة تبحث بيأس عن عمل)، كما لم يعاني فقط مما سماه روي ماورو ماريني «الاستغلال الفائق». إضافة لكل ذلك، وخلال قرن كامل، كان الوطن العربي ساحة حروب لا تتوقف ولم تكن الإمبريالية الغربية تنظر لبلادنا إلا من منظار البندقية والطائرات الحربية.

والحرب (العسكرية في هذه الحالة) ليست مجرد الوجه العنيف والوحشي لرأس المال فقط، بل هي أيضاً أحد آليات تراكمه (فرضية «المجمع الصناعي العسكري» لتفسير الحروب الغربية على بلادنا تبسيطية جداً طبعاً، إن لم نقل سخيفة، مثل فرضية اللوبي، لأنها تتجاهل فكرة الطبقة الحاكمة والنخبة الحاكمة في المجتمعات الإمبريالية الغربية، وتتجاهل ترابط مصالح رأس المال والشركات في المنظومة الرأسمالية، وحتى تظهر قاصرة في فهم جوهر فكرة رأس المال. فبرغم وجود مثل هذه التجمعات فعلا (لا يمكن إنكار وجود وفعالية اللوبي وشركات السلاح)، إلا أنها يجب أن تفهم كأدوات حكم للطبقات الغربية المهيمنة، وليست مؤسسات ومراكز ضغط بلا جذور وبلا ارتباطات اجتماعية-اقتصادية). الحروب المتتالية في وعلى وطننا العربي كانت دوماً آلية دمجه في منظومة الاقتصاد الرأسمالي العالمي، والأهم كانت الآلية التي أعادت تشكيل وتطويع الطبقات المهيمنة (المهزومة) في الوطن العربي، كما يحصل عادة بعد كل حرب، وفق مصالح الغرب ووفق شروط الهزيمة. في المحصلة تفرض الحرب على المهزوم دائماً شروطها، وهكذا فقد الوطن العربي تدريجياً سيادته وحتى أساسيات مفهومه للأمن القومي (المعنى الحقيقي للتنمية)، عبر إخضاعه لسياسات نيوليبرالية متوحشة أنتجت ظروف معيشية مرعبة في بعض الأقطار العربية.

هذه الخلفية تفضح وتعري الشكل الآخر للحروب التي تشن على أمتنا من قبل «منظري» الديمقراطية الليبرالية في بلادنا. فما معنى الديمقراطية في هذا السياق الكبير حين تصادر كل القرارات المهمة وتوضع في عهدة المؤسسات الدولية في الخارج (البنك الدولي وصندوق النقد والمفوضية الأوروبية). هذه ديمقراطية الطبقة المهزومة التي تتشارك في الأمن الطبقي (المصلحي) مع العدو الخارجي، وتضع شعبها فقط أمام اختيار من ينفذ تعليمات الخارج وشروط الهزيمة فقط ويتنازل عن السيادة الوطنية، ولا تؤسس لصعود من يملك برنامج سيادة وطنية. الديمقراطية الليبرالية في هذا السياق ليست إلا حربا من نوع آخر، أو امتدادا

للحروب الأخرى التي تشن على أمتنا، والتنظير لها هو جزء من غزو أيديولوجي كاسح تعرض له وطننا العربي منذ هزيمة ١٩٦٧ وتَصاعد أكثر مع الحملة الغربية الأخيرة المسماة «الربيع العربي» منذ ٢٠١١. وهذا الغزو الأيديولوجي يستهدف فرض عبودية مقنعة بموافقة الطرف المستعبَد تُستثمر فيها عادة الهزائم العسكرية لإعادة تشكيل الوعي العربي وقبوله بهذه المكانة. وهذه الخلفية ضرورية أيضا لأنها تفسر لحد سياق الأزمات المتصاعدة والمتجددة خلال الأشهر الماضية، وتفسر حال الوطن العربي الراهن كما سنجمله باختصار.

## - مصر

قد يكون تفكيك المنظومة «الاشتراكية العربية» (كما اصطلح على تسميتها لتوصيف محاولة التنمية المستقلة وفق النموذج العالمثالثي السائد حينها) في مصر بعد حرب عام ١٩٦٧، وإعادة تشكيلها وفق شروط الهزيمة هو أنجح المشاريع الإمبريالية الغربية في الوطن العربي منذ الحرب العالمية الثانية على الإطلاق، هذا عدى عن أنها تكشف تكامل الدور الذي يقوم به العدو الصهيوني عسكريا والمشاريع الإمبريالية الغربية في بلادنا. فإعادة تشكيل/ تركيب المنظومة الكلية في مصر، التي تشكل المركز السياسي والثقافي والسكاني الأهم للوطن العربي، لم تكن سياسية واقتصادية وعسكرية فحسب، بل كانت أيضًا أيديولوجية/ ثقافية. هذه الحروب متعددة الأشكال والجبهات التي شنت على مصر، وبلغت ذروتها في الهزيمة العسكرية القاسية للعرب في عام ١٩٦٧، أسست البنية التحتية للساداتية كنموذج استعماري جديد كلي من التبعية والتنمية المعكوسة، ويبدو أنها قد ألهمت الاستراتيجيات الإمبريالية اللاحقة في الوطن العربي، لا سيما في السياسات الغربية والصهيونية تجاه سورية.

سياسياً، لم تفصل الساداتية مصر عن المعسكر الاشتراكي والشرقي حينها للانضمام إلى المعسكر الرأسمالي الأمريكي المضاد دوليًا فحسب، بل تخلت أيضًا في نفس الوقت عن دورها القيادي في حركة عدم الانحياز والوطن العربي، وانفصلت في النهاية بحدة عن الإجماع العربي ووقعت معاهدة سياسية منفردة مع العدو اللدود السابق، «إسرائيل». من الناحية الاقتصادية، لم تبادر الساداتية لتفكيك النموذج «الاشتراكي العربي» فقط، بل بدأت أيضًا وبشكل منهجي في تبني وتنفيذ المشروع المناهض له تماما بالعمل على لبرلة الاقتصاد تدريجيًا. فلقد بدأ السادات مشروع تفكيك قطاع عام نشط وناجح نسبيا بشكل ملحوظ أسست له التجربة السابقة، أنتج وفق كل المؤشرات زيادة كبيرة في معدلات الفقر وتزايد اللامساواة، انخفاض ملحوظ في متوسط إنتاجية العمال ومعدلات نمو الوظائف (بسبب المنظومة الاقتصادية النيوليبرالية). عسكريا، لم تقم الساداتية ببساطة بالتحول للعتاد العسكري الأمريكي، لكن كان يتوقع أن تتأثر أيضا العقيدة العسكرية للجيش كمؤسسة بما يتطابق مع نوعية التسليح. وطبعا تضافرت كل هذه التغييرات، وغيرها، مع غزو أيديولوجي كاسح بلغ ذروته بفقدان إيديولوجية المقاومة العربية (العروبة) التي مثلتها المنظومة الكلية السابقة، فظروف الهزيمة وشروطها القاسية في الحالة المصرية لم تنتج الساداتية فقط، بل واستولدت معها فكرها وثقافتها ومثقفيها أيضا.

كل ذلك وعلى مدى عشرات السنين كان يعيد تركيب التشكيلة الاجتماعية بما يتضمن وجود شريحة غربية الهوى والمصالح تشكل امتدادا للغرب الامبريالي في بلادنا. على هذا النحو، تمثل مصر ما بعد ١٩٦٧ نموذجًا مثاليا، أو مختبرا، لتفسير الكثير عن الحروب متعددة الجبهات على الوطن العربي، لا سيما بعد ٢٠١١. لهذا، ففهم النموذج المصري تحديدا أمر حاسم في تصور وفهم طبيعة الحرب الشاملة غير المسبوقة على سورية، مثلا، كما سنرى، بهدف خلق نموذج ساداتي سوري قاومته سوريا برغم هزيمة حزيران ١٩٦٧. كان العدوان العسكري الصهيوني عام ١٩٦٧، المسؤول الأول عن إنجاب نموذج السادات، لكنه أخفق في مصرنة سورية ساداتيا، رغم أنه لا يزال يحاول حتى لو كلف الأمر التسبب بمجاعة

غير مسبوقة في بلاد الشام.

بعد خمسين عاما من السياسات النيوليبرالية أصبحت الظروف في مصر صعبة جدا، خصوصا حال الطبقات الشعبية التي تشكل الغالبية من المواطنين، وبعد خمسين عاما من الالتزام شبه الكامل بكل ما يصدر عن واشنطن والمؤسسات المالية الخاصة بهذا النموذج، لا يبدو أن هناك أفقا حتى للتشكيك بهذا النموذج برغم تراكم الاختلال بين الادخار والاستثمار، بين النمو الأجوف وفرص العمل المنخفضة، بين انخفاض القدرات الصناعية. الإنتاجية والثروة. وطبعاً، لا تزال الطبقة المتنفذة في الاقتصاد والسياسة ترفض حتى نقاش دور القطاع العام، وترفض حتى مجرد عقد مقارنة بين النموذج الراهن والسابق. فأي مقارنة ستكشف بلا أدنى شك أن مصر تعرضت على مدار خمسين عاما لاستهداف واستنزاف كبيرين، وأريد لها أن تكون النموذج الذي يُتَّبَعْ في باقي أقطار الوطن العربي بسبب مكانتها ومكانها ودورها.

وفيما تحتاج مصر، بالتالي، لرؤية جذرية جديدة وإعادة توجيه شاملة للسياسات لإنقاذها (حرفيا) من الأزمة الخانقة والمستعصية التي تمر بها، يستمر النظام بتكرار نفس وصفات النموذج الذي أسس لهذه الحالة عبر اللجوء مرة أخرى لقروض البنك الدولي ذات الشروط القاسية، التي أصبحت تمس حتى بالسيادة (طالما أنك تنفذ سياسات وتلتزم بشروط مؤسسات خارجية، أو «دولية» كما يحلو لها أن تسمي نفسها، متعلقة مباشرة بأساسيات حاجات المواطن ورغيف خبزه، وسعر العملة الوطنية، فهذه قضية أمن قومي بامتياز).

والقرض الأخير الذي تم الاتفاق لحصول مصر عليه (يقارب ٣ مليار دولار) بشروط قاسية جدا، ليس فقط لن يستطيع حتى المساهمة في حل أي من المشكلات المستعصية، أو أن يوقف بعض النزيف، بل سيتسبب بالمزيد. فوفق متطلبات وشروط الاتفاق مع البنك الدولي سيزداد انسحاب الدولة من الاقتصاد. فبناءً على شروط القرض، أصدرت الحكومة المصرية، بعد موافقة الرئيس، «وثيقة سياسة ملكية الدولة» التي تحدّد ٦٢ من الأنشطة الاقتصادية، التي ستنسحب الدولة منها لصالح القطاع الخاص. الجديد أن هذا الانسحاب سيؤثر هذه المرة على الدور الذي كانت تلعبه مؤسسة الجيش في الاقتصاد، وبالتالي ستخسر الدولة العائدات الاقتصادية التي كان يتحصل عليها الجيش. تدريجيا قاد النموذج النيوليبرالي بالتأسيس لتفكيك الدولة بانسحابها من الاقتصاد، وهو ما يفسر تراجع قدرة الدولة على توفير حتى جزء من وسادة الحماية التقليدية للطبقات الشعبية وذوي الدخل المنخفض والمتوسط، وتدريجيا لن تستطيع الدولة القيام بدورها التاريخي (سواء الإيجابي والسلبي).

ولأن مشروع قانون قناة السويس الضبابي المقترح على مجلس الشعب جاء في هذا السياق، فإن القلق الكبير من الإقدام على خصخصة قناة السويس التي تجلت بوضوح في المواقف الشعبية في مصر والوطن العربي محقة. فعدى عن الأهمية الاقتصادية لقناة السويس، فإن الحساسية الشعبية العربية تجاه قناة السويس لها خصوصيتها. فمكانتها ورمزيتها الهائلة في الوجدان العربي كرمز تحرري واستقلالي منذ تأميمها من جهة، والتضحيات الهائلة التي قدمها الشعب العربي في مصر لبنائها أولا، وتأميمها لاحقا، ثم تحرير ضفتها الشرقية في عملية بدر المجيدة في تشرين/ أكتوبر ١٩٧٣ لا تجعلها مجرد شركة أخرى أو مرفق اقتصادي آخر يمكن لأي سلطة أن تخاطر بخصخصتها، على الأقل دون توقع نقمة ورد فعل عربي (وليس مصري فقط) غاضب جدا لمكانتها في الضمير العربي.

لهذا، ما يمكن رؤيته من تجريف للحياة السياسية في مصر، حتى أكثر من المرحلة السابقة، ربما يتزايد وسيكون أخطر إذا تم

استهداف دور الجيش، لأن شروط القرض الجديد تؤسس لذلك فعلا. لكن الجدل الذي دار حول مشروع قناة السويس هو جدل سياسي للأسف أساسا، ويعبر عن طبيعة الاصطفافات القائمة سواء بين أقطاب الطبقة الحاكمة (الجدل الذي دار بين بعض أقطاب النظام أو استغلال هذه القضية في الخلافات البينية)، أو الجدل الذي أثارته بعض أطراف المعارضة للنيل من النظام وليس حرصا على القناة – طبعا هناك بالتأكيد مواقف جذرية لقوى مصرية متعددة (حتى من داخل النظام) حذرت من مخاطر الإقدام على تلك الخطوة.

في المقابل، دأب النظام، الذي يدرك تبعات القروض على الدولة وعلى الحياة السياسية والاقتصاد. (بغض النظر عن الديباجة التي قدمتها الحكومة لتبرير وتسويق «وثيقة سياسة ملكية الدولة»)، محاولة الالتفاف على بعض تبعات السياسات المتبعة تنفيذا لشروط البنك الدولي عبر اقتطاع قسم من دخل القناة وتأسيس صندوق آخر. وهذه الصناديق الخاصة تتيح مزايا للنظام كتلك التي كان يتيحها له الجيش، فهي ليست تحت الرقابة ولا تدخل ضمن الميزانية العامة التي من المفترض أن تخضع ليس فقط لرقابة مؤسسات الدولة، بل والبنك الدولي أيضا (وفق شروط البنك ومحاولة فرض وصاية على الاقتصاد). لكن هذا المخرج للإفلات من بعض شروط الصندوق الدولي لا يمكن أن يشكل حتى أساسا لحل. فالمزيد من الاستدانة، كما يشير البيان المالي للموازنة العامة للدولة للعام المالي ٢٠٢٢- ٢٠٢٣، جعلت خدمة الدين (٦٩٠ مليار جنيه أو ما يعادل ٣٧ مليار دولار) إضافة إلى قيمة الأقساط واجبة السداد من الدين المحلي والخارجي (٩٦٥ مليار جنيه، أو ما يعادل ٥٢ مليار دولار) تتجاوز إجمالي الإيرادات العامة (تريليون و٥١٧,٩ مليار جنيه أو ما يعادل ٨١,٦ مليار دولار) بأكثر من سبع مليارات دولار.

المسار الذي فرض على مصر، خصوصا في الاقتصاد، منذ منتصف السبعينات لم يصل إلى حائط مسدود فقط، ولكنه أسس لازمة اقتصادية- اجتماعية مستعصية.

## - سورية

لم تتوقف الإدارة الأميركية منذ أكثر من اثني عشر عاما من اجتراح وسائل جديدة وقاسية لقتل السوريين. آخر فصول الحروب الهمجية على سورية التي تهندسها وتقودها الولايات المتحدة مباشرة هو ما يسمى "قانون الكابتاغون» الذي تم إقراره في الكونغرس ووقع عليه الرئيس نهاية شهر كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٢٢. هذا القانون يشكل استكمالا لقانون قيصر الذي أقر قبل ثلاثة أعوام وأسس لعقوبات قاسية جدا. والقانون الأخير الذي وقعه بايدن، أرفق برسالة إلى عدة وزارات (الخارجية، الدفاع، الخزانة، إدارة مكافحة المخدرات، الاستخبارات، وكل الوكالات الفيدرالية ذات الصلة) للعمل على صياغة استراتيجية سيتم تقديمها للكونغرس وتنفيذها خلال ١٨٠ يوما، وهذا يتضمن فرض عقوبات على الدول والمؤسسات والشركات والأشخاص التي تتعامل مع الدولة السورية.

جوهر هذا القانون ليس أقل من إعلان حرب تجويع على كل من يقطن أراضي الجمهورية العربية السورية الواقعة تحت سيطرة الدولة. ففي هذه الأيام تمر سورية بأسوأ وأصعب كارثة معيشية عرفتها في التاريخ الحديث، ويحاصر ويُحرَم السوريون من أبسط الحقوق في الغذاء والدفء والدواء والحركة، ويبدو أن الهدف الأساسي هو معاقبة كل مواطن عربي سوري حتى الموت، وتهديده، حرفيا، إما بالإبادة أو الاستسلام. واستخدام هذا السلاح ليس جديدا، وإن كان يأخذ أبعادا متطرفة وهمجية أكثر من السابق. فبذريعة ما سمته إدارة نيكسون الأميركية في ١٩٧١ «الحرب على المخدرات»، تم شن حملة وحرب على الفقراء والأقليات لإخضاعهم داخل الولايات المتحدة، لا تزال بعض أدواتها وسياساتها قائمة حتى الآن، وتم لاحقا تعميمها لتبرير التدخل وممارسة الضغوط والترهيب على

دول أخرى، تحديدا في أميركا اللاتينية.

أما في سورية، فبالإضافة للتجويع، أو التهديد بالقتل بالتجويع، يستهدف القانون صناعة الأدوية السورية أيضا، رغم كل ما تعرضت له أثناء الحرب على الدولة والشعب، وهو ما سيفاقم من عذابات المرضى ويزيدها صعوبة. فبحجة هذا القانون سيتم محاصرة صناعة الأدوية ومنعها من استيراد المواد الضرورية للصناعة، عدى عن زيادة الحصار على محاولات الدولة لتوفير الأجهزة الطبية أيضا. أول ضحايا هذا القانون الإجرامي سيكون مرضى السرطان والأمراض المستعصية.

الجانب الآخر والمهم فيما يجري في وعلى سورية هذه الأيام هو الصمت العربي شبه المطلق، وتحديدا الصمت الشعبي العربي الذي لا يمكن أن يبرر بعد انكشاف ما حصل فيما يقارب اثني عشر عاما من الحروب بقيادة الولايات المتحدة وأوروبا ومشاركة فعالة من الكيان الصهيوني، تركيا، وبعض الأنظمة العربية. فما يجري في سوريا، حرفيا، ليس أقل من حرب إبادة تجري أمام أعيننا جميعا، وتتجاهلها الصحافة والإعلام، هذا حتى لا نذكر من يروج لها من الإعلام العربي. لكن الصمت الشعبي لم يعد مبررا. ما يحصل اليوم في سوريا هو برسم كل عربي أينما كان، وإذا أرادوا لأهلنا في سوريا أن يموتوا جوعا، فإن كل عربي مسؤول وعليه أن يعرف أن أضعف الايمان في هذه المرحلة لن ينقذ طفلا من الموت، ومن سيكتفي بمشاهدة أطفال سوريا يموتون جوعا وحصارا وعقوبات على الشاشات، عليه أن يعرف أن آخرين سيُشاهدون أطفاله يموتون بنفس الطريقة في المستقبل. لهذا فإن الدفاع عن سوريا اليوم هو دفاع عن أطفالنا في كل مكان في المستقبل.

## - لبنان

لا يزال المشروع الأميركي (الغربي) الصهيوني لاستهداف المقاومة في لبنان مستمرا، بل وتتطور أدوات الحصار والعدوان على كل لبنان، وتحديدا البيئة الحاضنة للمقاومة، للنيل منها. المقاومة اللبنانية شكلت عبر السنين نموذجا فريدا ومتميزا من المقاومة استطاع بوجوده إحداث خلل كبير في موازين القوى، مما عطل (بالحد الأدنى) قدرة الإمبريالية الغربية والعدو الصهيوني وحلفاءهم في المنطقة العربية من تنفيذ مشاريعهم بالهيمنة والإخضاع والنهب والخراب، هذا عدى عن الدور المهم الذي يلعبه حزب الله في فلسطين وإسناده للمقاومة الفلسطينية (بالإضافة لكونه نموذجا للمقاومة وحجة بنجاحه لاستمرارها) ودورها المهم في نصرة سوريا في مواجهة الحروب الشرسة على الجمهورية العربية.

الاستهداف الأميركي والصهيوني وحلفاءهم «العرب» للمقاومة الإسلامية في لبنان خصوصا، واستهداف محور المقاومة عموما، يزداد شراسة. وبمعزل عن قوة المقاومة وجديتها، إلا أن شراسة الاستهداف تفترض من كل العرب (من المحيط الى الخليج) ليس فقط عدم ترك المقاومة وحيدة، ولكن مناصرتها بكل السبل والأدوات الممكنة، لأن صراعها مع العدو (الغربي-الصهيوني وحلفاءه العرب) هو نيابة عن كل العرب وأهل المنطقة.

الإنجاز الأخير للمقاومة المتمثل بالترسيم الحدودي البحري، خصوصا وفق الصيغة والطريقة والآليات التي تم بها، يشير الى جدوى المقاومة الهائلة. فلولا وجود المقاومة وقوتها لما استطاعت الدولة اللبنانية الوصول الى مرحلة الترسيم وفق الشروط والطريقة التي تمت بها

-لا مفاوضات مباشرة، لا اتفاق سياسي، لا اعتراف بالكيان الصهيوني. هذا طبعا لم يكن ممكنا لولا قوة وحضور المقاومة من جهة، حتى لا نقول إن مجرد قبول الكيان الصهيوني بالترسيم (على الأقل وفق الصيغة التي تم بها) كان سيكون مستبعدا، وكان الكيان سيمارس رياضته المفضلة بالسطو على ثروات العرب ونهب خيرات بلادهم. وفي المقابل أعلن حزب الله موقفه الجذري من رفضه حتى لفكرة وجود الكيان بحد ذاتها، وتأكيده على أن الثروات الغازية والنفطية جنوب جنوب لبنان هي ملك للشعب الفلسطيني (وطبعا يتوجب تحريرها كجزء من تحرير فلسطين)، حتى لا يحصل أي التباس أو حتى لا يقوم أعداء المقاومة بالمزايدة عليها (وبعضهم قام فعلا بذلك رغم سكوتهم على التطبيع العلني الذي تقوم به أنظمة عربية حليفة وحتى ممولة لهم). لكن توظيف زخم المقاومة لتحقيق إنجاز يمكن للبنان الاستفادة منه لاستغلال ثرواته لحل ولو جزء من الأزمة الخانقة، هو إنجاز يحسب للمقاومة من جهة، ويشير للآلية الوحيدة الصحيحة والفعالة للتعامل مع الكيان الصهيوني في كل الملفات.

لكن الترسيم كملف، لم ولن يضع حدا للحروب المتعددة على المقاومة في كل الجبهات وبكل الأشكال. على العكس، فإن الهجمة تزداد، خصوصا بعد أن أثبتت المقاومة جدواها الكبير في ملف الترسيم. وفي هذه الأيام يتعرض حزب الله وحاضنته خصوصا، وأغلب لبنان عموما، لهجمة شرسة تستهدف النيل منه ومن دوره الذي يتجاوز لبنان الى المحيط العربي والإقليمي في مواجهة المشاريع الغربية-الصهيونية. فبالإضافة للمقاومة الفلسطينية، فإن المقاومة الإسلامية في لبنان هي نقطة التمرد الوحيدة تقريبا على المشاريع الإمبريالية والصهيونية في الوطن العربي، وهي أيضا بارقة أمل كبيرة نظرا لتاريخها وانجازاتها وجديتها. وهذا يرتب مسؤولية جدية وحقيقية وطنية وقومية وأخلاقية ليس على كل لبناني فقط، بل وعلى كل عربي كذلك للالتفاف حول المقاومة ومناصرتها بكل السبل الممكنة. ولهذا، فإننا في اشتباك ندعو إخوتنا العرب (أفرادا وأحزابا وهيئات ومثقفين، الخ) في كل مكان (وفي لبنان خصوصا) بالقيام بدورهم ومسؤولياتهم تجاه مناصرة وإسناد المقاومة بكل الطرق الممكنة - نتمنى، وندعو بصوت عال لأن يتم تجاوز الخلاف الراهن بين حزب الله والتيار الوطني الحر، فمصلحة لبنان ومصلحة التيار الوطني الحر أيضا تفترض أن لا تترك المقاومة وحيدة (مهما كانت قوتها). نحن نقدر عاليا طريقة التفكير السياسي لدى قيادة المقاومة التي تعمل على الحفاظ على التحالفات والتقاطعات الموجودة ما أمكنها ذلك، حفاظا على مصلحة لبنان. ندرك أن المقاومة تحتاج لأصدقاء أكثر دائما، من أجل تخفيف الاحتقان والنزاعات التي يعمل العدو على صناعتها وتأجيجها، خصوصا في سياق خاص كالسياق اللبناني. أننا ندرك، طبعا، أن بعض القوى المحلية متموضعة مبدئيا ومصلحيا ومنذ زمن طويل ضمن المشروع المعادي للمقاومة، وتمثل امتدادا محليا للمشروع الإمبريالي-الصهيوني وحلفاءهم العرب، لكننا نتوجه بالدعوة للقوى التي لا تزال متموضعة في داخل الخيمة الكبيرة للمشروع الوطني لتجاوز الاختلافات التي تبدو فعلا صغيرة من أجل المصلحة الكبرى، وملف الترسيم والدور الذي لعبته المقاومة في إسناد الدولة والوصول إلى النتيجة يجب أن تكون عبرة للجميع حول ما يمكن أن يكون.

إن حال وطننا العربي الكبير (وحال المقاومة في فلسطين) كان سيبدو أسوء بما لا يقاس لو لم تكن هناك مقاومة قوية وقادرة في لبنان. فاستهداف المقاومة الجاري بشراسة الآن هو في جوهره وشكله استهداف لكل عربي، لأنه حتما سيؤثر في التنظيم الإستراتيجي للإقليم وسيشكله تباعا وفق متطلبات مصالح العدو، وسيجعل من تنفيذ المشاريع الإمبريالية- الصهيونية أسهل بما لا يقاس، وأيضا سيؤثر مباشرة وبقوة في مستقبل

القضية المركزية للعرب في فلسطين ومقاومة الشعب الفلسطيني للاستعمار الصهيوني.

## - المغرب العربي الكبير

بعض التطورات الأخيرة اللافتة تشير الى محاولات تقوم بها السلطة في الجزائر من أجل التأسيس لتوجه تنموي مستقل (وإن في حدود بنية النظام القائم بالطبع). أحد المؤشرات الأخيرة كانت إعلان وزير العدل الجزائري عن «استعادة ٢٠ مليار دولار من أموال منهوبة، والرقم مرشح للارتفاع، واسترجاع ٢١٣ عقار صناعي ومصانع صناعة الزيوت وعقارات وفنادق وفيلل (سكنية) و٢٣ ألف ملكية، منها طائرات خاصة وسيارات فاخرة». المسألة الصناعية مهمة، خصوصا حين تكون برعاية الدولة كجزء من القطاع العام، والرئيس الجزائري كان قد تحدث علانية قبل عام بأن هناك صناعات محلية جرى تعليقها بقرارات بيروقراطية. وهذا بالطبع نتيجة هيمنة طبقة الكمبرادور خلال سنوات بو تفليقة. كما أعلنت الجزائر أنها بدأت حوارا مع تحالف بريكس من أجل الدخول فيها، وأعلنت أنها تعاقدت مع روسيا على شراء أس ٥٠٠. بالمقابل، فإن شركة رتاج القطرية تعاقدت على إقامة مجمع سياحي كبير في الجزائر، وهذا يثير كثيرا من الشك. من الواضح أن الجزائر تحاول تصدر المشهد الرسمي العربي، ولكن دون الجذرية الضرورية التي نركز عليها في اشتباك عربي.

أما في تونس، فيبدو أن الرئيس إسعيد أخذ يواجه تحديات أصعب من فترة ما قبل الانتخابات الأخيرة التي كان الاقبال عليها ضعيفاً، وهذا شجع اتحاد الشغل على المجاهرة بالمعارضة مما يشي بأنه صار أقرب إلى التحالف السابق، إضافة إلى أن الرئيس لا يستند الى حزب يدعمه، وتحالفاته مع من أيدوا خطوته ضد النهضة هو تحالف هش؛ وكان يجب البناء عليه والعمل على قيادة تونس بأفق مختلف جذريا عن الذي تقوم به الحكومة الراهنة، من حصر الحلول بالانفتاح على البنك الدولي وسياساته. لذا لن يكون غريبا أن يؤسس الواقع الراهن لعودة قوى الثورة المضادة وهجومها على السلطة من جديد.

أما في المغرب الأقصى فرغم ارتفاع مداخيل الفوسفاط التي سجلت أرقاما قياسية غير مسبوقة، تخطت ١٠٨ مليارات درهم خلال الأحد عشر شهرا الأولى من عام ٢٠٢٢، وتجاوزت تحويلات أفراد الجالية المغربية من مختلف بلدان المهجر لمائة مليار درهم، وهو تدفق يتعدى سقف السنوات الماضية، مما يوفر لخزينة الدولة احتياطا نقديا من العملة الصعبة. غير أن ميزانية الملكية (=الملك، مخصصات السيادة، حاشية وأعوان البلاط الملكي) في المغرب تلتهم جزءا هاما من الميزانية العامة للبلد، وهي ميزانية تم تمريرها في «البرلمان» دون أن تخضع لأدنى مناقشة! فالعائلة المالكة يتزايد ثراؤها وبذخها على حساب إفقار وتجويع غالبية الشعب الذي يعاني البؤس، لدرجة أنها تُصنف الأكثر كلفة بالنسبة لميزانية الدولة من بين أكثر الملكيات ثراء في العالم. وإذا أضفنا الميزانية المخصصة للجيش في قانون المالية لـ٢٠٢٣ التي تصل ١١٩ مليارا و٧٦٦ مليون درهم، والتي هي عاما بعد عام في ارتفاع، دون استحضار الكلفة المالية الضخمة لأجهزة القمع على تعددها وتضخمها؛ وتضخيم ميزانية الجيش أمر لافت لعلاقته بالتطبيع مع الكيان الصهيوني ولا سيما التطبيع العسكري الموجه ضد الجارة الجزائر. وهكذا، ندرك أن البلد عبارة عن أكبر سجن يرزح تحت نيره الملايين من أبناء شعبنا في المغرب.

يُداري النظام المغربي استفحال الأزمة بحملات من التضليل، كالتذرع بالجفاف حينا، وأزمة كورونا، ومتطلبات الحفاظ على

التعبئة الشاملة لكسب رهان الصحراء التي يسميها القضية الوطنية- وهي نفس الذريعة لتظهير التطبيع مع الكيان الصهيوني. إن ارتفاع نسبة التضخم إلى مستوى قياسي لم يشهده المغرب باعتراف مؤسسات الحكم نفسه، منذ سنة ١٩٩٥، سنة إعلان الحسن الثاني بأن المغرب قريب من السكتة القلبية، وتسارع الهجرة السرية إلى أوروبا وما تخلفه من مآسي...؛ يؤشر على مدى تأزم الواقع الاجتماعي بالمغرب، الذي تداريه الطبقة الحاكمة ونظامها السياسي بأفراح زائفة (كانتصارات المنتخب المغربي لكرة القدم)، ومحاولة صرف الأنظار والانتباه عنها باختلاق صراعات فردية هامشية لتشويه مركزية الصراع الطبقي، وفبركة قضايا جانبية وتضخيمها لخلق شرخ عمودي في قاعدة الهرم الاجتماعي بالمغرب وسط الطبقات الكادحة.

إن الدور الوظيفي للنظام الموكول له من أسياده الامبرياليين، جعله تحت حمايتهم وتغطية جرائمه، ويكفي هنا استحضار المجزرة التي ارتكبها بإبادته لعشرات الأفارقة بما فيهم سودانيين أزهق أرواحهم يوم ٢٤ يونيو ٢٠٢٢، على بوابة مدينة مليلية المستعمرة، إثر قيام هؤلاء العزل بحقهم في التنقل والعبور إلى المدينة المغربية المحتلة. ولم يتعرض كلب حراسة الأوربيين المسعور لأي إدانة!

## - السودان

تختلف أزمة شرق السودان حاليا بدرجة كبيرة عنها لدى انبلاج مؤتمر الشرق أواخر الخمسينيات من القرن العشرين في عدد من الملامح، فأولا على مستوى التعاطي المؤسس فقد ضم المؤتمر الأول جميع سكان الشرق وقد تعاطى مع الأقلية من منطلق جغرافي، ولذلك فقد كانت سمته السياسة بمعنى السعي لحل أزمة جميع سكانه ضمن معالجة أزمات أقاليم السودان جميعا، ومناطقه كافة كجزء من عملية البناء الجديد لدول حديثة الاستقلال عن الاستعمار التقليدي المباشر. ولذلك فلم تكن عناصر الأزمة ولا المعالجة تنطوي على تهديدات اقتصادية وعسكرية وإنسانية من أي نوع، أما اليوم وقد تراكمت إخفاقات مشروع التحرر الوطني العربي بل وطرأت أمامه تحديات تجزئة جديدة، يضغط الاستعمار الجديد لتفجيرها بأكثر الصور قسوة من خلال الحصار والتدجين والاستيعاب وما تستتبعه تلك السياسات الإمبريالية من تفجير النزاعات على مصادر الثروة القائمة والمحتملة، ومن انسحاب الحكومات من سياسات تأمين الضرورات اليومية للمواطنين. ما يدفع البشر إلى التحاف انتماءاتهم فوق أو تحت القومية واستبدال الهويات بالمنحى ووفق ترتيبات يقودها في الغالب نشطاء وأحزاب وقوى تعمل تحت أجندات مشروطة بشروط مموليها.

تعاود مسألة الشرق الظهور تحت وطأة انسحاب الدولة الكامل منذ عام ٢٠٢٠ من جميع مسؤولياتها الخاصة بتأمين ضرورات الحياة اليومية، وما تبعه من اختفاء الوقود وانفلات الأسعار، بما فيها أسعار أدوية الأمراض الوبائية والحالات الحرجة. ومن ثم انكشاف الأقاليم عن غبن لا يمكن إنكاره، وإشراف الملايين على الوقوع في تخوم الجوع وسوء التغذية وتسرب الأطفال من التعليم... على أن الأزمة هذه المرة تعاود الاندلاع تحت لافتات قبلية وعنصرية وارتقاء السلاح سدة مقاعد التفاوض، فضلا عن الحصر العرقي الخطير الذي يعتبر الشرق موطنا لقبيلة واحدة (البجه) ذات سبعة بطون، مع التنكر والتحرش بإحدى البطون التي من المؤكد وقوعها تحت تهديد التصفية العرقية بحكم الدعاوي التي يتبناها مجلس النظارات والذي يصر على عدم سودانية البتي عامر، ووجوب طردهم إلى داخل حدود إرتريا، رغم انطواء المجلس على العبابدة المنتشرين أيضا بين مصر والسودان. وتبدو لحظات الاشتعال متواقتة مع محاولة قطر استعادة نفوذها داخل السودان ربما عبر شطب مسار الشرق الذي تبنته اتفاقية جوبا (تحت رعاية وترتيب دولة الإمارات)، التي تجاهلت عددا كبيرا من مكونات المجتمع، واقتصرت في التمثيل على نشطاء وحضور عرفوا بالظهور على منابر مقبولة أو موصى بها للإمارات، لكن الأبعاد الإمبريالية للأزمة لا تقتصر على دور الحصار والتدجين في فرض السياسات المنتجة لحالات الهويات

البديلة، بل يتعداها إلي المزاحمة على مناطق التعدين الغنية وربما محاولات طرد الروس من المنطقة والاستيلاء علي ثرواتها أو تجميدها كما اعتادوا أن يفعلوا في أفريقيا.

ولا يمكن غض البصر عن الحملات التي طالت شركة التعدين الروسية أو ملامح الوعد باتفاقية امتيازات بحرية للروس في البحر الأحمر، هذه الحملات التي قادها ناشطون متمولون أغلبيتهم من سقط اليسار من تلبرلو بفعل رواتب المنظمات الأوروبية. يعد الحاضر بالمستقبل والإشارات اليوم هي يوميات الغد، فهل يدخل الشرق الساعي للانفصال نزاعا مع ولايات الشمال ونهر النيل حول مناطق التعدين بحجج الامتداد القبلي وتداخل المراعي ومسار القوافل لاحقا؟ بتدبير المركز الامبريالي الساعي إلي احتكار حاضر البشرية ومستقبلها؟ وكيف يمكن للوطن العربي من ناحية ثانية ولمشروع التحرر، النقيض للتبعية والتخلف، تدارك تلك الأزمات أو على الأقل وقف استثمارها من قبل الاستعمار الجديد وقيادته الامبريالية. وهل من الممكن موضوعيا أو عروبيا أو أخلاقيا أو إنسانيا ترك السودان لتناقضاته وجروحه وحيدا في الغرفة، ممددا تحت مبضع تاجر الأعضاء الغربي وصبيته ا لخليجيين .

## - اليمن

بعد سبع سنوات من دعم العدوان العسكري الهمجي السعودي على اليمن، وقيادته من الخلف، يبدو أن النتائج الميدانية الكارثية والفضائح الأخلاقية المترتبة على المجازر المستمرة ضد المدنيين العزل، دفعت الولايات المتحدة في نيسان/ أيار ٢٠٢٢ لتغيير نهجها في الحرب، والعمل على استخدام الهدنة التي توسطت فيها الأمم المتحدة بدفع أميركي كشكل جديد للحرب على اليمن. فبرغم أن الهدنة التي انتهكت آلاف المرات من قبل السعودية وحلفاءها أدت إلى انخفاض كبير في ضحايا العدوان في اليمن، إلا أن الهدنة، كما هي عليه الآن، لا تؤسس لإنهاء العدوان وانسحاب القوات المعتدية.

يتضح من خلفية الهدنة والدوافع السعودية والأميركية أن الاضطرار للهدنة لم يكن سببه فقط العجز عن تحقيق أي إنجازات، بل الهزائم المتواصلة للمحور الأميركي، برغم الثمن الكبير والتضحيات الكبيرة التي قدمها اليمن وأنصار الله للوصول الى هذه النقطة. فبعد سبع سنوات من العدوان، اصطدمت الولايات المتحدة (القائد الفعلي للعدوان) والسعودية بالحقائق الصلبة على الأرض التي صنعتها دماء أبطال اليمن. ففي ذلك الوقت، كان أنصار الله والجيش اليمني يسيطرون الآن على المناطق التي يتواجد فيها ٨٠٪ من السكان، فيما قدراتهم الصاروخية القادرة على الضرب في العمق السعودي والإماراتي تتطور بشكل لافت. وقبيل الهدنة مباشرة، أثارت معركة مأرب التي كان أنصار الله على وشك تحريرها في شباط- آذار ٢٠٢٢، الذعر لدى السعوديين والأميركيين على حد سواء، كونها خسارتها استراتيجية، كأحد المراكز السكانية الأساسية وكمصدر للبترول وتشابكها بخطوط وشبكات النفط، عدى عن أنها ستعيد ترتيب جغرافيا المعركة كون تحرير مأرب سيجعل من كل حدود الشمال تقريبا تحت السيطرة اليمنية مما سيعيد ترتيب خطوط الجبهات العسكرية. الرد السعودي الجوي والهمجي (من الواضح أن الولايات المتحدة هي التي كانت تقود المعركة) أدى لتأخير حسمها، لكنه أدى أيضا حسب التقارير الأميركية إلى تراجع خطير في مخزون السعودية من السلاح ودفعها للقبول بالهدنة.

اللافت أن التصريحات الأميركية تتضمن اعترافات بخسارة المعركة وانتصار أنصار الله حتى الآن (شهادات أمام لجان الكونغرس، تصريحات المبعوث الأميركي تيموثي لندركنغ، الخ)، وهو ما يفسر القبول بالهدنة. لكن التوجه الأميركي- السعودي الراهن يهدف إلى إبقاء الوضع على الأرض وعلى حالة الحصار على حالهما، وتحويل الاستنزاف عبر الهدنة إلى الشكل الجديد للحرب. لهذا، ولأن أنصار الله أعلنت رفضها لاستمرار الهدنة بلا انسحاب سعودي ورفع للحصار، وبلا أفق سياسي يمني حقيقي غير خاضع لتأثيرات دول العدوان، فسنكون أمام احتمال امتحان العودة لاستئناف العمل العسكري، خصوصا أن الأميركيين يقاتلون بدماء الجنود العرب من دول العدوان، وليس بجنودهم.

## - الأردن

السمات العامة للمشهد الأردني تتشابه مع باقي مناطق الوطن العربي من حيث تسبب السياسات النيوليبرالية بإفقار منهجي للمواطنين، ارتفاع نسبة البطالة، ارتفاع الأسعار، الضرائب المرتفعة جدا نسبة لمستوى الدخل، ونهب الثروات عبر برامج الخصخصة. هكذا تم إنتاج الأزمة البنيوية الراهنة التي لا تمتلك منظومة الحكم أي حل لها سوى تطبيق المزيد من وصفات البنك الدولي الكارثية. لكن في خصوصية المشهد الأردني، يمكن التقدير بثقة أن الاحتجاجات الشعبية حتى اللحظة لم تتجاوز كسابقاتها منذ ١٩٨٩ الطابع المطلبي ولا ولم تشكل أي تهديد للمنظومة السياسية القائمة. وبرغم ذلك، فإن السلطات التي تتغول على الممتلكات العامة عبر برامج الخصخصة وبيع (في الحقيقة نهب) الموارد العامة (وصلت حد تأجير المرافق الأثرية كالبتراء وبعض القلاع التاريخية) تتهم المحتجين، من أجل ترهيبهم، بالاعتداء على الممتلكات العامة واتهامهم بالتخريب وأعمال الشغب (رغم أن حوادث العنف القليلة التي تم توظيفها

لتشويه الاحتجاج جاءت من أطراف عملت برعاية أميركية وغربية وعربية في الحرب على سوريا ولم تكن غرفة الموك في الأردن ببعيدة). حتى الآن، لا يبدو أن لدى النظام أي قلق من تبعات الاحتجاجات على استقراره، ولا يبدو في الأفق أن هذا سيتغير قريبا، ولهذا يؤسس النظام برده وتشويهه للاحتجاجات المحقة للمزيد من السياسات التي أوصلت الأردن الى أزمته الحالية.

فالنظام، والطبقة الحاكمة المتحالفة مع الغرب تشكل أحد امتداداتها في المنطقة العربية، ليس فقط لا يمتلك حلولا جدية للأزمة (والحكومة قالت ذلك بوضوح، أنهم سيستمعون للمحتجين لكن ليس باستطاعتهم تغيير السياسات)، بل أن السياسات التي يتم تبنيها منذ منتصف الثمانينات هي جزء من تأسيس بنية تحتية نيوليبرالية إقليمية يكون الكيان الصهيوني في قلبها. لافتا جدا أن سائقي الشاحنات كانوا شرارة الاحتجاجات في الأردن، ولافت جدا أن أوضاعهم الصعبة جدا، كما هي حال أغلب أهلنا في الأردن، هي نتاج لسياسات اقتصادية حكومية محلية تتبع وصفات وشروط البنك الدولي، ومشاريع وسياسات إقليمية، كشروط السعودية ودول الخليج تقليص عمر الشاحنات لخمس سنوات، وهي فترة غير كافية لتسديد أقساطها، أو مشاريع السكك الحديدية لربط الكيان الصهيوني بدول المنطقة. هذا عدى عن أن بعض ما يحصل في الأردن على صلة وثيقة بالخراب الذي حل بالعراق أولا وسوريا ثانيا على يد الولايات المتحدة وأوروبا

وحلفاءهم العرب. هذا يعني أن حل الأزمة في الأردن، كما في أي بلد عربي ليست محلية بحتة، بل يجب أن تتكامل مع رؤية عربية للسياسة الخارجية، خصوصا فيما يخص ما يحصل في سورية وفلسطين. وما يحصل من تجويع في سورية نتيجة القانون الأميركي الجديد سيكون له صدى في الأردن إن بقي الصمت العربي على ما يجري في سورية على حاله. لأهلنا في الأردن تحديداً مصلحة مباشرة وحقيقية من التصدي لحرب التجويع التي تسن على سوريا، ونخشى بسبب التجربة، أن تبعات السكوت على ما يحدث في سوريا ستكون ملموسة في الأردن أكثر من أي مكان آخر.

## - خاتمة:

التاريخ الاقتصادي لوطننا العربي في العقود الأخيرة لوحده كفيل بأن ينسف كل افتراضات الاقتصاد النيوليبرالي التي يفرضها الغرب والبنك الدولي علينا رأساً على عقب، وهذا التاريخ شاهد حي على أن تاريخ اجتثاث مقدرات التنمية في بلادنا وما لحق بأمتنا من كوارث هو ذاته تاريخ النيوليبرالية في بلادنا. فالانفتاح لم يعمل على زيادة الإنتاجية كما يَفْترض ويَعِدُ أنبياء النيوليبرالية ورسل رأس المال. العكس بالضبط هو ما حصل في الوطن العربي، كما تؤكد دراسة «انخفاض الإنتاجية في الوطن العربي». مثلاً، «على مدى العقود الأربعة الماضية نما الطلب على اليد العاملة بمعدل أقل بكثير من نمو القوة العاملة، في حين أنه في الستينيات والسبعينيات (سنوات تدخل الدولة وإدارتها للاقتصاد) كان نمو الطلب على اليد العاملة متساو تقريباً مع معدل عرض العمل. علاوة على ذلك، منذ بداية الثمانينات (بداية اختراق النيوليبرالية لبلادنا)، لم يكن هناك أي تحولات كبرى في التكوين القطاعي أو تكوين الشركات في الوطن العربي، والذي كان من شأنه (لو حصل) أن يسمح بمرونة أكبر للطلب على العمل أو لحصول استبدال أكبر بين العمل/رأس المال». لهذا، لم تكن شركات أكبر مع تكنولوجيا أفضل هي التي تقود النمو من خلال استبدال العمل بآلات أكثر كفاءة (كما تروج الدعاية)، بل «كانت ظروف السوق الحرة التي تقبل بها فقط المجتمعات المهزومة هي التي قادت لتسريح العمل».

في المقلب الآخر، وعلى العكس من ذلك تماماً، أثبت القطاع العام «غير الكفؤ» وفق الأدبيات النيوليبرالية، جدارته. كان فعالاً اجتماعياً لأنه استمر بالعمل بكفاءة «كوسادة» للرعاية الاجتماعية لمجمل السكان». بعد أربعة عقود من السياسات النيوليبرالية كانت النتائج كارثية: «٥٠٪ من سكان الوطن العربي يعيشون بأقل من دولارين في اليوم (حد الفقر) وينفقون أكثر من نصف دخلهم على المواد الغذائية الأساسية»، كما يشير التقرير الاقتصادي العربي الموحد لعام ٢٠٠٥. لكن عتبة الدولارين للدخل، والدولار للإنفاق على المواد الغذائية الأساسية، يجب أن تقرأ أيضاً في سياق ظروف الوطن العربي الخاصة، كون بلادنا هي أكثر بلاد الأرض تبعية (واستيراداً) حين يتعلق الأمر بالمواد الغذائية. فعتبة الدولارين والدولار في البلاد التابعة والمستوردة للمواد الغذائية ستضيف كثيراً لمعرفتنا وفهمنا لكيفية قراءة معدلات الفقر. ففي الهند، مثلاً، حيث المواد الغذائية تنتج محلياً، يمكن للدولار أن يشتري أكثر بكثير من لبنان أو مصر أو الأردن أو حيث يتم استيراد غالبية السلة الغذائية. ولهذا «فإنه حين يتم تحرير الأسعار من حركة الأسعار الدولية ويتم تحديدها وفقا لمعطيات الإنتاج في السوق الوطنية، فإن العائد يكون ذا قيمة أكبر نسبة للسعر». وبالتالي، فإنه حين يتم إنفاق نصف كل دولار على الأغذية المستوردة التي يتم تحديد أسعارها دولياً (كما في العراق ولبنان وليبيا مثلا) فإن مقياس «تعادل القوة الشرائية» (purchasing power parity) يصبح بلا معنى حين تشتري العملة الوطنية في الداخل ما يشتريه الدولار في الخارج».

في تقارير سابقة للإسكوا (تحديدا تقارير أعوام ٢٠٠٣، ٢٠٠٥ و٢٠٠٨)، أكد الخبراء أن الحالة الناتجة من الظروف الاقتصادية في المنطقة العربية غير قابلة للاستدامة (وغير محتملة) وقد تقود بمضاعفاتها لانفجار في الإقليم.

لكن تأسيس الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي مقدما لبنية تحتية هائلة من المنظمات غير الحكومية استطاعت ليس فقط أن تفرض نفسها ناطقة باسم الحراكات الشعبية الحقيقية، وتحرفها عن مساراتها الأصلية (استبدال المطالب الاقتصادية والاجتماعية بمطلب الديمقراطية الليبرالية والانتقال الديمقراطي الذي نظر له بعض الأدوات الغربية)، بل وأيضا هندسة ثورات ملونة (تحديدا في الأقطار العربية ذات القطاع العام الكبير وتحديدا المناهضة للهيمنة الأميركية والغربية في المنطقة والمقاومة للكيان الصهيوني) والدفع نحو خصخصة القطاعات العامة، تمهيدا لتفكيك هذه الدول ودفعها للتخلي عن دورها التاريخي. هذه الوصفة التي تشكل شروط وتعليمات البنك الدولي جزء منها هي وصفة خراب تهدف لإنتاج منطقة فاشلة باستمرار. هكذا فقط يمكن للولايات المتحدة ومنظومة الهيمنة الغربية ضمان بقاء الترتيب الإقليمي المنحاز لصالحها ولصالح استمرار الاستعمار الصهيوني في فلسطين.

**إصدار جديد - قريباً: كتاب «في نحت المصطلح وتحديد المعنى»**
**الطبعة الأولى**


**مركز المشرق العامل للدراسات الثقافية والتنموية/رام الله/ فلسطين المحتلة**
**هاتف خليوي: ٠٥٩٩١١٣٣٨٦**
**هاتف أرضي: ٢٤٨٦٦٧٦**
**بريد إلكتروني: gmail.@adelsamara٨ com**



**لفتة شكر:**
**تصميم الغلاف والصف الضوئي والإخراج بيد الفنانة سلوى عمر/ الخليل/فلسطين المحتلة Walas_sh@yahoo.com**
**التدقيق اللغوي والإخراج الداخلي للكتاب: سوسن مروّه/ رام الله**

## سلام موسى جعفر يكتب:

# الاستبداد «الشرقي»

ما أن تُذكر مفردة استبداد، حتى تتوجه أذهان قائليها إلى الشرق، سواء في وسائل الإعلام الغربية أو في تصريحات وكتابات نخبه السياسية والثقافية. ولم يعد ربط الاستبداد بالشرق يقتصر على ترسيخه كصورة نمطية في الوعي العام، بل أضحى وكأنه متلازمة مرضية أصابت العقل الجمعي لأغلبية سكان الغرب وشملت عدواها العديد من الشرقيين أنفسهم.

* * *

الشرق من وجهة نظر استشراقية هو خليط غير متجانس من مجتمعات ذكورية استبدادية ومُتخلفة من بقايا العالم القديم. يُمارَس الاستشراق في العادة عن طريق إسقاط الفكرة المسبقة الموروثة والمكتسبة على قيم وثقافات شعوب وأمم الشرق. وبمناسبة الزعم باحتكار المجتمعات الشرقية للذكورية يحضرني تصريح لتشرشل، ربما لم يسمع به قطيع الليبراليين «إن الدعوة إلى حق المرأة في التصويت، ليست سوى حافة صغيرة من الاسفين، فإذا سمحنا للمرأة بالتصويت فسيعني ذلك فقدان البنية الاجتماعية. النساء مُمثَلات بشكل جيد من قبل آبائهن وإخوانهن وأزواجهن».

تمتد جذور النظرة الاستشراقية في الثقافة الغربية إلى فترة تاريخية سبقت ظهور الرأسمالية، بفعل آثار الصراعات الدينية التي كانت قائمة لفترة قرون طويلة، لكنها تعززت في الرأسمالية، وترسخت في عقلية النخب الثقافية بعد ظهور الاستعمار. وصار الاستشراق يحمل مضمون عنصري ظاهر في بعض الأحيان ومستتر في أحيان أخرى. وأغلب ظني أن تعزيز النظرة الاستشراقية في الثقافة الغربية في فترة الاستعمار الأوربي كان يُلبي حاجة المُستعمرين لأغطية أخلاقية تُبرر لهم استغلال شعوب الشرق. بمعنى أن للاستشراق دور وظيفي مهمته الأساسية هي تعزيز الهيمنة الغربية على شعوب الشرق بقصد الاستحواذ على خيراتها.

الشرق مفهوم سياسي وثقافي وجغرافي يُطْلَق على أمم وشعوب ومجتمعات من مُختلف الثقافات، تُشكل أغلبية سكان العالم وتسكن في مناطق جغرافية متوزعة على مساحات شاسعة من الكرة الأرضية، المُشترك فيما بينها أنها تستوطن أراضي غنية بالمواد الخام وتقع جغرافياً في الأصل الى الشرق والجنوب من المراكز الرأسمالية الرئيسية (الغرب). لكن هذا المفهوم صار يشمل شعوب تعيش في أوروبا الشرقية والجنوبية وكذلك في غرب الكرة الأرضية.

من المسلمات التاريخية أن ظهور المستوطنات الزراعية وانتشارها وضع النواة الأولى لنشوء الحضارة البشرية. وليس خافياً أن أولى المستوطنات الزراعية ظهرت قرب الأنهار أو حول العيون في مناطق جغرافية تميز مناخها بقلة الأمطار ودرجات حرارة مرتفعة في الصيف. كما ظهرت في نفس الفترة مستوطنات زراعية في المناطق المعتدلة المناخ حول البحر الأبيض المتوسط بما فيها جنوب أوروبا الذي أمتاز بمناخ معتدل ومطير.

يواجه قارئ التاريخ، حتى بدون الحاجة إلى التعمق في القراءة، ظاهرة، قد تبدو غريبة للوهلة الأولى، تتعلق بنشوء المدنية (الحضارة). الغرابة التي أعنيها تكمن في نشوء أولى المدن والدول والإمبراطوريات من تجمع المستوطنات الزراعية في المناطق ذات المناخ غير المطير. وهي المستوطنات التي أقامها الانسان قرب الأنهار وعيون المياه في مناطق حارة وشبه حارة ذات طبيعة جغرافية قاسية تُحيط بها صحاري تُشكل

مصدر خطر الغزوات الدائمة! تزداد الغرابة مع معرفتنا بحقيقة أن المدنية لم تنشأ في المستوطنات الزراعية في جنوب أوروبا التي تمتعت بمناخ معتدل مطير وتربة خصبة، بل انتقلت إليها في فترة لاحقة من شرق البحر الأبيض المتوسط.

من وجهة نظري لابد أن يُشّكل الكشف عن ظاهرة أسبقية نشوء المجتمعات المدنية في مناطق أصعب جغرافياً ومناخياً، مصدر فضول وحافز للبحث عن أسبابها وعن عوامل تأخر نشوئها في مناطق أسهل جغرافياً ومناخياً.

وإذا ما تتبعنا التطور الاجتماعي لأولى الحضارات الناشئة سنلاحظ أن لها أيضاً قصب السبق في المضمار الثقافي والعمراني والاكتشافات العلمية وتطور التفكير الإنساني واختراع العجلة والكتابة التي ساعدت على سن القوانين وتنظيم إدارة الدولة وشؤون المجتمع من تشريعات وتجارة وعقود وتدوين أولى الانتاجات الأدبية.

لا شك أن حضارات راقية نشأت في فترة لاحقة في مناطق معتدلة المناخ ومطيرة، مجاورة وبعيدة. أسهمت في وضع أسس التطور البشري الحالي. إلا أنيّ أحاول إشباع فضولي من خلال الإجابة على التساؤل عن «أسباب نشوء أولى الحضارات البشرية في مناطق جغرافية قاسية وغير مطيرة».

أغلب ظني أن تحول المستوطنات الزراعية إلى مُدن مسورة ومحمية، قادرة على حماية ريفها الواسع، والقيام بمشاريع عُدَتْ عملاقة في وقتها بالمقارنة مع مستوى التطور التقني في ذلك الوقت، لم يحدث كل هذا نتيجة لتطور طبيعي في ظروف تتميز بقلة الأمطار وخطر الغزو. بل أميل إلى افتراض أن السكان ممثلين بنُخبهم شعروا بالحاجة إلى تنظيم الصفوف ورصها خلف مركز قيادي. المهمة الأساسية لهذا المركز تتمثل بإنجاز مشروع التطور وكذلك حمايته.

ومهمة بهذا الحجم لا تتحمل الأخذ برأي الجميع، بل تعتمد القاسم المُشترك الذي تتفق عليه النُخب.

في مناخ شحيح المطر في مستوطنات زراعية مُقامة عند الأنهار أو قرب عيون المياه، لم يكن مُمكناً زراعة الأرض اعتماداً على أمطار لا تأتي. وكان لا بد من إيجاد حلول تعالج المشاكل المتعلقة بعدم كفاية مياه السقي، كان من بينها اللجوء إلى التعاون مع آخرين، ربما من خارج حدود أفراد العائلة والأقارب، للقيام بحفر القنوات والتُرع وبالتالي ضمان إيصال المياه إلى الأراضي المزروعة. وربما تعاونوا أيضاً في أمور حماية الممتلكات من غزوات البدو. هذا الشكل من التعاون لم يضطر إليه المزارعون في جنوب أوروبا، حيث كانت الأمطار الوفيرة طوال العام تسقي مزروعاتهم.

مع توسع المستوطنات الزراعية إثر التعاون بين المزارع المتجاورة ومع تزايد أعداد السكان، ظهرت الحاجة إلى التوسع في زراعة الأراضي، بما فيها استغلال أراضي بعيدة نسبياً عن مصادر المياه. ومن المنطقي أن يتوسع التعاون بين المُزارعين ويرتقي إلى مستوى جديد يُمكنهم من تأمين إيصال

مياه الأنهار أو العيون إلى الأراضي الجديدة وتوفير الحماية لسكانها. الظروف الجديدة الناشئة تطلبت ابتكار حلول جديدة، لأن الحلول القديمة القائمة على العمل المشترك بين سكان المزارع المتجاورة لم تَعد تُلبي حاجة المجتمع، وصار لزاماً التفكير بوسائل أخرى تؤمن انجاز تنفيذ مشاريع ريّ كبيرة بمقياس ذلك الزمن. وأعتقد أن السكان توصلوا إلى شكل مُبتكر من التعاون قائم على تسليم مهام تنفيذ وادارة المشاريع الكبرى وكذلك الدفاع العسكري إلى قائد تتولى اختياره النُخب من بين فئة الملاكين الأثرياء أو زعماء العشائر ويتمتع بمواصفات معينة، كقوة الشخصية والإرادة الحديدية والحزم والشجاعة والذكاء.

ابتكار مؤسسة الحكم المركزي في المجتمعات القائمة على الزراعة المروية لم يكن محض صُدفة ولا بفعل رغبة فردية إرادوية لهذا الشخص أو ذاك، وإنما لبى حاجة المجتمع في مرحلة معينة من تطوره. ودليلي أن مؤسسة الحكم المركزي لم يقتصر ابتكارها على حضارة معينة ومنطقة بذاتها، وإنما انتشرت في العديد من الحضارات التاريخية (الصين والهند وحوض النيل ووادي الرافدين وعشرات غيرها). اللجوء إلى ابتكار الحكم المركزي، كمؤسسة سياسية تَرافق مع نشوء أولى الحضارات على الإطلاق، فهذا يعني أن هذه المؤسسة قامت بدور تاريخي تقدمي.

وإذا كان ابتكار المركزية قد لبى حاجة المجتمع في مرحلة معينة من تطوره، فإن نجاح المركزية استلزم تَمَتُّع القائد بسلطات عسكرية وسياسية واسعة استندت على تعاون النُخب وعلى طاعة أفراد المجتمع.

لم يكن من الممكن الاتكال على السيف وحده لضمان استمرار الطاعة والإبقاء على التعاون، فكان من الضروري دعم السيف بغطاء فكري يدفع الناس طوعاً إلى الرضوخ. ولم يكن أفضل من إضفاء القدسية على القائد (الملك) باعتباره الإله أو ابن الإله أو وكيله. ومن هنا ظهرت المؤسسة الدينية بكل هذا الوضوح.

الدين كما الفلسفة جزء من الوعي الاجتماعي. إرهاصات تشكل الفكر الديني والفلسفي ارتبطت بأفكار الإنسان الأولى عن الطبيعة وتفسيراته لظواهرها المختلفة بما فيها الكوارث من فيضانات وزلازل وعواصف، حيث كانت تُسبب خسائر بشرية ومادية كبيرة. جذور الفكر الديني والفلسفي نجدها في تلك الأسئلة التي كان يطرحها الإنسان على نفسه بخصوص الظواهر الطبيعية الدورية منها والمفاجئة. كذلك نجدها في الأسئلة التي تدور حول الموت والخوف منه، والعجز أمامه حين يخطف أحبته. وتشمل كذلك خيالاته عن الحياة بعد الموت والبحث عن الخلود وغيرها من الأسئلة التي تتعلق بكينونة الوجود.

وبهذا نجد جذور الفكر الديني والفلسفي، على حد سواء، في التفكير الخيالي البدائي الذي أخذ طابع القصص والأساطير والملاحم التي لجأ إليها الناس في كل مكان استوطنوه. وكذلك في محاولات الإنسان الإجابة على الأسئلة التي واجهها على مدى آلاف السنين.

الأساطير لم تقتصر على مجتمع دون آخر، ولا على رقعة جغرافية دون سواها، بل شملت جميع المجتمعات البشرية التي نشأت في كل جهات الأرض. الأسطورة كشكل قديم من أشكال الوعي الاجتماعي استخدمها الانسان كأداة لإعادة صياغة الواقع في وعيه، ليس بطريقة رسام المجتمعات القديمة، بل بأساليب تمنحه فُرصة الهرب الى الخيال متحدياً عجزه، كما تُوفر له إمكانية التمني ومُتعة تحقيق أمنياته في آن واحد.

من أرحام الأساطير والقصص والملاحم ولد المُقدس. ومن أرحام الإجابات على الأسئلة التي شغلت تفكير الانسان وُلدت الفلسفة.

إلا أن الاختلاف بين الطابع المُقدس للدين وطابع التفكير الحُر للفلسفة، لا يمنحنا حق تبسيط الموضوع وفرض عزل تعسفي بين الفكر المُقدس والفكر الحُر، ليس بسبب وجود أكثر من جذر مُشترك بينهما، وإنما لوجود عناصر تفكير متشابهة على الجهتين. فلا النصوص المقدسة تمكنت من إعاقة ظهور تفكير حر ولا حُرية التفكير أعاقت الوصول إلى استنتاجات مُقدسة.

موضوعي ليس المقارنة بين الدين والفلسفة، والإشارة إليهما وردت أصلاً في سياق البحث في أسباب ظاهرة أسبقيه نشوء المدنية في المناطق الصعبة جغرافياً ومناخياً. لهذا سوف أحاول من خلال الإجابة على السؤال أدناه العودة إلى أصل الموضوع:

لماذا أخذ التفكير الإنساني شكله المُقدس في الشرق وشكله الحُر في الغرب؟

الجواب ليس سهلاً، ولا يجوز لنا عند الإجابة القيام بإطلاق الأحكام القطعية بخفية. لكني أميل شخصياً إلى الأخذ بالتحليل الاستقرائي القائم على المنطق، الذي أوصلني إلى قناعة بأن ابتكار المُقدس في الشرق قد لبى حاجة النُخب إلى غطاء فكري يُعزز من سلطة مؤسسة الحكم المركزي في ظروف المرحلة التاريخية التي كان المجتمع يعيشها، وهي مرحلة تقدمية، بلا أدنى شك، لكونها شيدت أولى الحضارات الزراعية المدنية. وبهذا يكون المُقدس كما هي المركزية قد لعب دوره التقدمي وأنجز مهمته التاريخية.

موضوعي لا يبحث في الآثار الجانبية للمركزية وانحرافها نحو الاستبداد في مراحل لاحقة، ولا يتناول الاستغلال الرجعي للنصوص المقدسة وتحويلها إلى عصيّ تُوضع في عجلة التطور كي تمنع سيره التاريخي. موضوعي يتعلق فقط بتلك المرحلة التاريخية التي ابتكر فيها الشرق كلاً من مؤسسة الحكم المركزي والمؤسسة الدينية كأداتين كان لهما الدور الأساسي في تشييد أولى الحضارات البشرية.

وصلت المدنية إلى جنوب أوروبا بتأثير الحضارات القائمة وقتها في شرق البحر الأبيض المتوسط، عن طريق التجارة والغزو. فحصلوا مجاناً على الأبجدية، وتعرفوا على علوم الفلك والهندسة والتقويم السنوي والعجلة وأنواع جديدة من المزروعات والحيوانات المُخصصة للتربية. وحين نشأت المدنية في ديارهم، لم تشق طريقها بادئ الأمر بنفس تلك الأدوات التي تطلبها تطور المجتمعات الزراعية في الأراضي المروية.

التربة الخصبة والأمطار الوفيرة وتأثير الحضارات المجاورة، وطبيعة علاقات الإنتاج القائمة على العبودية جعلت الحياة في جنوب أوروبا أسهل قياساً بحياة بُناة الحضارة الأوائل. قلة المصاعب وفرت الوقت والإمكانية للطبقة الأرستقراطية المالكة أن تُضيف الكثير لمسيرة الحضارة البشرية.

فإلى جانب الملاحم والأساطير والأديان الوثنية القديمة ظهرت الفلسفة في جنوب أوروبا. وهي أعظم انجاز فكري قدمته حضارة جنوب أوروبا للبشرية، إلى جانب إنجازات أخرى مهمة في مختلف العلوم. الفلسفة كطريقة تفكير عكست حالة المجتمع وقتها، حيث هيمنت عليه النخب الثقافية والسياسية المحسوبة على الطبقة الأرستقراطية.

كما هي علاقة الدين بالسياسة، ارتبطت الفلسفة بعلاقات وشيجة مع السياسة، والاختلافات بين الفلاسفة أنفسهم في ذلك الوقت لم تقتصر على الأسئلة المتعلقة بالوجود، بل شملت تلك القضايا المتعلقة بالمجتمع وطريقة إدارته. وتَكْمُن العديد من تلك الاختلافات في تفسير مفهوم الديمقراطية التي ابتكرتها النُخب كأداة لإدارة المجتمع سياسياً. السؤال الأساسي في هذا الجانب كان يدور حول من هي الطبقات والفئات الاجتماعية التي يحق لها المشاركة في الحكم.

المتتبع سيكتشف أن الديمقراطية لدى مبتكريها مفهوم سياسي، لم يُعبر، في أي يوم من الأيام، عن تعريفه الشائع (حكم الشعب)، بل تجلى مضمونه الطبقي عند ابتكاره. فلم تكن حكم المواطنين الأحرار (فالشعب لا يشمل العبيد) ولا حكم الطبقة الوسطى، بل حكم طبقة مالكي العبيد فقط (الطبقة الأرستقراطية التي خرج منها فلاسفة ذلك العصر). عودة سريعة إلى أفلاطون في « المدينة الفاضلة » تُعطينا صورة واضحة وكأنها ثلاثية الأبعاد عن المضمون الطبقي للديمقراطية. ليس هذا فحسب بل سنكتشف أن الديمقراطية، لدى افلاطون وعلى لسان سقراط، أكدت على دور المركزية.

وإذا كانت الديمقراطية في المجتمعات العبودية لم تُلغ مركزية الحكم، فسوف نكتشف لاحقاً أنها، أي الديمقراطية، فعلت الشيء ذاته في المجتمعات الرأسمالية الحديثة ولم تلغها، وإنما جملتها فقط. فتداول السلطة بقي محصوراً داخل الطبقة السائدة. الديمقراطية كشكل خارجي لطريقة حكم لا تعكس حقيقة مضمونها القائم على دكتاتورية مُستترة. وهنا يحضرني مرة ثانية قول لتشرشل، فهو زعيم لإمبراطورية استعمارية يُضرب المثل بديمقراطيتها: «الديمقراطية طريقة مُروعة لإدارة بلد لكنها أفضل ما لدينا..... عندما أكون في المنصب أجعلُ أعضاء البرلمان يتحدثون دائماً، إذا توقفوا فقد يبدؤون في التفكير».

حلول المجتمعات الإقطاعية في أوروبا محل المجتمعات القائمة على العبودية أدى إلى التوسع في استخدام المركزية في الحكم وألغى الحاجة إلى تجميلها، أي

ألغى الحاجة إلى الديمقراطية. فالحكم أخذ يتداوله الأمراء والملوك وراثياً. ولا شك أن الصراعات الدموية بين العوائل المالكة وكذلك التمردات العديدة، خلقت الظروف للبحث عن غطاء فكري يُشرعن مضمون الحكم القائم، ولم يكن أفضل من استخدام فكرة المُقدس لإضفاء القدسية على الحكم الوراثي لملوك أوروبا.

وهكذا تم استيراد دين جاهز من شرق البحر الأبيض المتوسط، بعد تزويجه بالأساطير والملاحم والأديان الوثنية التي كانت تتناقلها الأجيال، دون أن تتمكن الفلسفة من القضاء عليها.

للمقارنة بين صناعة المقدس في الشرق واستيراده في الغرب، فإن صناعته قد لعبت وقتها دوراً تقدمياً، لأنه أسهم في نشوء الحضارات، بينما لعب استيراده في الغرب دوراً رجعياً مشهوداً، حيث ساهمت المؤسسة الدينية الأوروبية في تكريس تخلف المجتمع الأوروبي وأعاقت تطوره. نفس نتائج المقارنة تشمل طبيعة الحكم المركزي التقدمية، في الشرق في فترة نشوء الحضارات البشرية الأولى بالطبيعة الرجعية للحكم المركزي في العصر الاقطاعي في أوروبا.

لم تقض سيادة علاقات الإنتاج الرأسمالية على الإقطاعية كأسلوب انتاج فحسب، بل أزاحت هذه السيادة معظم البنية الفوقية للمجتمع الإقطاعي، وبذلك ضَعف دور المؤسسة الدينية وقتها. فانطلقت عجلة التطور الفكري والعلمي والاجتماعي تسير دون عوائق. وبهذا تكون الرأسمالية قد قامت بدورها التقدمي في تاريخ الحضارة الانسانية.

إن قانون التطور المتفاوت في الرأسمالية، أدى إلى تطور بلدان على حساب تخلف أخرى. وهذا بحد ذاته يكشف عن الوجه الرجعي لتقدمية الرأسمالية التي استنفدت تماماً طابعها التقدمي عند ولوجها مرحلة الإمبريالية. لأن المراكز الرأسمالية الكبرى في هذه المرحلة، وعلى الرغم من استمرار التقدم العلمي والفكري فيها، أخضعت جميع بلدان العالم إلى سيطرتها وجعلت منها أسواق لا غنى عنه للمواد الأولية التي تحتاجها هذه المراكز وكذلك أسواق لشراء بضاعتها. وبهذا تحولت هذه السيطرة إلى كابح أعاق وما زال يعيق تطور أغلبية بلدان المحيط (الشرق) التي يبلغ حجم نفوسها أضعاف نفوس سكان الغرب (في الوقت الحالي يبلغ عدد سكان الكرة الأرضية ثماني مليارات، حصة الغرب منها مليار واحد فقط «المليار الذهبي»). وكلما زاد مستوى التقدم العلمي، تكشف الرأسمالية عن طابعها الرجعي الاستغلالي، وتتحول داخلياً إلى ماكينة لتفريخ الحركات العنصرية، كالنازية والفاشية والصهيونية، وخارجياً تُكشر عن أنيابها الديمقراطية مع أول احساس بظهور خطر مُحتمل قد يُهدد هيمنتها. فالتقدمية كمفهوم تاريخي لا تتم على حساب إفقار الأغلبية العظمى من السكان وإعاقة تطورهم، وتتناقض كذلك مع ممارسات النهب والاستغلال وارتكاب المجازر بحق الشعوب الأخرى.

قدر الشرق أنه واجه التحدي الرئيسي للبشرية المتمثل بإنشاء الحضارات البشرية الأولى في بيئات جغرافية ومناخية صعبة.

وكأن الصعوبات هي التي منحت الإلهام للمبتكرين ووقفت وراء بحثهم عن الحلول. ولم يعلم المبتكرون أن صناعتهم قد انتشرت بعد آلاف السنوات إلى جميع جهات الأرض، وخدمت البشرية في كل مكان.

ما الذي يمنع الشرق في عالم اليوم أن ينتزع زمام المبادرة ويُصحح مسيرة الحضارة البشرية التي شوهتها الرأسمالية بسبب من جشعها اللا محدود؟ فمن غير المعقول ولا المنطقي أن يسمح سبع مليارات من البشر لمليار واحد بالعيش الرغيد على حساب خيراتهم وقوتهم ومُستقبل أبنائهم وأحفادهم، وهم في الواقع من يملك معظم الثروات، لا المليار الذهبي المتوحش. ناهيك عن وقاحته بفرض قيمه على الشعوب الأخرى وإصراره على لعب دور الدفاع والقاضي والمحامي والسجان في آن واحد. ثُم ألم يحن الوقت بعد لإزالة كوابح تطور الشعوب في بلدان المحيط؟ ألم يحن الوقت للقيام بتجريد المليار المتوحش من أدوات القتل، ومنعه من ارتكاب المزيد من المجازر المباشرة، أو تلك التي يدفع إليها عبر إثارة النزاعات والحروب؟

المتغيرات الجيوسياسية المتسارعة في عالم اليوم، حبلى بعالم جديد مُتعدد الأقطاب، عالم رأينا بعضاً من ملامحه تتشكل منذ بضعة سنوات. هذه المتغيرات تفرض على النُخب في البلدان العربية التفكير بابتكار أدوات سياسية تناسب المرحلة، مهمتها الرئيسية تصحيح موقع مقعد البلدان العربية في قاطرة التاريخ، ونقله إلى الموقع الذي يليق بأمة ساهمت إيجابياً في صنعه. لا سيما وأن هذه الأمة تملك الثروات والموقع الجغرافي ودور مشهود في أحداث التاريخ القريب. فلم يتخلف العرب عن إطلاق مشروعهم التحرري الخاص بهم على أثر المتغيرات الدولية التي فرضتها نتائج الحرب العالمية الثانية.

مشروع التحرر الوطني العربي المُشار إليه قد حرر وقتها طاقات الجماهير ومكنها من تحقيق منجزات عظيمة، لا سيما نهضة مصر في خمسينات وستينات القرن الماضي والتي قطعت شوطاً متقدماً في طريق بناء قاعدة اقتصادية طموحة شملت مشاريع الري والسدود وبناء مصانع الحديد والصلب وتأميم الممتلكات الأجنبية. كما قامت بإصلاحات اجتماعية متقدمة لصالح الطبقات الشعبية في مجالات التعليم والصحة والعلوم والفنون والفكر.

أما التراجع الذي شهدته هذه الحركة، فهو ليس كما يصوره المهزومون داخلياً ويحيلون أسبابه إلى قصور ذاتي وتخلف مُزمن، وبالتالي استحالة اللحاق بركب التطور.

لأن التراجع الذي يُعيرنا به المتحولون فكرياً لم يكن استثناء يخص حركة التحرر الوطني العربية، بل شمل جميع قوى التحرر الوطني في أغلب أنحاء العالم وكذلك قوى اليسار التي لم يعد خافياً على أحد تراجع دورها في الحياة السياسية، لا سيما بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. فبانهياره خسرت البشرية على الأقل قطب دولي كان يحد بدرجة أو بأخرى من استهتار الغرب واستفرادها بالشعوب. إلا أن ما يُميز تراجع مشروع حركة التحرر الوطني العربية عن

غيرها من حركات التحرر العالمية، أنه واجه منذ بداية انطلاقه تحدي المشروع الصهيوني المسنود بقوة من المليار الذهبي، لأنه ببساطة مشروعهم.

لا شك أن من بين أخطر العوائق التي تُأخر انطلاق مشروع تحرر وطني عربي جديد، أو إحياء المشروع الذي تراجع، تتمثل بانتشار لغة الخطاب الليبرالي في كتابات وتصريحات وممارسات أغلبية النخب المتأثرة إلى حد كبير بالإعلام الغربي، حتى تحول قسم منهم إلى ناقل لفايروس الديمقراطية الليبرالية التي تُمثل الأداة الرئيسية التي يستخدمها الغرب الاستعماري بهدف السيطرة على العقول وتشويه وعي الشعوب. وهذا البعض لن يتوانى عن تنفيذ جميع أجندات الغرب بما فيها خيانة وطنه مقابل ثمن يناسب احساسه الداخلي بالدونية. الثمن لا يتجاوز أكثر من السماح له بتنظيف دورات المياه في سفارات البلدان الغربية في بلاده أو في مدن الغرب.

إذا كنا ننوي الانطلاق بمشروع سياسي تنمويّ للتحرر من كوابح التطور، فمن غير المنطقي القبول بانتهاج طريق يُعبده لنا من وضع هذه الكوابح. ولن تتحقق التنمية بطلب المساعدة من الجهات التي نعرف أنها سوف تخسر رفاهيتها في حالة نجاح تنميتنا. ومن يعتقد بأن صندوق النقد الدولي سوف يقدم مساعدة نزيهة فهو أهبل.

الأوطان لن تُبنى دون بتر يد الغرب الممدودة «للمساعدة» ولا تُنفذ المشاريع الكبرى بشعارات جوفاء يُصَدِرُها لنا الغرب الاستعماري. ومثل هذا الفهم لا يتحقق بأصوات التافهين في برلمانات مهلهلة تُسهم في نشر الفوضى وتُشتت الأفكار. بل يتحقق فقط، وبدون لف ودوران أو تورية، بالعودة إلى المركزية كمؤسسة حكم ذات طابع ديمقراطي حقيقي وليس صوري. الطابع الديمقراطي للمركزية يتم فقط حين يُؤمن الحكم المركزي مصالح الأغلبية الشعبية ويُشكل القاسم المشترك الذي تجتمع حوله النخب صاحبة المشروع.

المركزية الديمقراطية، ليست استبداد فردي، بل ضرورة تفرضها طبيعة المرحلة. أما الديمقراطية الليبرالية فهي مُجرد هُراء، أداة تخريب، تُؤخر ولا تُقدم.

التاريخ علمنا أن جميع المشاريع السياسية والحضارية الكبرى لم تُنْجَز بمعزل عن وجود مؤسسات حكم مركزية استحوذت على دعم النخب والطاعة الواعية لأغلبية السكان. ولم يُحدثنا التاريخ، بما فيه المعاصر، سواء في الشرق أم في الغرب، عن مشروع سياسي وحضاري واحد كبير تم إنجازه، دون أن تتولى إدارته قيادة مركزية ذات صلاحيات واسعة، ودون أن يرتبط المشروع بأسماء زعماء تاريخيين.

سلام موسى جعفر

## د.موفق مُحادين يكتب :

# جذور الماركسية العربية ورواداها

**باستثناء المفكر العربي المصري الماركسي، سمير أمين، ومقارباته الخاصة حول الأمة، ثمة ماركسيون عرب آخرون اهتموا بالأمة وحركة التحرر على المستوى القومي، جرى تغييبهم من طرفين، طرف قومي متناهض للماركسية وطرف ماركسي مناهض للقومية.**

فبالإضافة للسوريين، ياسين الحافظ والياس مرقص، فقد جرى تغييب ماركسيين آخرين من بلاد الشام هما سليم خياطة ورئيف خوري، ومعهما جرى تغييب محطة هامة في تاريخ الماركسية العربية هي محطة مؤتمر زحلة الذي انعقد بإشرافهما عام ١٩٣٤، في مناخات هامة أيضا أحاطت بنشاط الكومنترن، المكتب التنفيذي للأممية الشيوعية (الثالثة)، وهو النشاط الذي يدحض كل الروايات حول الموقف الحقيقي للتراث الماركسي من مسألتي الأمة والصهيونية وهو الموقف الذي سنتناوله في دراسة لاحقة.

بالإضافة للتراث الماركسي - اللينيني المناهض لأي وجود يهودي في فلسطين وللحركة الصهيونية عموما، وردا على موقف الحزب الشيوعي الفلسطيني آنذاك (اليهودي في الواقع) من انتفاضة البراق الفلسطينية ضد الاستفزازات اليهودية المدعومة بريطانيا ١٩٢٩، وجه الكومنترن نقدا صريحا للحزب الشيوعي الفلسطيني ودعا إلى مساندة الانتفاضة وتعريب الحزب مؤكدا على أن الصهيونية ظاهرة امبريالية ولا

حق لليهود في شبر واحد من أرض فلسطين العربية.

وقد تزامنت هذه الدعوى مع اقتراح سوفييتي بإقامة كيان يهودي في بيروبيدجان جنوب شرق سيبيريا، كما دعا الكومنترن إلى بناء حركة شيوعية عربية موحدة.

إثر هذه المناخات، انعقد مؤتمر زحلة ١٩٣٤ بإشراف خياطة وخوري وسيطرت عليه مقاربات تدعو للوحدة العربية وبناء حركة شيوعية نضالية من أجلها.

## 1. سليم خياطة

يلحظ محمد كامل الخطيب مقدم الكتاب الصادر ضمن الأعمال الكاملة من كتب الفكر العربي الصادرة عن وزارة الثقافة السورية، كيف أدرك سليم خياطة المولود في طرابلس – لبنان (1909–1965) ومنذ الثلاثينيات من هذا القرن أن القضيتين الأساسيتين بالنسبة لأي وطني في البلاد العربية هما: الوحدة العربية والرأسمالية في طورها الاستعماري، ولهذا فهو يدعو للوحدة العربية ويعرض تصوره لشكلها ومضمونها، مثلما يشرح ماهية الرأسمالية ثم يحدد أخطارها ومنتجاتها، من فاشية ونازية ودكتاتورية وصهيونية، فالرأسمالية والاستعمارية هما شيء واحد في مفهوم هذا المفكر العربي المنسي.

إن إدراك سليم خياطة لمركزية هاتين المسألتين هو الذي يجعله معاصراً وراهناً لكل عربي وإنساني يدعو إلى الوحدة ويقاوم الرأسمالية - الاستعمار، اليوم كما في الأمس.

كما يدحض في الوقت نفسه ما سوقته الحركة الشيوعية العربية حول الموقف الحقيقي للماركسية من المسألة القومية كما يمثله سليم خياطة.

وبمقارنة بين ما جاء هذا الكتاب لخياطة وبين البيان الصادر عن مؤتمر زحلة عام ١٩٣٤ والذي لعب فيه خياطة دوراً بارزاً في تنظيم هذا المؤتمر وصياغة بيانه الختامي يؤكد شيوعي آخر هو يوسف خطار الحلو شارك خياطة في هذا المؤتمر والبيان أن خياطة هو صاحب هذا البيان كما عمقه لاحقاً في كتابه المذكور.

الجدير ذكره أن مؤتمر زحلة الذي نظمه الشيوعيون في لبنان وسورية شارك فيه عفلق والبيطار وغيرهما من مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي لاحقاً.

كما يذكر أن المؤتمر لم يخرج عن نطاق الإيمان بوجود أمة عربية واحدة مستهدفة من الاستعمار والصهيونية، وكان الخلاف فيه يدور حول شكل الوحدة، فدرالية أم كونفدرالية..الخ وذلك على عكس ما آلت إليه الخلافات لاحقاً بين القوميين وبين الحركة الشيوعية العربية التي تخلت عن دورها التأسيسي في صياغة الخطاب القومي كما مثلته ماركسية خياطة.

يقول خياطة في (سبيل الوحدة): كان العرب أمة المشرق والمغرب، وكانت مشاعل النور تنبعث من بغداد وجنبات الرافدين، ومن دمشق وخمائل الغوطتين، ومن الفسطاط وعواصم أفريقيا، وكان العلم والعزة والقوة أحلى ما تزين هذه الأمة، وكان رابطها الرئيسي (الإسلام) يحفزها للرقي ويدفعها للفتوحات، فكونت حضارة راقية في مادتها، سامية في روحها، أشترك في تأليف أجزائها عناصر عديدة فارسية وسريانية ويونانية لكنها بقيت في جوهرها المنحى والتفكير والتقاليد.

وكر الزمان وضعف الرابط في الأمة العربية

فتفككت أطرافها واضمحل شعورها بوحدة الهدف والمصير، فأنشغل كل جزء منها بنفسه وحصر اهتمامه وجهده بأموره، وتنكر لأقطار العربية الأخرى، فساء مصيره لضعفه المادي والمعنوي، وسقط فريسة سهلة للطامعين.

ومرت قرون ذلت فيها البلاد العربية لتفككها بعد أن سادت العالم باتحادها، ولكن بقيت عوامل الوحدة تعمل فيها من حيث لا تشعر، فكانت اللغة والعادات العربية الواحدة شاملة جميع الأقطار العربية من غير استثناء، وظهرت نتيجة عملها في القرن التاسع عشر مع اشتداد نزعة القومية في العالم العربي.

وامتد شعور القومية إلى العرب، ولكنه أحدث تبلبلاً وارتباكاً في العقول. لأننا أعتدنا أن يكون الرابط بين العرب الدين، فإذا بالقومية تأتي وتفهمنا أن الجامعة العربية لا يمكن أن تبني في هذا العصر على أساس الدين، بل على أساس شعور أبناء الأقطار العربية، على اختلاف مذاهبهم بالقومية العربية، وأن الشعور بالرابطة القومية يجب أن يتغلب على الشعور بالرابطة الدينية إذا أراد العرب أن يستعيدوا مركزهم الأدبي والمادي في العالم المتمدن.

ويتابع خياطة: نحن العرب نعتقد أن:

القضية العربية قومية بحته، وهي قضية أمتنا العربية.

أمتنا العربية هي القاطنة في العالم العربي والمرتبطة بصلات اللغة والثقافة والتاريخ والتقاليد والمصالح والآمال الواحدة.

وطننا العربي هو البلاد الواقعة ضمن الحدود التالية: جبال طوروس والبحر الأبيض المتوسط من الشمال والمحيط العربي وجبال الحبشة وصعيد السودان والصحراء الكبرى من الجنوب، والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط عند سواحل الشام من الغرب، وجبال إيران وخليج البصرة من الشرق.

العربي هو كل من لغته الأصلية العربية أو يسكن الأقطار العربية وليست له في الحالتين أية عصبية تمنعه من الاندماج في القومية العربية.

هدف القضية العربية إيقاظ قوى أمتنا وتنظيم عناصرها في دولة مستقلة متحدة متحضرة.

القضية العربية وحدة تامة لا تتجزأ ولا يمكن أن تتنافر أجزاؤها.

كل عصبية إقليمية أو جنسية أو طائفية تنشأ في وطننا العربي هي قوى هدامة يجب القضاء عليها أو إذابتها في العصبية القومية الجامعة.

البلاد العربية ملكنا، وكل اعتداء عليها اعتداء على أنفسنا.

لأمتنا العربية تاريخ مجيد، ولها على المدينة فضل كبير، فنحن نفتخر بكوننا عرباً.

أشد أعداء بلادنا الاستعمار والفقر والجهل والرجعية الاجتماعية والتعصب الديني فنحاربهم بكل جهودنا.

لا يفصلنا عن إخواننا العرب دين أو مذهب، بل تتحد عقائدنا في خدمة قضيتنا.

حياة بلادنا برفاهتها الاقتصادية، فليكن هذا هدفنا في جميع أعمالنا.

كل من يخل بواجبه نحو أمتنا هو عضو فاسد في جسدنا فلنقطعه ولندسه بأقدامنا.

تدخل الدين في السياسة والدولة أساس مصائب بلادنا فواجبنا أن نسعى لفصلهم فصلاً تاماً مطلقاً.

مقاومتنا للصهيونية يجب أن تكون على أساس مقاومة كل أنواع الاستعمار لا على

أساس مقاومة الدين ولا يجب أن نفكر بالاستسلام أمام هذه الوضعية المعقدة، فالتاريخ مليء بالنهضات التي قامت على وضعيات أعقد من وضعيتنا.

العربي هو كل من لغته هي العربية وكل من يسكن البلاد العربية وليس له عصبية ضد القضية العربية.

يجب أن يكون الشكل السياسي شاملاً وموافقاً في الوقت نفسه لجميع الحالات. وليس أقرب إلى هذا الشكل من الاتحاد على أساس الاستقلال الذاتي، أي أن الدول العربية الحاضرة ستكون في المستقبل ولايات عربية متحدة، فيكون لكل ولاية حرية الاستقلال في بعض الأمور، خصوصاً الإدارية منها، ويكون للدولة العربية المركزية إدارة الأمور التي تهم الجميع على السواء، كالدفاع والتمثيل.

## 2. رئيف خوري:

يعتبر رئيف خوري من رواد الفكر القومي أولاً ومن الماركسيين القوميين ثانياً، كما يتابع الدكتور عيد في كتابه الصادر عن مؤسسة عيبال في قبرص والذي يقدم صورة مهمة لقومية الماركسيين العرب الأوائل على خلاف ما أشاعته الشيوعية العربية حول القومية.

ونعرف أن رئيف خوري الذي ولد في انطلياس في لبنان سنة ١٩١٣ ودرس في الجامعة الأمريكية، ذهب إلى فلسطين حيث التقى مع مفكر قومي ماركسي (سوري) آخر منفي إلى فلسطين هو سليم خياطة وتعرفا هناك على جدل العلاقة بين الظاهرة الصهيونية الرجعية وبين القومية العربية كمشروع تحرري وساهما في النشاطات المعادية للصهيونية للشبيبة بياناً دعم فيه نضال الشعب الفلسطيني ضد الصهيونية والاستعمار البريطاني.

وقد بدأت أفكار رئيف خوري القومية تنضج بوحي قراءاته الماركسية مع منتصف الأربعينيات فأصدر سنة ١٩٤١ (معالم الوعي القومي) وهو نقد لكتاب قسطنطين زريق: الوعي القومي.

كما أصدر عام ١٩٤٣ (الفكر العربي الحديث) والذي أعتمد فيه على أثر الثورة الفرنسية في هذا الفكر، وحسب عيد لم يكن مجرد بحث تاريخي تحركه دوافع البحث ذات الصفة الأكاديمية، بل ولد هذا البحث في مجرى الصراع الاجتماعي والسياسي. فهو إذ يواجه إشكاليات الماضي القريب إنما يواجه إشكاليات تستمر في لحظة الحاضر المباشر، ومواجهتها معها إنما هو حوار مواجهة للمصائر التي ستتمخض عنه المعركة في سبيل المستقبل وهويته.

إذن فهو بحث في مدى حضور هذا الفكر وأثره في معترك الصراع وتوجهاته في بداية الأربعينيات. إن أول مجاري الثورة - ولعل أعظمها - كان الفتح النابليوني لمصر سنة ١٧٩٨، أيام حكومة الإدارة.

ثم يشير إلى هذا الطابع المتناقض للتوسع النابليوني عبر حديثه عن منشور نابليون الذي كان يحمل طابعاً مزدوجاً، فمن جهة كان يتكلم باسم التجار الفرنسيين، ومن جهة أخرى كان يصدر كلامه عن بعض مبادئ الثورة الفرنسية.

## 3. (ياسين الحافظ) في المسألة القومية الديموقراطية:

ليست الوحدة اتفاقاً بين الدول... هي وعي سياسي وسيرورة تاريخية:

هذا الكتاب «في المسألة القومية الديمقراطية» للمفكر القومي السوري ياسين الحافظ جزء من سلسلة كتب له صدرت عن دار الطليعة في بيروت وضمت بالإضافة لهذا الكتاب: التجربة التاريخية الفيتنامية - اللاعقلانية في السياسة -الهزيمة والإيديولوجيا المهزومة.

ومن المقدمة التي كتبها صديق ياسين الحافظ، المفكر السوري الآخر، إلياس مرقص أن الحافظ (١٩٣٠/١٩٧٨) كان في الواقعية، في الراهنية، في العمل والفكرة معاً...ولم تكن الهوية عنده خصوصية قومية، محلية، دينية، طبقية، حزبية ولم تكن القومية عنده «بطنا» من بطون العرب...بل رابطة محددة ومعينة ومفتوحة على اللانهاية...

إنها توجه، تطلع، نزوع إلى مستقبل ممكن وواجب حيث الهوية بالمعنى الآخر الذي يرفضه، تجريد ميت، لا هوية. وقد كان ياسين الحافظ في العمل، ضد البراغماتية والتجريبية وضد الانتهازية.. فالعمل بالنسبة له، شأن سياسي وتاريخي لأمة بالكامل.

وقد كان ياسين الحافظ في السياسة ضد الدوغما والتحجر، فانتقل من الحزب الشيوعي السوري إلى حزب البعث بعد أن فشل في تطوير أفكار الشيوعيين حول الأمة والصراع العربي - الصهيوني. وشارك في المؤتمر القومي السادس للبعث ١٩٦٣ وأسهم أسهاماً رئيسياً في صياغة المنطلقات النظرية.. وعندما وجد أن هذه المنطلقات تحتاج إلى حزب آخر أسس حزب العمال الثوري العربي ١٩٦٥ ثم أسس دار الحقيقة في بيروت.

نحو منظورات وحدوية جديدة:

يتساءل الحافظ تحت هذا العنوان: من قال أن حركة الوحدة ينبغي أن تنجح في عدة عقود، فثمة وحدات قومية استغرقت مدة تنوف على القرن مثل الوحدة الألمانية.. وفي الحالة العربية فالتجزئة مختلفة عنها في أمم أخرى. فهي محصلة وضع التأخر التاريخي للأمة العربية والأوضاع الامبريالية المرتبطة به.. فالصراع ضد التجزئة هو في الوقت نفسه صراع مع التأخر ومع الامبريالية التي تسعى لمنع الوحدة..

ومن ذلك أن خروج الاستعمار من البلدان العربية لم يسفر عن أية وحدة بين هذه البلدان، فالتجزئة ليست وضعاً ناجماً عن تخلف المجتمع العربي، فقط، ولا عن الاستعمار فقط. كما أن نقيض التجزئة وهو الوحدة، ليس فقط اتفاقاً بين عدة بلدان.. أنها وعي سياسي وسيرورة تاريخية كاملة: سياسية وفكرية واقتصادية واجتماعية..

ويخلص الحافظ من كل ذلك إلى الملاحظات التالية:

رؤية قومية ديمقراطية نقدية غير الرؤية القومية الخالصة أو التقليدية أو تلك تريدها الآن أو تلك التي تؤجلها تحت شعارات اشتراكية أو طبقية «قطرية».

رؤية للتاريخ كصراعات بين الأمم أيضاً وليس كصراعات طبقية فقط.

بسبب تفاوت التطور بين البلدان العربية، فإن مصر القطر الأكثر تطوراً على الصعيد الاجتماعي وهو الذي يلعب الدور الحاسم في مسيرة الوحدة.

ثمة عوامل جاذبه للوحدة أو عوامل نابذه... ومن العوامل الجاذبة: الشعور القومي المشترك الذي يظهر بقوة في لحظات الصراع مع العدو الخارجي، سواء عبر التدخل الامبريالي المباشر وغير المباشر أو عبر الوجود الصهيوني..

هناك نزوع الشعوب الكبير للوحدة في عصر

التحولات الاقتصادية الكبرى التي لا مكان فيها للشعوب الصغيرة.

أما العوامل النابذة فمنها التأخر العربي ومظاهره: سياسياً في إلغاء دور الشعب وإيديولوجياً في الوعي المفوت، واقتصادياً في التبعية.

ومن العوامل النابذة: الهيمنة الامبريالية ودورها في إضعاف الطريق البروسي للوحدة (تجربة بسمارك في مقاطعة بروسيا الألمانية).

أما العامل النابذ الثالث فهو واقع التجزئة وعناوينه عن الاستقلال والسيادة والهويات الوطنية... وهو واقع مزدوج يتراوح بين الصلابة والهشاشة، الرسوخ والرخاوة، التماسك البيروقراطي والتفكيك الاجتماعي.

وهناك العمل الاستعماري على توظيف بعض الأقليات القومية والدينية.

بالإضافة للعوامل النابذة والجاذبة للوحدة ثمة نقاط ضعف خطيرة، منها افتقار الوطن العربي إلى تطور برجوازي حقيقي وإلى سيادة النظرية الستالينية في كثير من الأوساط اليسارية العربية، التي تتجاهل أن الوعي القومي العربي ليس فقط، غير ذي صلة بالتطور الاقتصادي البرجوازي القطري العربي بل يسير في خط معاكس له ما يؤكد استقلال السياسة العربية عن الاقتصاد، وكذلك الطابع المتأخر والتابع للبرجوازيات العربية القطرية.

ولذلك كان من الطبيعي أن تسقط الماركسية الاقتصادية العربية في فخ المنطق الإقليمي وأن تقرأ تجربة الوحدة المصرية السورية بصورة غير دقيقة ومبالغ فيها حول تنافس أو مخاوف البرجوازية المصرية والسورية بل أن الوقائع تؤكد العكس تماماً من استفادة البرجوازية السورية من السوق المصرية وانقلابها على الوحدة بعد قرارات التأميم وليس بسبب نفوذ البرجوازية المصرية.

وبهذا المعنى فإن المشكلة هنا ليست بسبب نفوذ هذه البرجوازية بل بسبب عدم وجودها كبرجوازية تاريخية.

ويضيف الحافظ لهذا الاستنتاج بعداً آخر هو تشويش البعد الإيديولوجي سواء عند الشارع المصري أو عند النخب السياسية والثقافية، فالإيديولوجيا القومية تشكلت في الأساس داخل الإسلام السياسي الذي بقدر ما عمق الانتماء العربي لمصر بقدر ما همشه أيضاً وحوله إلى مجرد عنصر لغوي - ثقافي وليس رافعة لمشروع تاريخي.

وحول تجربة الوحدة المصرية - السورية يربط الحافظ بين العامل الخارجي والعامل الداخلي في تفسيره لانهيار الوحدة المصرية - السورية، ويقدم بهذه المداخلة وجهة نظر هامة لا تزال راهنة حتى اليوم وذلك مقابل الأصوات التي تركز على العامل الاستعماري الخارجي، والأصوات التي تهرب من هذا العامل إلى تحميل «البرجوازية المصرية» مسؤولية ذلك بالرغم من أن عبد الناصر كان قد دخل صداماً عنيفاً مع هذه البرجوازية.

ويرى الحافظ، أنه بالإضافة للعامل الاستعماري الخارجي، فإن إسقاط الوحدة وليس سقوطها يعود أيضاً إلى مسألة الوعي والايديولوجيا النخبوية التي تقفز من مطلق إلى مطلق وتعجز عن تصور المسار الوحدوي كصعود شاق متعرج وطويل.

## ٤. الياس مرقص

مفكر ماركسي عروبي سوري من أبرز اعماله: نقد العقلانية العربية، المذهب الجدلي والمذهب الوضعي، الماركسية والمسألة

القومية، الماركسية والشرق، ومقدمته الهامة لترجمة دفاتر الديالكتيك.

يبدأ مرقص بتشخيص المشكلة كمشكلة معرفة، فالفكر السائد، فكر فقه، ديني قومي، ماركسوي يسوغ نفسه بالترميزات والشيئية والتجريد المجرد.

ولا بد من مواجهته بإنتاج المعرفة في الواقع من خلال الممارسة، وبتحطيم الترميزات والشيئية، الدال والمدلول واستبدالها بالمفهومية الواقعية (بالوعي والواقع).

ويقارن بين مقاربات التوسير وماركس: التوسير (الممارسة - التناقض - الأبستيمولوجيا - المادة الأولية) وماركس (العمل - النفي - نظرية المعرفة مقابل نظرية العلوم - المادة في الواقع). كما يؤكد على أهمية التمييز بين الجدل وبين الوضعانية التي تتسلل إلى تيارات في الماركسية نفسها.

الخط الدائري التصاعدي (الجدل) مقابل تصور خطي وضعاني - السلب الجدلي مقابل (الإيجاب) النفي مقابل التناقض الديموقراطية مقابل الليبرالية، الماركسية مقابل الاقتصادوية وهكذا.

ولا يخفي مرقص نزعته الإنسانية (الإنسان ابن التاريخ) مقابل (أبناء الطبيعة) واهتمامه بماركس مخطوطات ١٨٤٤ التي تتناقض مع (الشيوعية العظمى) بل انه يرى إن التصوف الألماني هو الركيزة الروحية للديالكتيك الألماني (هيغل ماركس) ويقول إن العلم باطل عندما يضع نفسه فوق الروح، وينطلق من ذلك لرفض النزعة الاقتصادوية والتكنولوجية والعلماوية والأيديولوجيا العلمية التي تشيع مناخاً وضعياً يخفض العقل إلى مستوى الوعي المباشر، والعقلانية إلى مستوى التجريبية، والحقيقة إلى قانون.

ويقدم الماركسية كثالوث مركب من الفلسفة والواقع والشعب: الفلسفة (منطق - جدل - نظرية معرفة) والواقع في بعدي الزمان التاريخ والمكان والمنطق، والشعب (المجتمع المدني الذي يتضمن العلمانية - الديمقراطية - الإنتاج أو الشغل الاجتماعي).

وتقتضي الفلسفة عنده التمييز:

1- بين المنطق (مفاهيم) والأيديولوجيا.

2- بين الفكر وبين الأيديولوجيا.

3- بين الجدل في الطبيعة والجدل في ا لمجتمع .

4- بين نظرية المعرفة في الطبيعة وبين النظرية (الماديانية) للمعرفة في المجتمع.

وفيما يخص الحقول السياسية - الاجتماعية، يقدم مرقص قراءاته الخاصة لها انطلاقاً من أن الاستعمار، ليس مسؤولاً عن التجزئة مسؤولية كاملة، فهذه نصف الحقيقة.

وقد أنتج تحميل الاستعمار كامل المسؤولية حالة كره متكيفة موضوعياً معه لا حالة مقاومة له.

ويضيف أن عصر الانحطاط المملوكي العثماني لم يكن لا عصر وحدة ولا عصر تجزئة لأن الحدود السياسية بين الأقاليم كانت متحركة متغيرة، وكذلك الدويلات.

ولذلك ما زلنا حسب تعبيره نعيش (يوميات البديري الحلاق) ولا تزال الغزوة والغنيمة والعصبيات القبلية عنوان تاريخنا (على غرار ما كتبه الجابري عن ثلاثية القبيلة والغنيمة والعقيدة).

وبالمحصلة، لا شعب ولا جماهير ولا مجتمع ولا دولة، بل شعوب في شعب، ودول في دولة، وعوالم مغلقة متنافرة متناحرة.

ومن ذلك فالدولة القطرية، محصلة التمحور على الذات والتمحور على الخارج، وهي مظهر من مظاهر نقص الاستقلال القومي للأمة ونقص سيادتها، وذلك ما أدركه عبد الناصر عندما اكتشف أن استقلال مصر مرهون باستقلال الأمة.

ومن ذلك فيما يخص الأمة والوحدة العربية، فإن الأمة مقولة اجتماعية سياسية ثقافية تاريخية، تدل على جملة من الروابط والعلاقات المتغيرة بين الأفراد والجماعات والفئات والطبقات.

كما أن الوحدة العربية ليست عودة إلى وضع طبيعي كان قائماً، ولا هي استعادة لوضع سابق.

فالمسألة ليست في أن الوحدة أمر طبيعي والانفصال غير طبيعي.

إن المسألة القومية هي أولاً وقبل كل وعي الذات في شروط موضوعية، فإما أن نبقى موضوعاً وإما ان نصبح ذاتاً، ومثل كل عام، لا بد أن يتعين (يتخصص) ويصبح خاصاً حيث لا يلغي العام الخاص أو الخاص العام، وهذا ما يقودنا إلى دولة الحق وبالتالي الدولة الديمقراطية، وإلى مجتمع التعدد.

وهذا المجتمع عند مرقص، مجتمع تعدد اجتماعي - فكري - حزبي، تتقدم فيه الحقوق على الواجبات وينبع فيه حق الأكثرية من حق الأقلية.

## 5. سمير أمين

ومن المفكرين الماركسيين العرب الذين قدموا اطروحات حول الامة العربية من منطق مغاير.

فانطلاقا من فكرته في كتابه (الأمة العربية، دار مدبولي ١٩٨٨) حول المركز والمحيط (الاطراف) وكيف يتم تجاوز نمط الانتاج باخر أكثر تطورا، حيث يحدث ذلك في قلب المحيط لا في المركز، قدم تصورا مضادا للتعاقبية الماركسية الكلاسيكية (مشاعية، عبودية، إقطاع، رأسمالية، اشتراكية) قائما على (مركزية مضادة) متمثلة فيما اسماه بنمط الانتاج الخراجي (المشرقي) الذي كان الاقطاع الاوروبي من أطرافه.

وما يقرر ميكانيزمات هذا النمط ليس ريع الارض، بل طرق التجارة الطويلة المستندة الى تحالف التجار في المدن والمحاربين الرحل وبايديولوجيا من نمط الاسلام السائد في حال الدولة الاسلامية العربية ثم العثمانية، فيما الريف، باستثناء مصر، ظل منعزلا في الجبال وعبر جماعات مذهبية اواثنية (المسيحيون والشيعة والامازيغ).

انطلاقا من هذا التصور، أكد سمير أمين أن الأمة ظاهرة اجتماعية ظهرت قبل الرأسمالية حيثما توفرت تشكيلات قادرة على مركزة السلطة السياسية والتنظيم الاقتصادي.

هكذا تشكلت الامة العربية، وفق سمير امين عندما كان العرب القوة السائدة في نمط الانتاج الخراجي وفي القلب منه تحالف التجار، المحاربين وكانت بدايات تدهورها مع سيطرة العثمانيين على مفاتيح التجارة بين اسيا وأوروبا، وتحول العرب من قيادة النمط الخراجي، التجاري الى ملحقين باسطنبول، ومع انبثاق الرأسمالية من الحلقة الضعيفة الاقطاعية الاوروبية للنمط الخراجي المشرقي، تحول الشكل الاجتماعي والطبقة الاجتماعية العائدة على الصعيد العربي الى مصر في جذورها النهرية التي وفرت لها القاعدة الاقتصادية لنهضة صناعية من النمط الاوروبي الصاعد، وصارت مصر الاطار المحتمل لانبعاثات فكرة الامة

العربية مجددا عبر ارهاصات البرجوازية، في عهد علي الكبير ومحمد علي ثم عبر البرجوازية الصغيرة في عهد عبد الناصر.

لكن هذه الفكرة التي افتقدت للشروط التاريخية كما في حال الأمم الأوروبية لا يمكن أن تتبلور إلا في سياق ثورة اجتماعية في واحدة من المناطق الطرفية للمركز الرأسمالي وهي المنطقة العربية وخاصة مصر، ولا يمكن ان تتبلور، ثانيا، إلا عبر كتلة تاريخية بقيادة البروليتاريا ومناخات مشابهة لما جرى في الصين الماوية..

**موفق محادين**

عادل سمارة يكتب:

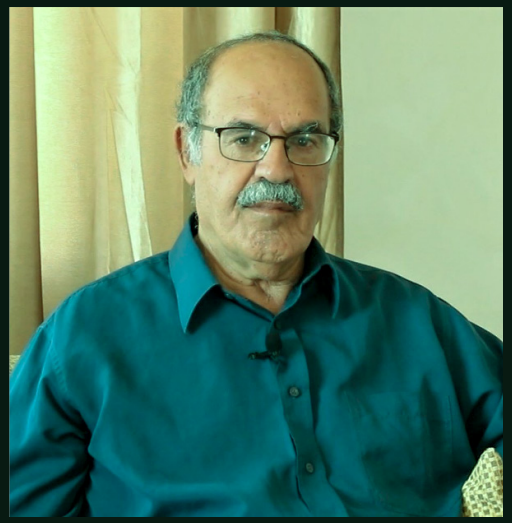

# إشتباك فك الارتباط إبّان التحول من الإمبريالية للعولمة

## عُجالة قراءة في أطروحة سمير أمين

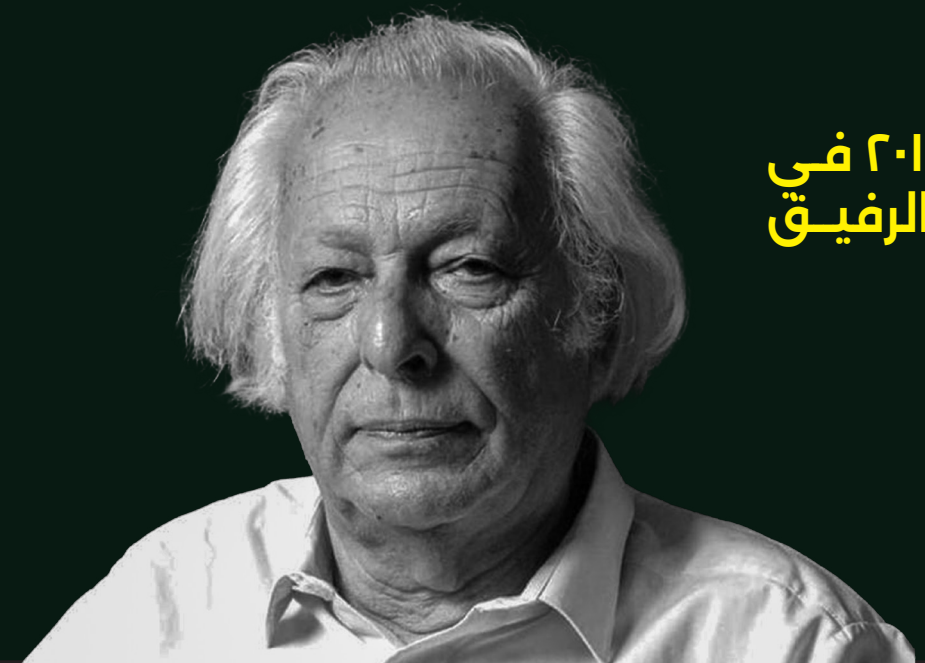

قُدمت هذه الورقة يوم ٢٧ أكتوبر ٢٠١٨ في مؤتمر بجامعة بير زيت إثر رحيل الرفيق الزميل سمير أمين

## مدخل:

قد يجوز لنا تقسيم العالم اليوم إلى ثلاث تجمعات جغرافية

- المحيط
- المركز الغربي الرأسمالي
- العالم الثاني الجديد.

في الحلقات الخمس عن الحماية الشعبية ناقشنا كيف يمكن العمل في مواجهة النظام الرأسمالي الغربي قبل جائحة كورونا وإثْرها. وكانت بؤرة النقاش حالة وتجربة الأرض الفلسطينية المحتلة وإلى حد ما تطبيق الرؤية أو سحبها ما أمكن على الصعيد العربي وغيره.

يشكل موديل التنمية بالحماية الشعبية مقدمة لفك الارتباط على صعيد بلدان المحيط فرادى أو جماعياً. والحماية الشعبية كما أشرنا في مقالات سابقة ليست في الأساس دولانية بل قاعدية قد تبدأة طوعية ولكن لا بد لها من ناظم قيادي سياسي طبقي حزبي، والمهم أنها لا تعتمد على السلطة القائمة بما هي تابعة وطبقية وغالبا كمبرادورية.

شكل موديل التنمية بالحماية الشعبية مقدمة لفك الارتباط على صعيد بلدان المحيط فرادى أو جماعياً. والحماية الشعبية كما أشرنا في مقالات سابقة ليست في الأساس دولانية بل قاعدية قد تبدأ عفوية طوعية ولكن لا بد لها من ناظم قيادي سياسي طبقي حزبي، والمهم أنها لا تعتمد على السلطة القائمة بما هي تابعة وطبقية وغالبا كمبرادورية.

صحيح أن التطور الطبيعي للتنمية بالحماية الشعبية هو العبور إلى فك الارتباط، ولكن الآلية لتحقيق ذلك تصبح أكثر تعقيداً. فالقوى الشعبية التي تنتظم وتتبنى وتطبق الحماية الشعبية ليست بعد في سدة الحكم كي تقرر فك الارتباط بالسوق العالمية و/أو تختار أسواقا بديلة لأسواق الغرب الرأسمالي.

بوسع الطبقات الشعبية مقاطعة منتجات بلد ما سواء لإنتاج بدائل أو حتى لو لم يكن بوسعها إنتاج البدائل، أي لأهداف سياسية إنسانية وطنية، وهذا قد يجبر السلطات على تغيير مصادر الاستيراد، ولكن هدف الحماية الشعبية دفع السلطة إلى فك الارتباط وهذا يعني أن فك الارتباط بيد الدولة/ السلطة التي تمارس ذلك في حدود جذريتها طبقياً، وتمكّن قوى الحماية الشعبية من دفع السلطة في طريق فك الارتباط. بكلام آخر، إذا كانت الحماية الشعبية هي جماهيرية أساسا وربما تماماً، فإن موديل فك الارتباط هو تشاركيا بين الطرفين، حيث يكون القرار حكوميا لكن هذا القرار لا يكون طوعياً في حالة سلطة تابعة إن لم يكن هناك موقفا شعبيا ضاغطا سواء بمقاطعة منتجات الغرب الرأسمالي أو بالضغط الشعبي على السلطة التابعة، أي بدرجة ما من النضال فالصراع الطبقي.

يعود نموذج/ موديل فك الارتباط إلى المفكر الراحل سمير أمين، والذي يكتسب اليوم راهنية أكثر من أي وقت مضى. لذا، آثرنا توفير تحليلنا لأطروحة سمير أمين كما كنا عرضناها إثر رحيله.

# عُجالة قراءة في أطروحة سمير أمين

## ملاحظة:

ليس هناك من إجماع على تغيّر حقيقي في النظام الرأسمالي العالمي مما يستدعي تسمية الحقبة الجارية بـ العولمة، وهي الفترة التي بدأت، تقديراً، مع الربع الأخير من القرن العشرين وحتى اليوم كفترة شديدة القِصر تاريخياً. لكن قِصرَها هو تكثيف لأزمة النظام الرأسمالي العالمي. أميلُ إلى وصف هذه الفترة القصيرة بالعولمة ولست مع القول بأنها طور آخر من الإمبريالية أو أنها كلياً ضمن الإمبريالية[٢].

هذه الورقة محصورة قدر المستطاع في فك الارتباط مع تناول القضايا الأكثر تعلقا بها فكريا وميدانياً.

(فك الارتباط هو عدم الخضوع لمنطق النظام الرأسمالي العالمي، وحتمية التكيف السلبي مع متطلبات التكامل مع النظام العالمي[٣]. )

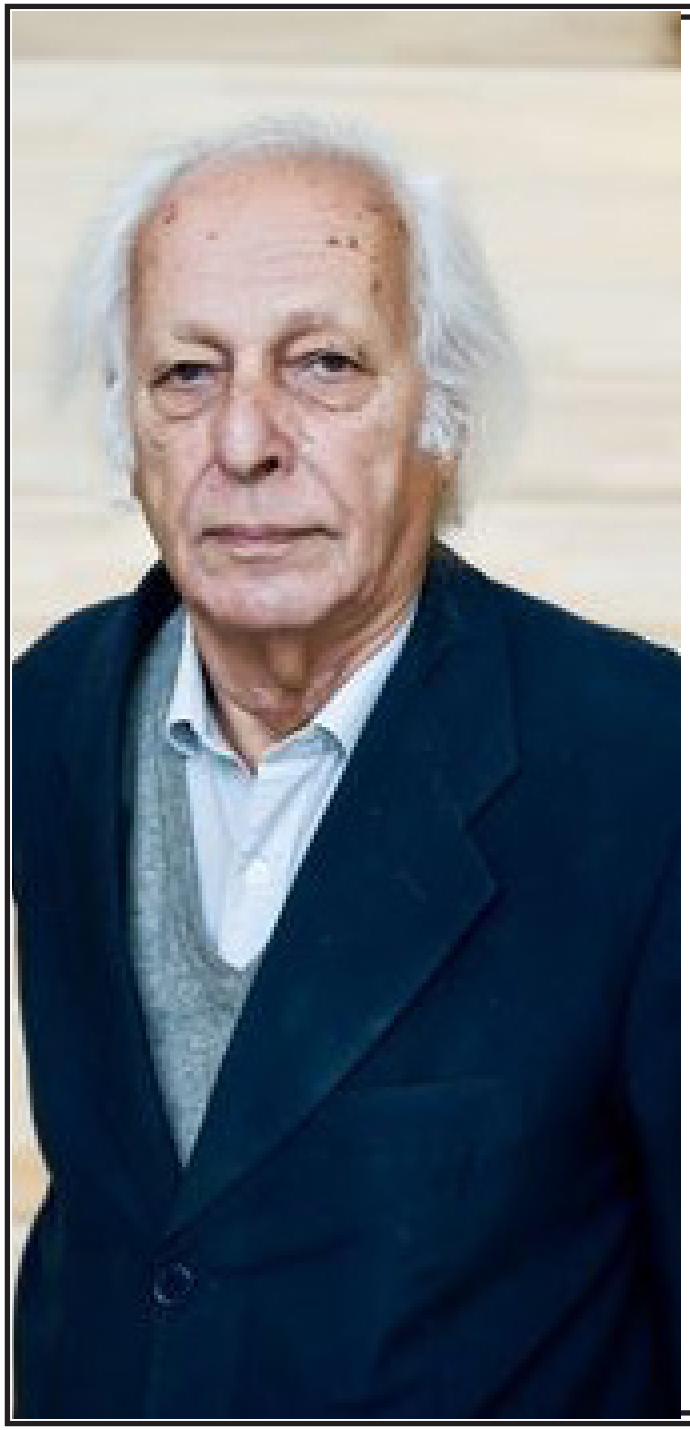

(٢) See Adel Samara, Beyond De-linking: Development by Popular Protection vs. Development by State, especially Chapter Seven, Beyond Delinking, p.p. 159-171. Published by: Al-Mashriq Al-A'amil for Cultural and development Studies, Ramallah and Palestine Research and Publishing Foundation, Glendale, CA. 2005.

(٣) Assessing the ?Amin S. Beyond US Hegemony Prospects for a Multipolar World, Zed Books, 2006, p. 27

قدَّم سمير أمين مساهمات هامة في النظرية الماركسية مرتكزا ومركِّزا على مكوناتها الثلاثة، بادئاً بتوظيف قوانين الديالكتيك في مختلف تحليلاته توظيف المتمكِّن الذي يُذيب النظرية في التحليل دونما تقعُّر باللغة وتعقيدٍ للنظرية، وموسعا في التحليل المادي التاريخي ليقدم مساهماته في فلسفة الاقتصاد السياسي.

سمير أمين، إيمانويل وولرشتين، أندريه جوندر فرانك وجيوفاني أريغي

هكذا بدأت ماركسية سمير أمين، أو شيوعيته إن شئت، سواء في بداية حياته في الحزب الشيوعي المصري ومن ثم مرحلة دوره بين مُنظِّري مدرسة التبعية Dependency School، التي أسست لتركيزه على قراءة متواصلة للتشكيلات المحيطية/ الطرفية، وصولاً إلى دوره المميَّز في مدرسة النظام العالمي The World System حيث كان أحد الرباعي (سمير أمين، إيمانويل وولرشتين، أندريه جوندر فرانك وجيوفاني أريغي). وهي المدرسة في الماركسية، بل في الاقتصاد السياسي الماركسي، التي تُحلل النظام الرأسمالي العالمي بدءاً من بنية النظام باتساعها وصولا أو نزولاً إلى الجغرافيا موضوع البحث، أي هذا البلد أو ذاك. ذلك لأن هذه المدرسة رأت أن العالم بمعظمه مُهيمَن عليه رأسمالياً ومن هنا وجوب أخذه كوحدة مترابطة، وإن كانت هذه المدرسة، تأخذ المتغيرات والخصوصيات بالاعتبار.

تولدت نظرية التبعية Dependency Theory خلال ستينيات القرن العشرين من مجموعة/ مدرسة إكلا United Nations Economic Commission for Latin America and the Caribbean «ECLA». التي أسس لها راؤول بريبتش حيث طورت أفكاره في البنيوية إلى نظرية التبعية التي وصلت إلى أن تطوير المحيط هو تقريباً واجب مستحيل.

ما يهمنا هنا هي أطروحة بريبتش بأن شروط التبادل المتدهورة بين المركز والمحيط تكرِّس تبعية المحيط، وفي هذا يمكن العثور على تأثير هذه الأطروحة على تطوير أمين لنظرية فك الارتباط، واتصالاً بمساهمة جوندر فرانك لا سيما في مسألة التخلف، و«تطوير التخلف– Developing of Underdevelopment» بمعنى وجود طبقات اجتماعية/ سياسية حاكمة وذات مصلحة في مواصلة التخلف ومن ثم التبعية[٤].

لم يُغيِّب أمين دور التقسيم العالمي للعمل في تكريس تخلّف المحيط، وهو ما دفعه لنقد الحركات القومية التي لم تَرَ تناقضاً بين التقسيم العالمي للعمل وتنمية بلدانها، مما أبقاها في مصيدة المفهوم البرجوازي لرتق الفجوة التاريخية، عبر المساهمة في التقسيم العالمي للعمل وليس عبر نفيه أي بفك الارتباط.[٥]

يقود البحث في التخلف بل يعني قراءة

(٤) أنظر عادل سمارة، تطوير اللاتكافؤ في الوطن العربي، مجلة **المستقبل العربي**، العدد ١٩٧، تموز ١٩٩٥، ص ص ١٦-٢٧.

(٥) Amin Delinking: Towards a Polycentric World, zed books, 1985.p.91

عوامل التنمية بالمقابل. من هنا كانت قراءة تنمية المراكز أساسية في تفكير أمين، وهي التي قادته وآخرين لنظرية التنمية المتمحورة على الذات، والاعتماد على الذات إقليمياً إلى أن توصل ورفاقه إلى استحالة تكرار مناخات التنمية التي أنجزتها المراكز الغربية، وخاصة دور هذه المراكز في الحيلولة دون تمكين المحيط من اللحاق بالمركز، إنه تناقض مُكوِّنَيْ النظام الرأسمالي العالمي أي مركز/ محيط. وعليه، كان من الطبيعي البحث عن طريق آخر، وهو الذي كان الاشتباك بفك الارتباط.

واصل أمين متابعته النقدية عبر قراءة وتحليل مادي تاريخي لمجمل النظام العالمي وأزماته بما فيها أزمته الممتدة منذ ٢٠٠٧ وحتى رحيله هذا العام، إلا أن مسألة التخلف بقيت محورية في قلقه وهمومه ومن ثم إنتاجه. ولذا كانت أطروحته الأساسية في «التطور اللامتكافئ» والذي يولد ويحافظ على التخلف ويُرسي التبعية واستمرارها. وهذا ما أغراه بأن يواصل حياته فكراً وعملاً في العالم الثالث ليصبح ضمن مدرسة العالمثالثية Third Worldism والتي تُعتبر الماوية مؤسِّستها.

هذا إلى أن وصل أمين إلى بلورة نظريته في فك الارتباط Delinking كشرط حَدِّيٍّ إذا كان لبلد في المحيط أن يتطور. وهو وصول قطعي تعرَّض بالطبع للتشويه من مفكري البرجوازية، بينما انقسمت تيارات الماركسية بين مع وضد أيضا:

- مؤيدو نظرية «التطور اللارأسمالي–non–capitalist path»، التي كانت من علائم التهالك النظري، ومن ثمَّ الوجودي، لأنظمة الاشتراكية المحققة.

- ماركسيون في الغرب توهموا أن المحيط قد انتقل إلى تطور رأسمالي كما المركز، نظرية اللحاق، بيل وارين مثالاً: «...على الرغم من مختلف تلك السياسات الخاطئة، أصبح هناك اعتراف واعٍ بأن إنجازات البلدان الأقل تطوراً قد تحسنت بشكل عام خلال الستينيات، وهو العقد الذي شهد النمو الأعلى في البلدان الأقل تطورا خلال القرن. وإذا ما أخذنا في الاعتبار أن القوة الشرائية الفعلية لصادراتها قد ارتفعت بنفس نسبة ارتفاع الإنتاج المحلي الإجمالي ٥,٥٪ (إلى جانب ثبات في شروط التجارة)، فإن الصادرات قد ازدادت بشكل سريع أكثر من الواردات في الستينيات، ...هذه المؤشرات الإيجابية استمرت في السبعينيات[٦]».

كان يجب أن يتأخر الرحيل المبكر لـ بيل وارين ليرى ماذا حل بالعالم الثالث وكيف تمفصل عنه العالم الرابع، ولا سيما النمو المتسارع لاقتصادات المضاربة والريع وتمويل بلدان الريع لإرهاب أنظمة وقوى الدين السياسي.

لم يُغفل أمين الرد على بيل وارين وبتلهايم وفرانك:

«...هل السمة الأساسية لتاريخنا هي توسّع رأس المال عالمياً؟ إن

(٦) Warren Bill, Imperialism Pioneering of Capitalism, Verso, 1980. P. 178. See also Chapter 8. The Illusion of Underdevelopment: Facts .of-Post War Progress, in the same book

بل وارين وجوندر فرانك وتشارلز بتلهايم، كلٌّ بطريقته يعتبرون الثورات الروسية والصينية «رأسمالية» ويرونها فقط كمرحلة، حتى لو محددة، لهذا التوسع»[٧]

يبقى السؤال، أيهما الأدق: قناعة أمين بأن روسيا والصين فكّتا الارتباط بما يكفي بحيث أصبحتا منيعتين محصنتين ضد العودة للرأسمالية، أم حماسة بتلهيام ووارين وفرانك بأن الثورتين الروسية والصينية مرحليتان وجزء من التوسع الرأسمالي؟

- أطروحة نقل التكنولوجيا إلى المحيط على شكل «رأس المال العامل الإنتاجي»، لكن دون التورط في الاعتقاد برسملة وتصنيع ولحاق المحيط بالمركز، تاماس سنتش: «... فمقارنة مع معظم البلدان المتقدمة، فهي، أي البلدان المصنعة حديثا، ما تزال في برزخ إنتاج وتصدير المنتجات الأولية. لقد وصلت هذه البلدان المصنعة حديثا موقعا أفضل في الاقتصاد العالمي. ولكن رغم أن النمو الصناعي قد حصل، لكن لم يرافقه تأسيسٌ لقاعدة صناعية وطنية متقدمة إلى جانب كفاءات البحث والتطوير. فحلقات الإنتاج عبر مجمل الاقتصاد الوطني لم تحصل. وبدلا من ذلك فإن أعشاشها الصناعية البسيطة لم تؤكد أو تضمن فوائد أفضل ومستويات معيشة أفضل للأكثرية. فهي ربما تحولت لتكون مجرد إعادة إنتاج التخلف[٨]».

- دُعاة وجوب تغلغل الاستعمار في المحيط بشكل أعمق لأن تغلغله لم يكن كما يجب أو لم يكن كافياً (جيفري كاي[٩])

- وأخيراً وليس آخراً المدرسة القديمة الجديدة الواسعة في «الاستعمار الإيجابي»، بل إيجابية الاستعمار في الفكر الاقتصادي السياسي البرجوازي والتي وصلت مع المحافظين الجدد، بمن فيهم قيادات تروتسكية انضمت لهذا التيار الديني السياسي، إلى احتلال بلدان لـ «دمقرطتها»، حال العراق، ليبيا...الخ.

## فك الارتباط:

«في هذا الوضع كان لا بد من تطوير قوى الإنتاج بعيدا عن الرأسمالية»

تلخِّص هذه الجملة رؤية أمين لفك الارتباط بمعنى أن تطور بلدان المحيط يضعها أمام أحد خيارين:

- إما مغادرة النظام الرأسمالي كلياً ارتكازاً على تطوير قوى الإنتاج، وتجاوز معايير العلاقات الاقتصادية الاجتماعية الثقافية المترتبة على الإضطرار لعلاقة ما بالسوق العالمية، وهذا خيار في مصلحة الأكثرية الشعبية.

(٧) Amin Delinking: Towards a Polycentric World, zed books, 1985.p.75

(٨) Tamas Szentes, The Transformation of the World Economy: New Directions and New Interests, Zed Books, 1986. P.74

(٩) See, Kay. Jeffry, 1975, Development and Underdevelopment: A Marxist Analysis. London Macmillan, New York: St Martins.

- أو الدوران في حلقة التخلف والتبعية المفرغة، وهو خيار في مصلحة أقل الفئات الاجتماعية عدداً وأكثرها ثروة وتخارُجاً، وأقلها انتماءً للبلد حيث وطنها هو رقم حسابها المصرفي.

إلى ماذا تُردُّ مسألة الأقلية والأكثرية إن لم تُرد إلى المسألة الطبقية وانحياز كامل مشروع أمين إلى الطبقات الشعبية.

إن قوى الإنتاج/ مستوى تطورها هي محورية في التطور، بل هي محوره الأساس بما أن الإنتاج هو الحلقة المركزية في أي اقتصاد وعليها تقوم الحلقات الأخرى، التوزيع والاستهلاك والادخار وإعادة الاستثمار والتبذير والإسراف...الخ. ويعني هذا، في هذه الحقبة تحديداً وفيما يخص الوضع العربي ولا سيما بلدان النفط، بأن الرّيْع كانتفاخ سيولة مالية ليس مدخلاً للتطور بل للتبعية. وفي حالتي التنمية والتبعية، فإن علاقات الإنتاج تلعب الدور الجدلي مع قوى الإنتاج، وهو ما يختلف فيه فقهاء الماركسية أيّها المقرِّر.

«...لا يتم فك الارتباط دون إخضاع العلاقات الخارجية وبلا كفاءة سياسية لإنجاز إصلاح إجتماعي عميق في اتجاه مساواتي. إضافة إلى استيعاب تكنولوجي والإبداع[١٠]».

هذه الكفاءة السياسية هي التي نسميها «القرار السياسي» من السلطة الحاكمة، أي القرار الطبقي من الطبقة الحاكمة التي في كل تشكيلة اجتماعية إقتصادية تتموضع طبقاً لمصالحها وليس طبقاً لقوميتها أو جغرافيتها أو تاريخها...الخ.

## الفائض، التراكم، وفك الإرتباط كبديل:

«...وفي حقيقة أن برجوازية العالم الثالث ليست قادرة حتى الآن على التجاوز. ولكن بوسع المرء القول بأن هناك بديلا للبرجوازية، البديل الآخر (التحالفات الاجتماعية الشعبية) هو الذي بوسعه القيام بذلك؟ هذه أطروحتنا. ولكن الأشكال اللازمة للقيام بذلك تتضمن ما نسميه فك الارتباط وهو جزء من الإشكالية، حيث لم يعد هناك مجال لتوسع رأسمالي، وعليه فالممكن -وهو بالأحرى نقيض- الانتقال باتجاه مجتمع آخر (الاشتراكي)»[١١].

يركز أمين في عمله هذا على التراكم مشيرا إلى أن هناك خلطاً بين التمحور على الذات وبين التصنيع بالبدائل (إحلال الواردات)، بزعم أنها عكس الاستراتيجية الموجهة للتصدير (أخذ التصدير كقوة دافعة للنمو) وتجد توسعها في توسيع السوق المحلية. وهذا يطرح السؤال عن كون البدائل هادفة التحكم بالتراكم أو أنها تقبل بدرجة من تحكم رأس المال الاجنبي سواء ماليا وتكنولوجيا وتبعية ...الخ. أي هل يفلت التراكم من يد الدولة[١٢].

طبعا، هو هنا يتجاوز وينقض نظريات اللحاق والتكيف والإقلاع...الخ بما هي مداخل برجوازية لبرالية للنمو لا أبعد.

(١٠) Amin Delinking: Towards a Polycentric World, zed books, 1985, P. 60

(١١) Amin Delinking: Towards a Polycentric World, zed books, 1985P.13.

(١٢) Amin Delinking: Towards a Polycentric World, zed books, 1985.p.18

ولكن، هل كان على أمين البدء أو العودة بنا إلى ما قبل التراكم، إلى أساس ومولِّد التراكم؟ أي علاقات الإنتاج الرأسمالية الطبقية التي تقوم على وباء الملكية الخاصة[١٣] ومن ثم الاستغلال وسلخ القيمة الزائدة أي بزل الفائض والتحكم به؟ باعتبار الفائض هو ثمرة الإنتاج الذي تنتجه قوة العمل بما يعتوره بالطبع من الاستغلال والتغريب/ الاغتراب. بالطبع كان يجب ذلك، لكنه ربما افترض أن الأمر تحصيل حاصل. فالفائض أساسه العمل ولذا هو أساس التراكم.

لم يكن أمين بعيداً، بل كان من أبرز أعضاء مدرسة مونثلي ريفيو[١٤] (بول باران وبول سويزي وهاري ماجدوف وآيلين ماكيمس وود وجون بولاني فوستر...الخ) ولا سيما عمل باران عن الفائض في كتابه الهام *Political Economy of Growth*، ١٩٥٧.

من أهم نظريات ماركس في الاقتصاد، نظرية فائض القيمة أو القيمة الزائدة التي تنتجها قوة العمل البشرية وحدها، ولا يبقى لها من جهدها المبذول في الإنتاج المتحول إلى سلع سوى ما يحقق لها حدا أدنى من البقاء أو الكفاف لها ولمن تُعيل؛ أما النسبة الأعم بما يقارب الإطلاق فتذهب للذي يملك ولا يعمل كي يُنفق ويدخر ثم يستثمر مجددا أي يستغل قوة العمل مجددا... وهكذا. وكلما تطورت التقنية يحقق الرأسمالي فائض قيمة حيث يتحول هذا الفائض إلى ربح.

اهتمّ الاقتصاديون كثيراً بمسألة فائض القيمة، وخاصة اقتصاديو التنمية، حيث ربطوا الأمر بنمو ومن ثم تنمية هذا البلد أو ذاك؛ بمعنى أن النمو والتنمية كي يتحقق أحدهما هنا والآخر هناك لا بد للبلد أن يحتفظ بالفائض المتحصل على صعيد وطني/ قومي، وبأن أسباب التخلف تنكشف حينما لا يتحكم بلد بالفائض المتحصل فيه، أي بمجموع القيمة الفائضة/ فائض القيمة للبلد ككل.

هذه المسألة شغلت الاقتصادي الأمريكي بول باران، ولا سيما في قرائته لتخلف بلدان محيط النظام العالمي، فطوّر نظرية في الفائض أطلق عليها الفائض الاقتصادي بما هو على مستوى الوحدة الدولانية أي البلد القومي. ورأى أن الفائض هو الفارق بين المُخرج الكلي والاستهلاك الكلي للبلد. وتقدم ليرى أن هناك ثلاث متغيرات محددة لمفهوم الفائض الاقتصادي هي: ١. الفائض الاقتصادي الفعلي، وهو الفارق بين المخرج الجاري للمجتمع والاستهلاك الجاري لنفس المجتمع، وهذا هو الفائض أو المدخرات التي تتعامل معها النظرية الاقتصادية. كما لاحظ أن بلدان المحيط تحقق فائضا ضئيلا وبأن هذا أساس تخلفها، أي نقص رأس المال. (طبعاً لاحقا لم يعد توفر المال هو الأساس في التنمية بقدر ما هو الإنسان والسياسة الاقتصادية)؛ ٢. الفائض الاقتصادي المحتمل وهو الفارق بين المخرج الممكن إنتاجه في شرط أو بيئة طبيعية وتكنولوجية بمساعدة استخدام موارد إنتاجية وما سيعتبر استهلاكاً أساسياً؛ 3. مفهوم الفائض الاقتصادي

(١٣) لا تقوم مشكلة البشرية تاريخيا على الأساس الاستحواذي الاستغلالي الذي كرسته الملكية الخاصة بما هي سلاح طبقي وهزيمة طبقة لأخريات، بل كذلك على المفعول والمحفِّز النفسي للبرجوازي الذي يتعالى بما يملك وبما ليس جوهره كشخص، وهذا يدفعه للتمسك بالملكية الخاصة بناء على تغذية متبادلة بين البحث عن الربح اللامحدود وتوظيف ذلك في رفع مكانته الاجتماعية فالسياسية.

(١٤) هذه المدرسة القريبة من الماوية هي التي اعتبر نفسي قريبا منها واستفدت منها كثيرا، لكنني لست ضمنها

المخطط المرتبط بنظام اشتراكي. وهو الفارق بين المخرج المتحقق «الأمثل» في بيئة طبيعية وتقنية تاريخية في ظل شروط تخطيط أمثل في الاستفادة من قوى الإنتاج المتوفرة واختيار مستوى استهلاكي أمثل. وأهمية المخطط أنه قائم على سياسة ترشيد علمية تحافظ على الموارد البشرية والطبيعية. هذا المخطط المتماسك لباران، والمهتم أساساً بقراءة مسببات التخلف، لم يركز كما يجب على السلطة الطبقية في المحيط والتي غالباً ما تحوّل دورها إلى آلية تسهيل نزيف الفائض. وهو الأمر الذي يتم تلافيه في النظام الاشتراكي.

بدوره، قام الراحل أنور عبد الملك بتوسيع نظرية الفائض. فإذا كان ماركس قد ناقشها وأسس لها على نطاق المشروع الواحد، علاقات الإنتاج والاستغلال الطبقي، ولامس المستوى القومي/ الوطني، وقام باران بتوسيع مفهوم الفائض ليتعدى القيمة الزائدة فائض القيمة في المركز وفي المحيط أي في النظام الرأسمالي العالمي في فترة معطاة؛ فإن عبد الملك طور المفهوم ليعطي الفائض مستوى تاريخياً غير ساكن ولا محدد بفترة زمنية محددة أو بلد محدد، وإن ركز على، أو بدأ من، القرن الخامس عشر، وهو مدخل يتقاطع في الحقيقة مع قراءة ماركس لمفهوم القيمة عموما، بمعنى أن قيمة السلعة هي مقدار العمل الإنساني/ الاجتماعي المبذول فيها، أي العمل بتنوعاته، الحي والميت والمجرد ...الخ. إنه العمل المتراكم تاريخيا.

ويضيف، إن جذور العنف، جذور الحرب المعولمة، الطريق إلى السلاح، قابعة/ متأصلة في البنية التاريخية للنظام العالمي، وهي في التشكيلة التاريخية للهيمنة الغربية المتجذرة في فائض القيمة التاريخي منذ القرن الخامس عشر وما تلاه. إن الشيء الأساسي في التحليل البنيوي للهيمنة الغربية، ليس محصوراً على أية حال في بُعد الميل الحربي. فبالأحرى، يجب تسليط البحث وتركيزه على تشكيلة فائض القيمة التاريخي»[١٥]؟

(١٥) Kana'an – The e-Bulletin ، السنة الثامنة عشر - العدد ٤٧٢٤، ٢٨ آذار (مارس)، ٢٠١٨.

لا أحد من اليمين ولا اليسار، أهمل مساهمة ماركس أو مساهمة بول باران في مسألة الفائض، لكن، قلما أشار أحد إلى مساهمة أنور عبد الملك! هل هي مركزانية الثقافة الغربية وتبعية غير الغربيين؟ هل هي لا سامية في الاقتصاد السياسي؟

لا شك أن أمين قد اطلع واستفاد من أطروحة عبد الملك لا سيما أنهما من نفس الخلفية من جهة، وعاشا أيضاً في شبه هجرة عن مصر، ومن هنا أنهى أمين مساهمته في بلورة فائض القيمة المعولم.

## فك الارتباط والمسألة القومية:

تقع المسألة الطبقية في مركز أطروحات أمين، وخاصة فك الارتباط، لأن تبني فك الارتباط يعني تحدي قوة اجتماعية سياسية، طبقة، هي الطبقة المتخارجة سواء الرأسمالية الكمبرادورية أو الطفيلية أو الريعية أو المضاربية على صعيد وطني، وطبعا الثورة المضادة على صعيد معولم. صحيح أن القرار السياسي السيادي بفك الارتباط في بلد معين هو طبقاً لجغرافية البلد، ولكن، إذا انطلقنا من معطيين مركزيين هما:

١-أن أمين ورفاقه يرون جغرافيا العالم مغطاة برأس المال بمعنى أن أي تطور، والأصح تغير أو حدث كبير في بلد لا ينحصر في البلد نفسه.

٢-وبأن الثورة المضادة لا تترك لبلد قراره الحر أبداً.

فهذا يعني أن قرار فك الارتباط، بل حتى أية درجة من الفك، له تبعاته عالمياً، إنه اشتباك معولم. ولكن أمين لم يتورط في خطاب التزييف الذي يقول بأن العالم قرية واحدة أو صغيرة. هو قرية صغيرة بمفهوم تطور تكنولوجيا السفر ونقل المعلومة، ولكن العالم (اجتماعياً) حافظ على، بل وكرَّس، الفوارق الطبقية، عالم الفقراء وعالم الأغنياء فبقيت القرية منقسمة بوضوح بين Chanty Town and Down Town. إنه الاستقطاب.

في مستواه الأول، يقول أمين، يفتح فك الارتباط باب الصراع مع الاتجاهات القومية الاندماجية:

«...فك الارتباط يفتح الصراع بين الاشتراكيين وبين الدولانيين والميول الرأسمالية القومية»[١٦]

لكن هذا المشروع، بما هو للأكثرية الشعبية، فهو مشروع تحالفي يحمل هموم التحالف التقدمي في البلد نفسه، وبهذا المعنى هو قومي أيضاً أي بمضمون قومية الطبقات الشعبية[١٧]:

«...فك الارتباط يهدف استعادة استقلال الدولة القومية.. ومراجعة علاقات شمال-جنوب بهدف تقوية الاستقلال القومي للشركاء وتوسيع منظور الحركة الشعبية كأساس للأممية الجديدة» [18]إلى أن يصل أمين إلى المآل الضروري والنهائي لفك الارتباط:

«...إذا كان تشكيل دولة برجوازية قومية وانشاء اقتصاد رأسمالي ذاتي التمحور مستحيلا في المحيط، فإن طريقا مختلفا للتطور لا بد منه... إنها مسألة فك الارتباط والاشتراكية.[١٩]

وحيث يقول أن: «التمحور على الذات أساسي في فك الارتباط لأنه يعني التحكم القومي بالتراكم»، فهو لا يعني القومي بالمعنى البرجوازي الكلاسيكي بل مصلحة الشعب في البلد المعني.

يرتكز أمين في اهتمامه بقوة الدولة القومية، رغم منظوره الماركسي، على البيان الشيوعي الذي يؤكد بأن الدولة القومية القوية هي القاعدة الأنسب أو المقدمة الموضوعية للانتقال إلى الاشتراكية.

«...وعليه، ليس في الجوهر بل حتى في الشكل، فإن نضال البروليتاريا مع البرجوازية هو أولاً نضال قومي. فبروليتاريا أي بلد، يجب بالطبع، قبل كل شيء أن

(١٦) Amin Delinking: Towards a Polycentric World, zed books, 1985.p.35

(١٧) أنظر عادل سماره، دفاعاً عن دولة الوحدة: إفلاس الدولة القطرية. رد على محمد جابر الانصاري. منشوات دار الكنوز الادبية، بيروت ٢٠٠٣. ومركز المشرق/العامل ٢٠٠٤

(١٨) Amin Delinking: Towards a Polycentric World, zed books, ١٩٨٥.p.٥٢

(١٩) Amin Delinking: Towards a Polycentric World, zed books, 1985.p.12

تحل أو تسوي القضايا مع برجوازيتها[٢٠]. «... فالشيوعيون أيضاً متهمون بأنهم يرغبون في إلغاء البلدان والقومية.

إن العمال لا وطن لهم. فليس بوسعنا أن نأخذ منهم ما لم يملكوه. وحيث أن على العمال الحصول أولاً أو إنجاز التفوق السياسي، فعليهم أن يبرزوا كطبقة قائدة للأمة، وأن يمأسسوا أنفسهم في الأمة، وهي، بهذا المعنى قومية، ولكن ليس بالمعنى البرجوازي للكلمة[٢١]». وهذا ما توصلت إليه في قراءة العلاقة بين الماركسية والمسألة القومية بأن هناك:

* الفهم والموقف البرجوازي للقومية، القومية الحاكمة.

* وهناك فهم وموقف الطبقات الشعبية للقومية، القومية الكامنة.

الأول طبقي برجوازي يبحث عن الانخراط في النظام الرأسمالي العالمي، والثاني له مضمون قومي وطني وحدوي اشتراكي[٢٢].

كما كتب ماركس في تحليله كمونة باريس:»...لم تكن وحدة الأمة تحت أي نوع من التهديد، بل كانت سيتم تضبيطها بدستور الكمونة، ففي جميع نداءاتها لسكان مناطق فرنسا، دعت الكمونة مختلف الكمونات الفرنسية إلى تشكيل اتحاد فدرالي مع كمونة باريس، من أجل ترتيب قومي على يد الأمة الفرنسية نفسها، وللمرة الأولى في تاريخها[٢٣]».

ما نخلص إليه هنا، أن أخذ المسألة القومية في الاعتبار وخاصة في بعدها التقدمي لم يأخذ أمين إلى إضاعة المستوى الطبقي. لكنه في الحالة العربية بقي مُراوحا بين العروبة وبين قوميات للأقطار المكتملة، مصر مثلا، بل لم يستفد من أطروحة كمونة باريس في دعوتها لفدرالية للأمة الفرنسية. هذا رغم أنه اقترب من المسألة العروبية حينما حلّل المزاعم الكردية في وجود قومية كردية موحدة[٢٤]. على أية حال، لهذا حديث آخر.

(٢٠) Marx Engels, *The Communist Manifestos. Ed. By Samuel J. Beer Appleton–Century–Crofts, Inc. New York. 1955. P. 21*

(٢١) Ibid. p. 29

(٢٢) أنظر عادل سمارة، دفاعا عن دولة الوحدة، مصدر سبق ذكره

(٢٣) *The Communist Manifesto: the First Unforged Edition,* ed. by Lafif Lakhdar. *Galileo Publications, Jerusalem, 1976, p. 108.*

(٢٤) http://monthlyreview.org/2016/10/01/the-kurdish-question-then-and-now/.

## اختلاف عن السوفييت والتروتسك:

يصر أمين على اختلاف تجربة الصين في التنمية عن تجربة الاتحاد السوفييتي معتبراً التجربة الصينية هي الأقرب إلى فك الارتباط. وفي هذا يُخالف، كما قال، تعميمات بيل وارين وتشارلز بتلهايم والتروتسك.

يقول، تم في تجربة الصين: «...١- خلق منظمة مستقلة ذاتيا تزعم أنها ماركسية، ٢- إخلاء المدن كمراكز مؤيدة للقوة البرجوازية الإمبريالية والانسحاب إلى الريف، ٣- شن ومواصلة صراع طبقي في الريف مرتكز على طموحات الفلاحين الفقراء والمعدمين من الأرض وعزل ملاك الأرض، ٤- تبني حماية هذا الصراع بالشكل المنظم لجيش الغوار ٥- توازي هذا مع دبلوماسية بهدف تجنيد أوسع دعمٍ قومي ومثقفين، والبرجوازية الصغيرة وحتى البرجوازية التي من حيث المبدأ ضد العدو الإمبريالي (اليابان مثلا) وحلفائه حيث تم دعم هذا من أكثرية الشعب بعكس ثورة البلاشفة». ص ١٢٩ from de-linking Amin.

يُفيد هذا النص في أن التحالف الاجتماعي الطبقي الموسع أساسيٌّ في التنمية الاشتراكية، هذا مع العلم بأن فك الارتباط لدى أمين هو للانتقال إلى الاشتراكية.

وبما أن نظرية فك الاتباط هي أساسا لبلدان المحيط لتجاوز التخلف الذي نتج عن إخضاعها للمركز الرأسمالي ومقتضيات مصالحه، فإن للفلاحين دوراً أساسياً في نظرية أمين. ولا شك أنه تأثر بتمسك الماوية بالدور الثوري للفلاحين يشاركه في هذا فرانز فانون بمعزل عن حدود اطلاع فانون على الماوية أم لا. وفي المقابل، تمسك ماركوزة بالمشردين كبديل للعمال وهو ما رفضته الماوية.

ورغم تقاطع أمين مع التجربة الصينية، إلا أنه لم يُغفل حقيقة أن التجربة السوفييتية كانت التجربة الأولى والأولية في فك الارتباط. فهو يرى بأن «...النظام الإنتاجي السوفييتي كان فك ارتباط فعلي فعال عن هيمنة النظام الرأسمالي العالمي. أي أن الذين في السلطة (الاستثمار والتسعير) ليست مشتقة من انخراط «مفتوح» في العولمة. تم هذا بسرعة بعيدا عن النظام العالمي».

والسؤال هو: هل كان قرار فك الارتباط بالنظام العالمي من جانب السوفييت فقط؟ أم أن الإمبريالية نفسها قررت ذلك عبر مقاطعة الاتحاد السوفييتي وشن الحرب عليه فيما أسماه السوفييت بـ «الشيوعية الحربية». ما أقصده هنا أن المقاطعة ليست موقفاً من جانب الشعوب والقوى الثورية وحسب، بل أيضاً من جانب الإمبريالية[٢٥] في عدوانها على الشعوب.

أما في نقده لمآلات التجربة السوفييتية يقول أمين: «...ولأن القطيعة غير ممكنة فليس صحيحا أن هناك أوتاركية، فالاتحاد السوفييتي كان بمثابة محيط في تصدير المواد الخام وذلك من خلال انخراطه في النظام العالمي».

لا يمكن واقعياً حصول أوتاركية تامة مع النظام الرأسمالي العالمي. وهنا يكون فك

(٢٥) من المفارقة بمكان أن الفلسطينيين والعرب غارقون في جدل وجوب أو عدم المقاطعة ورفض التطبيع مع العدو الصهيوني حتى اليوم، بينما قررت الحركة الصهيونية مقاطعة المنتجات الفلسطينية قبل قرن كامل، أنظر كتاب: «The Other Israel", A Critique of Zionist History and Policy, By the Israeli Socialist Organization ((MATZPEN

الارتباط هو الخروج من علاقات الارتباط بهذا النظام أو بمقدار الخروج منها وتصميم السياسات التنموية طبقا لمقتضيات تطور الاقتصاد المحلي. وهذا يعني أن فك الارتباط ليس قطعياً وليس قطعاً مفاجئا وبقرار سياسي بقدر ما هو آلية تطبيقية تصل في نهاية الأمر إلى الاشتراكية التي هي مشروع أممي.

تغير تقييم أمين للتجربة السوفييتية في بدايتها عن مآلاتها، لا سيما منذ فترة خروتشف وصولا إلى جروباتشوف، وتحديداً في الدور المحيطي للنظام السوفييتي عبر تصدير المواد الخام وقيام الثورة المضادة الإمبريالية وخدمة الحكم السعودي لها في توجيه ضربة قاصمة لأسعار النفط بتخفيض سعر برميل النفط في منتصف ثمانينيات القرن العشرين، مما كان له الدور الأساس في تفكك هذا البلد[٢٦].

(٢٦) See Adel samara, The USSR: From Revolution to Collapse. An *Essay on the Soviet Experience. This paper has been presented in the International Communist Seminar in Brussels, May 1995, sponsored by the Worker's Party of Belgium. In 1998, it was published in a book: The Collapse of the Soviet Union: Causes and Lessons. The book contains 18 articles from communist thinkers and militants from all over the world*

بدورها تختلف التروتسكية مع الماوية بشأن دور الفلاحين والمسألة القومية، وهو اختلاف ينسحب على موقفهم كذلك من سمير أمين. فقد اعتمدت الثورة الصينية على الفلاحين وليس على العمال فقط. كما اختلفت التروتسكية مع السوفييت والماوية بشأن الثورة في بلد واحد ومع الثورة في بلد غير متطور صناعياً حيث يغيب الوجود الفعلي للبروليتاريا.

ربما تفيد الإشارة إلى تناقض قيادات كثيرة من التروتسكية مع فك الارتباط في المستويين القومي والأممي: فعلى الصعيد العربي وقفت معظم الحركات التروتسكية ضد القومية العربية واعترفت بالكيان الصهيوني، ودعمت العدوان الثلاثيني على العراق واحتلاله، ودعمت ما يسمى بالربيع العربي، وهذا تعميق للتبعية وتناقض تام مع فك الارتباط. أما على الصعيد العالمي فقد انخرطت قيادات تروتسكية في تيار المحافظين الجدد وكان لها دور أساسي في القرار الإمبريالي الأمريكي ضد العراق ولاحقا ضد سوريا وليبيا اليمن...الخ. بمعنى أنها انخرطت في الاستعمار، وهو المدى الأبعد عن فك الارتباط.

## فك إرتباط ما قبل فك الارتباط:

### هل له مقدمات تاريخية؟

تقف نظرية فك الارتباط كنقيض مؤكد لمختلف نظريات الاقتصاد التقليدي المبتذل التي تتمحور حول السوق وحرية التبادل وغيرها، بدءاً من «دعه يعمل دعه يمر» وصولاً إلى «تحرير التجارة الدولية» وليس انتهاء بمعزوفات المؤسسات المالية الثلاث «المصرف والصندوق ومنظمة التجارة العالمية»، إثر أزمة ٢٠٠٧ التي لم تتعب في أمر بلدان المحيط بعدم تبني سياسات حمائية كي لا يُعاق سيل التصدير من المركز إلى المحيط، ولا سيل نزيف الفائض من المحيط إلى المركز. ويتم تسهيل إدارة المركز للأزمة لا حلها أي الإبقاء بصرامة على إخضاع المحيط لمقتضيات تطور وحتى علاج أزمة المركز أو كلفة إدارة تلك الأزمة، وهذا ما حصل حقاً! ورغم أن إدارة ترامب أتت بمثابة «جهيزة التي قطعت قول كل خطيب»، حيث تُدير سياسة حمائية بشكل فج وحربا تجارية معولمة، لكن أنظمة/طبقات حاكمة في المحيط سوف تواصل فتح فخذيها للريح. هذا مع أنه لم يكن

من الصعوبة بمكان على طالب اقتصاد في سنوات الكلية الأولى أن يدرك أن مختلف السياسات الاقتصادية للبلدان الرأسمالية الغربية كانت، ومازالت، سياسات حمائية رغم الرطانة الهائلة عن حرية السوق.

للوصول إلى أية درجة من النمو، لا بد من إقامتها على درجة من الحماية. هذا ما يمكن فهمه من قانون المنافسة الرأسمالي، سواء في المشروع الفرد أو في الاقتصاد المحلي لأي بلد. فالمنافسة تقتضي الحماية وتنتهي إلى الاحتكار والمنافسة بين الاحتكاريين أنفسهم أي تزاوج المنافسة والاحتكار حتى انتهاء النظام الرأسمالي.

لم تسمح التشكيلات الرأسمالية الأوروبية الغربية لغيرها بالتطور لأن مقتضيات النظام العالمي بتوسعه الاستعماري تُحتم هكذا سياسات وتطبيق لتلك السياسات. ولم تكن المستوطنات الرأسمالية العنصرية البيضاء شذوذا عن هذه القاعدة أبداً، ذلك لأنها امتداد للتوسع الاستعماري الغربي الذي كان ينهب من المحيط ويستثمر في تلكم المستعمرات الاستيطانية. مثلا، النهب من الهند والاستثمار في أمريكا الشمالية والنهب بل التقشيط من الفلاحين الفلسطينيين والاستثمار في اقتصاد الاستيطان الصهيوني قبيل اغتصاب فلسطين ١٩٤٨.

يرى أمين أن أوروبا تمكنت من مواجهة تزايد السكان بدفع الفائض البشري إلى الأمريكيتين وإلى مناطق أخرى، مما أبقى على سكانها الحاليين بمعدل ثلث ما كانوا سيكونون عليه لو لم يهاجروا. بينما في أفريقيا (حسب رأيه)، فإنه لا مجال للهجرة مما يجعل الحل ذاتيا. أي إن أوروبا حلت مشكلة الفرنجة في العالم الجديد. في حالة أفريقيا والوطن العربي اليوم، فإن الهجرة إلى أوروبا مستحيلة لأنها لا تحتاجها بل هي بيئة طاردة. كما أن الوطن العربي لا يمكنه إعادة التوازن بين الخليج ومصر مثلا. وهذا يجعل خيار الهجرة مغامرة انتحار. لاحظ الانتقاء الألماني للمهاجرين السوريين. وعليه، ففي غياب قرار دولاني سيادي بفك الإرتباط بل وجود قرار بالتبعية للخارج والقمع في الداخل، نشأت ظاهرة الهجرات القاتلة.

أجمع الأربعة، أمين وفريقه، على حصول التطور بين تشكيلات المركز في القرن ١٩ وبشكل متوازٍ وعلى كذلك تطور النظام العالمي[٢٧].

يرى أمين أيضاً أن المراكز الجديدة في أوروبا دخلت النظام العالمي حتى نهاية القرن التاسع عشر دون فك ارتباط لأنها كانت متحكمة بعلاقاتها الداخلية؟ ولكن، كيف تمكنت من التحكم بعلاقاتها الداخلية؟ بالفائض المتراكم؟

يعود هذا إلى ١- توفر القرار القومي السيادي السياسي ٢- توفر مستوى من التطور الصناعي ٣- وجود فرص التوسع الرأسمالي في نطاق البلد الواحد ٤- عدم وجود مركز مهيمن كليا في أوروبا بحيث يحول دون فك ارتباط هذا البلد أو ذاك، ولذا، لم تكن تلك البلدان بحاجة لفك الارتباط لحماية نفسها، بل ربما كان من مصلحتها عدم فك الارتباط البَيْني طالما

(٢٧) Amin Delinking: Towards a Polycentric World, zed books, 1985.p.161

أن مستوى التطور متقارب في غرب وشمال أوروبا. أي أن هنالك مصلحة مشتركة ما في الارتباط البيْني. (انظر لاحقاً)

ولكن، كيف كان لليابان أن تترسمل؟ بينما بقيت مختلف بلدان المحيط غارقة في التخلف أو على حواف التطور.

كان دخول اليابان تحت حكم آل ميجي[٢٨] إلى الرأسمالية بعيدا أو بأقل إعاقة من الغرب الرأسمالي، ربما كان المحاولة الأولى/ المبكرة في «الاعتماد على الذات» التي طورتها مدرسة التبعية Dependency School وطورها أمين إلى «فك الارتباط» De-linking[٢٩]. بينما زعم اقتصاديو البرجوازية أن فك الارتباط هو القطيعة Utarkism.

يقول بأن فك الارتباط ليس هو القطيعة بل هو إخضاع/ إلحاق العلاقات الخارجية لصالح منطق التنمية المحلية... رفض الخضوع لقانون القيمة المعولم[٣٠].

كانت تجربة محمد علي شبيهة بالتجربة اليابانية، إلا أن تحالف الاستعمار العثماني مع الاستعمار الأوروبي (البريطاني والفرنسي) قصم ظهر تلك المحاولة، وهو ما ولّد المقولة الشهيرة «لا يابان بعد اليابان» بمعنى أن اليابان كانت قد ترسملت في غفلة من الزمن، أو لأن مركزاً إمبريالياً كلّي الهيمنة لم يكن قد وضع من بين أولوياته اليابان مع أنه حاول ذلك، ولكن ربما لم يكن بمقدوره قطع تطورها.

من المفارقة أن أوروبا الغربية نفسها، بل شمالها كذلك، تطورت بشكل متساوٍ نسبيا، وإن تفاوت زمنيا إلى حدٍّ ما رغم تواكب فترة التطور المشترك مع حروب قومية مروِّعة بين بلدان أوروبا الغربية وخاصة بريطانيا، فرنسا ألمانيا، إيطاليا! فهل يمكننا تمطيط مقولة «لا يابان بعد اليابان» بـ «لا أوروبا بعد أوروبا».

هنا يتوجب الربط بين هاتين المقولتين وبين رسوخ قناعة سمير أمين بأن فك الارتباط هو الطريق الأوحد الممكن لتطور المحيط.

## الاندماج مجددا:

يشكل انتصار رأس المال على العمل تحدياً لفرص فك الارتباط. وهو الانتصار الذي بدأ بتفكك المحيط الأبعد للاتحاد السوفييتي أي دول عدم الانحياز ذات التوجهات الاشتراكية إندونيسيا، مصر، سوريا، العراق، الجزائر وغيرها، حيث ذهبت باتجاه تبادل أوسع مع السوق العالمية، ثم تفكك المحيط الأقرب للاتحاد السوفييتي أي دول أوروبا الشرقية. والتحول الرأسمالي، وإن التدريجي

(٢٨) https://www.youtube.com/watch?v=12NO-JSWGsWI

(٢٩) أنظر عادل سمارة: Beyond Delinking (ما بعد فك الارتباط)، مصدر سبق ذكره

(٣٠) Samir Amin, Preface in: Azam Mahjoub, Adjustment or Delinking: The African Experience, Studies in African Political Economy, Zed Books, 1990

للصين إثر رحيل ماوتسي تونغ واعتقال «عصابة[٣١]» الأربعة، وأخيرا تفكك الاتحاد السوفييتي نفسه. بقول آخر، فإن الثلث الأخير من القرن العشرين قد شهد تصفية لتجارب فك الارتباط، باستثناء واحات محدودة، كوبا، وكوريا الشمالية. في هذا الصدد، لم يكن توقع أمين دقيقاً، وبالطبع لا نطلب التنبؤ هنا.

فرغم نقده للتجربة السوفييتية قبيل انهيارها، كتب أمين أن الإتحاد السوفييتي لن يقبل إعادة الاندماج في النظام الرأسمالي العالمي حيث يهدد نظامه السياسي الداخلي. هذا رغم أنه أشار إلى دوره المحيطي عبر تصدير المواد الخام إلى المركز وكعلاقة بالمركز، كما أشرنا أعلاه.

لقد أوضح تفكك الاتحاد السوفييتي ومختلف البلدان الأخرى في الكتلة الشرقية أن من قرر لم تكن السلطة السياسية بل الشارع الذي لم يكسبه النظام.

(٣١) ومن بينهم زوجته. وللطرافة كانت من إدانات يمين الحزب ضد ماو أنه تزوج مطلّقة! انظر كتابنا القادم «**هزائم منتصرة وانتصارات مهزومة**»

ليس المهم اليوم إن كانت روسيا والصين أقل انخراطا في النظام الرأسمالي العالمي، أو ليستا تابعتين، ولكن النظم هناك هي رأسمالية رغم وجود دور دولاني في الاقتصاد. لكن ما يهمنا أنهما غادرتا فك الارتباط من جهة، وبأن البريكس لا تشكل خروجا من النظام الرأسمالي العالمي بل تشكل حالة منافسة على قيادته، أي محاولة انخراط من موقع قيادي. ولعل ما يدعم زعمنا هذا حفاظ الصين على علاقاتها الاقتصادية بالولايات المتحدة ودفاعها عن «حرية التجارة» مقابل الهجمة الحمائية الأمريكية.

فيما يخص الصين رأى أمين، وتقريباً بقي على توقعه، أن «الصين لن تندمج في النظام الرأسمالي العالمي مما يهدد نقاء تطورها المستقل». والحقيقة هذا هو الملعب الذي تلعب فيه الصين، أي بين مقتضيات تطورها بأسسه الماوية وبين التوجهات الاندماجية التي أسسها دينغ هيساو بينغ.

أما عن أوروبا الشرقية، فقد طرح أمين، «... وبالمقابل، فإن بلدان أوروبا الشرقية ربما، إن سمحت الظروف «أن تعبر إلى الغرب». لكن الخطر يمكن تقليله إلى مستوى ما بحيث أن هامشا من الاستقلال الذاتي (هنغاريا ويوغسلافيا) سيسمح لها بشكل متواشج متزامن مع قبول تغيرات اجتماعية داخلية»[٣٢].

لم يكن تفاؤل أمين في محله تجاه هذه الدول. فقد ذهبت المجر، بل والبقية، إلى أبعد من تفاؤله. والمفارقة أن آخر من صمد كانت يوغسلافيا التي كانت مرشحة منه ومن كثيرين بأنها أول من تلتحق حيث استلزم إنجاز إلحاقها حرب حلف الأطلسي ضدها ١٩٩٨[٣٣].

## ما بعد الكتاب:

أقصد هنا ما بعد صدور كتاب أمين «فك الارتباط».

كتب عزام محجوب، ١٩٩٠:

(٣٢) Amin Delinking: Towards a Polycentric World, zed books, 1985.p.55

(٣٣) من الطرافة بمكان أن كثيرين من مثقفي الطابور السادس العرب الذين أيدوا العدوان الأمريكي ضد العراق ١٩٩١ و٢٠٠٣ وضد سوريا وليبيا قد باركوا العدوان على يوغسلافيا! لعل هذا التيار معولمٌ.

«...أعلنت عشرون من بين خمسين دولة أفريقية في وقت ما نيتها بدرجة أو بأخرى من الراديكالية، القطع مع الماضي الاستعماري والاستعماري الجديد وأن تتبنى مدخلا جذريا لتنمية اشتراكية مستقلة... في معظم، إن لم نقل جميع، هذه الحالات لعب الجيش دورا مهما في التبدل السياسي قيد النقاش... لكن لا هدف التحرر الاقتصادي من التبعية للنظام الرأسمالي العالمي قد أكمل التحرر السياسي ولا بناء مجتمع جديد في تضاد حاد مع العالم الرأسمالي يبدو قد تقدم بما يكفي للوصول إلى نقطة اللاعودة. ...وعليه، فإن تطور المحيط تورط في إعادة هيكلة متواصلة، لصالح متطلبات وقيود رأس المال المهيمن. لقد أعيدت بنية المراكز re-structured وتمت هيكلة المحيط adjusted بناء على إعادة بنية المراكز. ولم يحصل العكس... الذين استسهلوا الهيكلة انتهوا إما بالوقوع في شرك المديونية بناء على وصفات البنك والصندوق، وهي حالة الأمم المصنعة حديثا، أو تحولوا بقصد أو بلا قصد إلى عالم رابع فك الارتباط حيث أُخرجوا من النظام... وهذا جعل إعادة الكمبردرة هي النظام السائد اليوم»[٣٤].

يتقاطع هذا مع جزء من تحليل وولرشتين بوجود أو تبلور بلدان شبه مركزية شبه محيطية، ومع التحليل القائل بعالم رابع، خارج التاريخ.

ويندرج هذا الطرح في خانة انتصار رأس المال على العمل مع تأكيده بأن أشباه المراكز لم تنتقل إلى مراكز. ربما يؤكد هذا أزمة ١٩٩٧ في كوريا الجنوبية حيث قامت مصارف المركز بـ «تكويش/ نهب» ثروتها. وهذا ما جعل مهمة فك الارتباط أشد صعوبة مع اتساع الارتباط/ الاندماج جغرافياً. وإذا كان الاندماج الذي أشار إليه محجوب هو إعادة اندماج أفريقيا، فإن إعادة اندماج أوروبا الشرقية هو الأكثر مفارقة وغرابة لأن المجموعة الثانية كانت قد عاشت درجة عالية من فك الارتباط، والتي لم تعشها المجموعة الأولى. والمُفزع أن إعادة الاندماج أخذت طابع الإذلال بتحويل معظم تلك البلدان إلى مخلب قط للإمبريالية أو مراكز تدريب لـ«الثورات» البرتقالية أو مستودعات تصدير لفراشات الليل وقوة العمل الرخيصة، ناهيك عن تحولها إلى سوق لمنتجات الغرب الرأسمالي.

يقول محجوب، أن فك الارتباط ليس هو القطيعة بل هو إخضاع/ إلحاق العلاقات الخارجية لصالح منطق التنمية المحلية... إنه رفض الخضوع لقانون القيمة المعولم. (محجوب). إن توزيع الدخل هو أقل مساواة في المحيط منه في المركز وهذا يجعل المركز أكثر استقراراً[٣٥].

وهذا القول الصحيح يفتح على تساؤلات هامة بمعنى أن التناقض الطبقي أشد في المحيط ومع ذلك الوعي الطبقي أعمق في المركز! فهل التناقض بحد ذاته لا يخلق وعياً طبقياً سياسياً؟ وبالتالي لا يخلق حالة ثورية؟ أم يخلق وعيا طبقياً انتهازيا مصلحيا في الغرب على مستوى مختلف الطبقات، اللهم إلا من رحمه وعيه الجذري.

(٣٤) Samir Amin, Preface in: Azam Mahjoub, Adjustment or Delinking: The African Experience, Studies in African Political Economy, Zed Books, 1990

(٣٥) يرتد هذا الاستقرار إلى حد كبير إلى تحويل الفائض من المحيط إلى المركز، أي رشوة الطبقات الشعبية في المركز، وقبولها تلك الرشوة على حساب الأمم الأخرى، وهذا يفتح على وجوب نقد انتهازية إطراء المجتمع المدني الذي يقبل بأن يقوم أبناؤه بنهب الأمم الأخرى كي يعيش بشكل مرفه!

لكن أمين يرى أيضاً أن الطبقات الشعبية في المحيط متناقضة مع رأس المال، إلا أن تَفتُّت مصالحها كطبقات شعبية لا يجعل مهمة التصدي سهلة. ويرى أن ما يرتق الفجوة ليس البرجوازية الصغيرة كطبقة مشوشة، ولا الحزب الواحد الذي تولد عبر التحرير؛ بل هو وجود المثقفين الثوريين العضويين كتعبير عن مختلف الطبقات الاجتماعية. ولكن، لمزيد من المفارقة، فإن الطبقة العاملة في المركز مفككة أيضاً[٣٦].

يقع أمين هنا في برزخ التناقض في الدور بين السلطة السياسية للحزب والقوة الثقافية للمثقف الثوري العضوي، وحتى المثقف المشتبك[٣٧] ويفتح على ماهية القوة الثورية المطلوبة لفك الارتباط بل وللإشتراكية (انظر لاحقاً). هل هي الحزب القاعدي، القشرة الثقافية؟ فالمثقف المشتبك هو ميداني طبعاً، ولكنه ليس القوة الشعبية للتغيير. فكيف حين تتم مواجهته عبر الدور الإجهاضي الذي يقوم به الطابور السادس الثقافي؟

## دور الدولة:

في مرحلة ما، يكون فك الارتباط مشروعاً قومياً، وهذا مقبول في مرحلة بناء أمة (na-tion–Building) بارتكازه على: ١- إعطاء أولوية للتصنيع وإنتاج الأساسيات وتوزيع الموارد، ٢- جعل الدولة المحرك الأساس للحياة الاقتصادية. لكن، رغم دور الدولة وامتلاكها القطاع العام إلا أنها إذا ١- بقيت منخرطة في تكنولوجيا أجنبية ٢- وتطبق سياسة أسعار ومداخيل تعمل ضد نمو كفاءة القطاع الزراعي وتقلل من قيمة العمل في الارض و٣- تعتمد سياسة تمويل التصنيع بالاعتماد على الاقتراض الأجنبي، فهي لن تنجز فك الارتباط بل التكيُّف وتبني الحل اللبرالي بتحرير التجارة، أي تدفق رأس المال والسلع وحراكهما المرن وليس حرية حراك العمل، أي حماية المركز وانفتاح المحيط، ورغم ذلك الحلم باللحاق بدل اعتماد سياسة خدمة مقتضيات الاقتصاد المحلي وهذا في الحالة الرسمية منوط بالدولة.

لقد رافق مفهوم فك الارتباط كثير من الخلط منذ التجربة السوفييتية وخاصة الخلط بين التنمية وفك الارتباط. على اعتبار أن التنمية تقود بالضرورة إلى فك الارتباط. فقد رأى المناشفة أن فك الارتباط يغدو مناسباً بحيث يأتي بعد استنزاف المجتمع لمنطق الرأسمالية فالانتقال إلى مرحلة أعلى من الحضارة[٣٨].

والخلط نفسه في الاعتقاد بأن هدف النشاط الاقتصادي هو الاستغلال الكامل للمصادر البشرية والطبيعية، ولذا يعتبرون استخدام المجتمع لهما بمثابة فك ارتباط مع التخلف وعدم التنمية، مع أن هذا درجة أقل من التبعية وبالتالي لا تعني فك الارتباط.

والأمر نفسه فيما يخص الاعتماد على الذات كسياسة تقوم على تحكم البلد بـ ١- المصادر الطبيعية، ٢- تحريك واستخدام الفوائض الاقتصادية الناتج عن استغلال المصادر الطبيعية و ٣- قاعدة تكنولوجية. بينما فك الارتباط يعني: مصادرة رأس المال الاجنبي، تأميم الصناعات والأنشطة التجارية التي في

(٣٦) عادل سمارة، وباء العولمة

(٣٧) المشتبك

(٣٨) ص. ١٠٦، من محجوب

يد الكمبرادور، وكسر روابط التبعية المالية والنقدية والتجارية.

يبقى السؤال، كما سنرى أدناه هو: هل الدولة/ السلطة ناقل موثوق لفك الارتباط والانتقال إلى الاشتراكية؟ هذا ما لم يحسمه أمين.

## قضايا للنقاش:

يأخذك هذا المصطلح فوراً إلى سؤال حاسم: هل مضمون فك الارتباط مضمون طبقي؟ أم مضمون شعبوي وتحديداً قومي؟ أم هو في «الما بين»؟

قد يخدم في التوضيح القول أن فك الارتباط جوهريا ليست وجهته فقط ضد السوق الرأسمالية العالمية، بل هو في جوهره ضد الطبقات التابعة للمركز، وإن كان الصراع معها ليس معلنا وليس نقطة البدء. ورغم أن اتخاذ قرار الفك هذا منوط بالسلطة/ الدولة، إلا أنه يفترض ويتطلب ويقود إلى صراع طبقي مع الطبقات التي تنخرط مصالحها في النظام الرأسمالي العالمي. ومع ذلك يبقى السؤال مشروعا بمعنى: هل يبدأ فك الارتباط قومياً في مرحلة ما، وإن صح ذلك هل يبقى قوميا أم له تحولاته الطبقية؟

## فك الارتباط، السيادة، وحكم الشركات

يبدأ فك الارتباط، حسب أمين، قوميا دولانياً مما يشترط وجود سلطة قومية وتنموية التوجه. وهذا أمر يزداد صعوبة في حقبة العولمة حيث يتم تجاوز السيادة، وخاصة في بلدان المحيط، لصالح «تحرير التجارة الدولية» الذي جوهره حراك رأس المال والمنتجات بحرية مخترقة حدود الدول دون حرية حراك قوة العمل. وحراك رأس المال والسلع يعني حراك الشركات محمية بقرار دولة/ دول المركز.

وعليه، فإن تمييع السيادة الوطنية هو ذهاب في الاتجاه المضاد لفك الارتباط لأنه يتضمن وجود سلطات تابعة ومتخارجة مما ينفي نقطة انطلاق هذه الاستراتيجية.

إذا صح أن حقبة العولمة ابتدأت مع الثلث الأخير من القرن العشرين، وهي حقبة أتت مع، أو أتت بِـ تراجع دور الدولة أو اندغام دورها في دور الشركات، ولكن دون أن تفقد الدولة في المركز سيادتها عولمياً، أي أن فقدان السيادة أمر:

- يتناسب طردياً مع ضعف الدولة
- تبنّي السياسات الليبرالية الجديدة وخاصة الخصخصة
- تفكك الكتلة الاشتراكية
- توسع دوافع الاندماج/ الانخراط في السوق العالمية
- موجة القومية الثالثة.

نجد أن هذه التطورات قد خلقت مناخاً أشد مجافاة لفك الارتباط، لا سيما وأن الدولة وجيشها أصبحا بشكل خاص أداة رأس المال في سلسلة حروب جديدة ضد دول المحيط، وبأن الحرب الباردة قد تحولت إلى حرب ساخنة وخاصة ضد الجمهوريات العربية[٣٩].

(٣٩) أثناء غزو الكويت والعراق، بعد أن حرر العراق الكويت، أرسلت شركات السلاح الأمريكية خبراء ليشهدوا على الأرض على فعالية السلاح الأمريكي. أما من حيث المشاركة في العدوان، فقد شاركت ثلاث وثلاثون دولة بين مشاركة فعلية ورمزية، بينما دفعت اليابان، التي لا ينص دستورها على إرسال جيشها خارج البلاد، ١٨ مليار دولار فرضتها عليها الولايات المتحدة لتغطية نفقات العدوان.

نصل من هذا إلى حالة من التناقض الحاد بين:

- الضرورة القصوى لبلدانٍ لفك الارتباط في هذه المرحلة يقابلها استشراس المركز في العدوان لتثبيت تغوُّل قوانين السوق لصالح مقتضيات المركز الرأسمالي، بل لصالح الشركات التي ينتشر إنتاج قِطَعها على صعيد معولم مما يجعل فك الارتباط عالي الكلفة وخاصة مع التطور التكنولوجي[٤٠].

(٤٠) فيما يخص تشريك قطع الصناعات وخاصة المتطورة، كتب أركادي سافيتسكي مقالاً في موقع «Strategic-culture» بعنوان: «إنّه الاقتصاد أيها الأحمق يفصل فيه القرارات الأمريكية للضغط على صناعات روسية، تهدف الولايات المتحدة من ذلك إلى إعاقة تطوير صناعة الطائرات الروسية التي باتت تجذب العالم وخاصة «MC-21» الفريدة من نوعها في العالم. فالمواد المنتجة روسياً تجعل من الطائرة أخف وزناً وأرخص ثمناً، ولهذا قد يشكل حظر الألياف الكربونية والأغلفة مشكلة لإنهاء المشروع وتطويره، ووزارة الخارجية الأمريكية تعرف ذلك تماماً ولهذا ضربت هنا.

والمحرّك يشكّل مشكلة هو الآخر، فهو الأوّل الذي يبنى في روسيا ١٠٠٪ منذ انهيار الاتحاد السوفييتي والذي سيستبدل المحرّك الذي تستخدمه طائرات «MC-21» حتّى الآن من إنتاج شركة «Pratt & Whitney» الأمريكية. وتكمن نقطة الضعف الروسية في هذا السياق إلكترونيات الطيران «Avionics» المتخلفة. فرغم أنّ التطوير قائم ولكنّه لا يزال ضعيفاً، ولاتزال روسيا تعتمد هنا على الشركات الأمريكية والبريطانية والفرنسية العملاقة. أما مدينة نيوم السعودية المعولمة فتشكل نموذجاً لتشريكٍ لا يمكن فكه، بغض النظر عن تطورات المشروع بعد أزمة تقطيع أوصال الصحفي السعودي خاشقجي.

## فك الارتباط والتراخي والريع:

صحيح أن تفكك كتلة الاشتراكية المحققة نقل الحرب الباردة إلى الساخنة ومنح رأس المال فرصة التوسع جغرافياً من جهة، وطبقيا اجتماعيا اقتصاديا وإيديولوجيا من جهة ثانية. فقد راجت أقاويل نهاية الإيديولوجيا رغم تسوُّد إيديولوجيا السوق، الشكل الحقيقي للتوتاليتارية. ولكن تبعت ذلك أزمة اقتصادية عميقة وممتدة في المركز ومن ثم في العالم ككل منذ عام ٢٠٠٧. ولعل أهم مفاعيل هذه الأزمة هو تراخي قبضة الإمبريالية، لا سيما عجز الولايات المتحدة عن العدوان المباشر بعد خسائرها الاقتصادية والبشرية والمعنوية في العراق إثر احتلاله عام ٢٠٠٣ [٤١]، ولجوؤها إلى أشكال جديدة من الحروب:

- حرب تحالف الثورة المضادة بإنابة إرهاب أنظمة وقوى الدين السياسي عن الإمبريالية والصهيونية.
- الحرب التجارية في عهد ترامب.

(٤١) يعود بقاء سيطرة الولايات المتحدة على العراق بعد السحب المزعوم لجيشها إلى خيانة ائتلاف الطبقة الطائفية الحاكمة في العراق وليس إلى قدرة الولايات المتحدة على البقاء، كما يعود إلى تصنيعها للإرهاب.

وهذه نتاج تحالف غير متوازٍ بين الرأسماليات الغربية في المركز والرأسماليات الكمبرادورية في المحيط وتحريكهما لقوى الإرهاب المعولم ضد الأمم من جهة، وتصيير العالم بمثابة قطاع رأسمالي عام معولم لصالح هذا التحالف الطبقي.

والمألوف عالمياً، أن غياب مركز مهيمن، يفسح المجال لدرجة من فك الارتباط أو الانطلاق، حال اليابان في عهد آل ميجي، كما قاد تراخي قبضة الإمبريالية ما بين الحربين الإمبرياليتين إلى نمو مقبول في المكسيك، تشيلي، البرازيل والارجنتين. وتمكنت بعض البلدان من البدء بتصنيع وتحقيق درجة أولية من فك الارتباط بسبب علاقتها بالإتحاد السوفييتي كحال مصر الناصرية.

كل هذه التجارب تفتح على مسألةٍ أساس وهي أن التنمية بمعناها العام مشروطة بوجود قرار سياسي سيادي للدولة المعنية. وهو شرط سابق على توفر السيولة المالية من حيث الأهمية.

نجد الأمر معكوساً في بلدان الخليج المعتمدة على الريع، بمعنى غياب القرار

السياسي السيادي في التنمية فما بالك بفك الارتباط، هذا على الرغم من توفر السيولة المالية/ الفائض مما حال دون استثمار لحظة التراخي الإمبريالي هذه والتي ترافق معها صعود قطبيات أخرى قللت من فرص الغزو الإمبريالي بشكل عام.

بل ذهبت هذه الأنظمة إلى انخراط أكثر تبعية في النظام العالمي حيث وضعت مختلف مقدراتها في خدمة مقتضيات العدوان الإمبريالي وليس فقط مقتضيات الوضع الاقتصادي الداخلي لبلدان المركز. بكلام آخر، وضعت كل شيء في خدمة الثورة المضادة التي تعمل على صعيد معولم، حيث تم تسخير الريع المتحصل لديها في خدمة منظمات الإرهاب المعولمة (القاعدة، داعش، النصرة، خراسان، بوكو حرام...إلخ) بينما في السعودية مثلا تصل نسبة الفقر إلى أربعين بالمئة والبطالة ١٣ بالمئة.

وترافق مع هذا التورط لبلدان الخليج تأثيرها على بلدان العجز العربية مثل مصر والمغرب. فمنذ بداية حكم أنور السادات تبلور توجه النظام في مصر باتجاه الدين السياسي متحالفا مع قوى الدين السياسي ومع الرأسمالية الطفيلية والكمبرادورية، ما قوَّض الاستقلالية الاقتصادية والسياسية لمصر عبر الانفتاح الاقتصادي ووضع أوراق المنطقة في يد الإمبريالية الأمريكية والكيان الصهيوني. وامتدت هذه السياسة طوال فترة حكم حسني مبارك. ورغم انقلاب عبد الفتاح السيسي على نظام الدين السياسي لمحمد مرسي، إلا أنه حافظ تماما على مسيرة التبعية والقمع والتطبيع مع الكيان الصهيوني التي مارسها السادات، وراوح في التبعية السياسية بين أنظمة الريع، السعودية، والإمارات باتجاهاتها السلفية الوهابية.

## فك الارتباط والموجة القومية الثالثة:

إذا كانت الموجة القومية الأولى في أوروبا القرن التاسع عشر على يد البرجوازية ارتكازاً على الثورة الصناعية، وإن حاولت المركزانية الأوروبية الزعم أن تلك الموجة هي عالمية وليست أوروبية حصراً، والموجة القومية الثانية هي في بلدان المحيط في منتصف القرن العشرين على يد حركات التحرر الوطني، والتي كما أشار محجوب كانت باتجاه فك الارتباط مع النظام الرأسمالي العالمي، فإن موجة القومية الثالثة كتصنيع إمبريالي في حقبة العولمة عبر تحالفها مع تابعتها الرأسمالية الكمبرادورية في المحيط، وبالتالي فهي توسيع جغرافي للتبعية وإضعاف للدولة القومية وتوسع لنظام السوق وخدمة لمقتضيات اقتصاد المراكز على حساب المحيط، وبالطبع في تناقض معيق لفك الارتباط.

نلاحظ هنا جملة مفارقات، ففي حين تعجز الإمبريالية الأمريكية عن شن حروب عسكرية جديدة تشن حروبا بالإنابة وأخرى تجارية. وبدل أن تقوم أنظمة الريع بانتهاز فرصة تراجع القدرة العدوانية الأمريكية خاصة، فإنها تذهب باتجاه تقديم صناديقها السيادية لإنقاذ الاقتصاد الأمريكي ناهيك عن تصدّرها للحرب الإرهابية. وهذا يطرح السؤال الأهم: إن فك الارتباط يقتضي تقويض أنظمة سياسية بأكملها ويؤكد ضرورة الدولة/ السلطة الوطنية والقرار السياسي السيادي.

## بين النظرية والأداة:

تكمن مشكلة أمين في تردده في تحديد حاسم للأداة الثورية التي تلائم أطروحته

الثورية. فالموقف النظري القطعي يقتضي أداة ثورية قطعية وحاسمة للتبلور البنيوي الطبقي والوعي الموقف.

وردت في إحدى أواخر أوراقه فيما يخص فك الارتباط صيغة المشروع السيادي الشعبي[٤٢]: Sovereign Popular Project، إضافة إلى اعتماده الأمة بقوله:

«تبقى الدولة القومية (دولة الأمة) هي فقط إطار التنمية للنضال الحاسم والذي في النهاية يحوِّل العالم»

لذا أنهى ورقته بعدم تحديد أو تسمية الأداة القائدة حيث بقي مكتفياً بـ«المشروع السيادي الشعبي» دونما توضيح للقاعدة الطبقية والأداة الحزبية الطبقية، وهو ما ناقشته في قراءتي لورقة أمين هذه[٤٣]

(٤٢) The Sovereign Popular Project; The Alternative" Published "to Liberal Globalization in Labor and Society in the *Journal of Labor and Society* (Volume 20, Issue 1 March 2017 Pages 7–22, URL: http://onlinelibrary.wiley.com/doi/10.1111/wusa.12276/full

(٤٣) https://kanaanonline.org/en/2017/08/14/amin-bets-on-the-state-for-development-great-goal-but-blunt-tool-by-/adel-samara

والمرتكزة على ما ورد في كتابي «أبعد من فك الارتباط[٤٤]» وأطروحتي في برنامج التنمية بالحماية الشعبية.

صحيح أن المشروع السيادي الشعبي يحمل سمات اقتراب أمين من الماوية، ولكن تجربة الصين نفسها أثبتت أن التحالف، وهو ضروري عموما وخاصة في مشروع فك الارتباط بما هو تحول مجتمعي شامل، إلا أنه يشترط تجاوز إشكالية الحزب الماوي الذي تحول إلى ملجأ لأصحاب الطريق الرأسمالي «طرائقيو رأس المال (Capital-ist Roaders) عبر اندغام الدولة/ الحزب مما استدعى الثورة الثقافية داخل البلد والحزب نفسه مثلا شعار ما «استهدِفوا قيادة الحزب» Target the Headquarter. أضف إلى أن أمين لم يتخلص من ترسبات مدرسة التبعية (Dependency School) الدولانية أي دور الدولة/ السلطة لتجسيد مشروعه حيث حكم/ قيَّد نفسه بمسألة «الدولة القومية» كما أشرنا أعلاه أي لنقل سلطة الدولة، وهو

(٤٤) Beyond De-linking: Development by Popular Projection vs. Development by State, 2005

ما أثبتته تجارب بلدان الاشتراكية المحققة التي تحولت فيها السلطة الحزبية إلى جهاز بيروقراطي (نخبة النومنكلاتورا) التي انتهت إلى قشرة معزولة عن الطبقة والمجتمع فكان تغييرها بمثابة عملية كشط سهلة بغض النظر عن مآلاتها كجزء من الانتصار المهزوم للثورة المضادة.

تقتضي قراءة النظرية والواقع توليد شيء ما جديد يشترط الكثير وخاصة:

- أن تتولد عن هذا التحالف حركة منظمة ميدانية فكرية مقاتلة
- وتوليدها شعبيا يعني خضوعها دائما للقرار الطبقي الشعبي الذي يحدد إطار عملها العام ويحاسبها ضمن دورات زمنية محددة، ويضيف أو يُسقط عضوية بعضها ضمن انتخابات شاملة كما ابتكرت تجربة كميونة باريس.

أختم بالقول إن مسألة الأداة الثورية، طبيعة هذه الأداة هي مسألة جدال لم يصل إلى بلورة معقولة ولو نسبياً. ولعل من أفضل من حاول حلها أو المساهمة فيها الفيلسوف الفرنسي آلان

باديو الذي في كتابه (The Communist Hypothesis) وهو عبارة عن دراسة تناولت كمونة باريس، والثورة الثقافية وثورة ٦٨ الطلابية/ العمالية حيث رفض الحزبية على النمط الستاليني وتجاوز كذلك الحزب بمفهومه اللينيني، وحاول اعتماد موقف ما في تجاوز الحزب وضرب قلعة قيادته معتمدا على الشعب بما في المصطلح من عمومية. وبهذا ترك باديو الحصان بدون الفارس.

أكرر مجدداً أهمية الشرطين أعلاه:

- أن تتولد عن هذا التحالف حركة منظمة ميدانية فكرية مقاتلة
- وتوليدها شعبيا يعني خضوعها دائما للقرار الطبقي الشعبي الذي يحدد إطار عملها العام ويحاسبها ضمن دورات زمنية محددة، ويضيف أو يُسقط عضوية بعضها ضمن انتخابات شاملة (تجربة الكمونة).

وهو ما حاولته في كلٍّ من أطروحتي «التنمية بالحماية الشعبية» ولاحقا كتابي «Beyond Delinking» وقد أتمكن من المساهمة في هذه المسألة المفتوحة في كتابي القادم «هزائم منتصرة وانتصارات مهزومة».

هنا نستدعي سمير أمين مجددا. لا بد من فك الارتباط مع السوق العالمية ورفض مقتضياتها لصالح مقتضيات التطور الذاتي لبلدان المحيط، سواء تجاه الغرب أو الشرق وكلتاهما رأسماليات وإن ببعض الاختلافات. هذا من جهة. ومن جهة ثانية، لا بد من التحول للتبادل مع الكتلة الجديدة المنافسة للغرب الرأسمالي ولكن بحمائية شعبية واضحة من نمط كمبوني أو نمط الانتفاضة الفلسطينية لعام ١٩٨٧ وبدون انخراط تابع. وهنا تحديداً يكون الانتقال من فك الارتباط إلى الاشتراكية هو التأكيد على دور العالم الثالث/ في الثورة في هذه المرحلة حيث تقويض النظام الرأسمالي العالمي من أطرافه وصولا إلى المركز. وهنا أيضاً يمكن للتناقض أن يكون مع روسيا والصين أيضاً سواء تفوقتا على الغرب الرأسمالي أم لا.

قد يُقال أن الصين وحتى روسيا الحاليتين ذاهبتان باتجاه تجاوز الرأسمالية إلى الاشتراكية، وهناك من يقول أنهما منذ الآن إمبرياليتان. هذا ما يحسمه:

- الصراع الاجتماعي الطبقي فيهما بمعنى: هل يتم الاكتفاء بالحلول محل المركز القائم، أي هزيمته بالانخراط، أم تتمكن القوى الثورية والطبقات الشعبية من الوصول للسلطة ومواصلة فك الارتباط وصولا إلى الاشتراكية.
- ومدى ثورية تجارب فك الارتباط في المحيط.

سيد البدري يكتب:

# ميل معدل الربح للهبوط وتأثيره على طبيعة إمبريالية عصر العولمة (I)

## مقدمة:

### نهاية الأيدلوجية الليبرالية الكلاسيكية

مثّل الخطاب الأيديولوجي للرأسمالية دائما انعكاسا لمتطلبات قاعدتها المادية، كما بيّن ماركس: «تقوم بين الناس، في الإنتاج الاجتماعي لحياتهم، صلات معينة ضرورية مستقلة عن إرادتهم، وهي علاقات إنتاج تقابل درجة معينة من درجات نمو قواهم الإنتاجية المادية، ويؤلف مجموع هذه العلاقات الإنتاجية البنية الاقتصادية للمجتمع، وهي القاعدة المشخصة التي تقوم فوقها بنية حقوقية وسياسية، والتي تقابلها أشكال معينة من الوعي الاجتماعي[٢]».

(٢) كارل ماركس إسهام في نقد الاقتصاد السياسي، ترجمة أنطون حمصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٧٠ -1

تُجَسِّد عناصر تلك البنية معا، بما تشمله من قوانين وأشكال حكم وفن ومفاهيم فلسفية ومؤسسات تنظم عملها؛ تُجَسِّدُ الإيدلوجية السائدة، المعبرة عن حالة تطور القاعدة المادية للإنتاج ودرجة تطور الصراع والوعي الطبقيين، سواء على الصعيدين القومي أو العالمي. بدايةً من «الليبرالية» التي جسدت أيدلوجية الرأسمالية فترة المنافسة الحرة، وانتهاء بـ«الليبرالية الجديدة» المعبرة عن أيدلوجية إمبريالية عصرنا، تغير الخطاب الأيديولوجي وتغيرت معه أدواته المهيمنة. فمن شعار «دعه يعمل دعه يمر» الذي استخدم لتقويض أهم قلاع الإقطاع الأوروبية، إلى شعار «الديمقراطية وحقوق الإنسان» الذي مثل رأس حربة المراكز الرأسمالية ضد ما عرف في حينه بمجموعة الدول «الاشتراكية» وانتهاء بـ«ديمقراطية المحاصصة العرقية والحكم الرشيد» المعبرة عن أيدلوجية الليبرالية الجديدة (الموصوفة لدول الأطراف)، واقتصاد السوق المعولم. وبالتبعية تطورت آليات الهيمنة التي كانت مقتصرة على جهاز الدولة القومية، والذي شكل في مرحلة سابقة وما زال، آلية ضمان التراكم لرأس المال في دول المراكز؛ لتشمل في الوقت الرَّاهِن المنظمات الدولية المالية والسياسية الحاكمة لكوكبنا، وكلٌّ من النموذجين ما زالا يعملان معا، تارة على مستوى الإمبريالية القومية المنفردة، وتارة أخرى على الصعيد العالمي «الإمبريالية المشتركة».

تميز هذا التطور في أيدلوجية الرأسمالية بطابعه الجدلي المعقد، والذي جعل قضية استكناه حقيقته ممتنعه لدى قطاع واسع من جمهور اليسار، طالما تعثر هؤلاء في فهم أسس التطور للرأسمالية الاحتكارية، وتوقف غالبيتهم عند مساهمة لينين الهامة في «الإمبريالية أعلى مراحل الرأسمالية» وتحويل مفاهيمها لمحاور جامدة -وهي مساهمة عظيمة شكلت في زمانها، وما تزال، ماركسية مشتبكة عضويا أمكنها تفسير تطور رأسمالية عصر لينين، التي أسست لفهم تطور إمبريالية العصر الحالي- الأمر الذي حول معه الماركسية السائدة من نظرية جدلية ثورية لتفسير الواقع وسبر غوره والكفاح من أجل تغييره، إلى أيدلوجية جامدة أستاتيكية الطابع. ليس هذا فحسب، بل إن قطاعاً منهم تبنى الخطاب الدعائي للإمبريالية المُختطِف لمفاهيم الحريات والديمقراطية، الشهير بـ«الخطاب الحقوقي»، عوضاً عن الخطاب التوعوي للتحرر الوطني والطبقي. وهنا يقول سمير أمين: «وهكذا حقق الخطاب الديمقراطي الجديد ثماره، ليس فقط من جانب اليسار الديمقراطي (الاشتراكيين على الطراز الأوروبي)، ولكن أيضا من جانب الأكثر راديكالية مثل الشيوعيين، وبانضمام الشيوعيين الأوروبيين صار التوافق عاما.»[٢] والتوافق هنا بعبارة مباشرة هو «التنازل» عن النظرية الماركسية بوصفها المرشد للوعي الثوري في ميدان النظرية، أما في ميدان الممارسة فقد التحقت غالبية اليسار العربي بعرابه من يسار المراكز الرأسمالية الأوروبية المنسحبين من المُواجهة مع رأسمالية بلدانهم.

(٢) الشروط التي تضمن الرد الفعال من الجنوب، سمير أمين، مقال، موقع الحوار المتمدن، ٩/٨/٢٠١١

إن فحوى الخطاب الأيديولوجي للرأسمالية يتغير بالدرجة التي تُضْفِي علَيْهَا مظهرها (الطبيعي) الزائف، ويخفي في الوقت عينه آلية السلب، ليس فقط لفوائض القيمة والثروات التي تنزح من أطراف العالم، بل وحتى للمفاهيم الإنسانية العامة، لكي تكتمل بذلك حلقة الاغتراب لكل المستلبين شعوبا وطبقات.

## طور جديد، وآليات جديدة

يبدو أننا أمام بداية تشكل طور جديد من أطوار الإمبريالية في القرن الحادي والعشرين، والتطورات المتلاحقة تؤكد يوما بعد يوم أن رأسمالية الاحتكارات المُعولمة تستنفذ طاقة استراتيجيتها السابقة المتبعة منذ منتصف القرن العشرين، والتي اعتمدت على آليات عدة، تباينت خلال فترتين مختلفتين لتقسيم العمل الدولي:

الفترة الأولى منذ بداية الخمسينيات وحتى بداية التسعينيات، واكبت سقوط الدول «الاشتراكية»، تلك الفترة التي شهدت صعود حركات التحرر الوطني في كل بقاع العالم الثالث، وانتصار الاشتراكية في الصين وتشكُّل كتلة الدول الاشتراكية بقيادة الاتحاد السوفيتي. وكان على الإمبريالية التنازل مرحليا لضغوط حركات التحرر الوطني ورغبتها في التصنيع، وفي مقدمتها الدول التي شكلت قاعدة للحركة بعد الحرب العالمية الثانية، وتلك التي حازت على استقلالية نسبية، كما كان عليها إدماجها في تقسيم عمل دولي يضمن بقاء أسس الاقتصاد الرأسمالي من ناحية، وإضعاف ميول الهبوط لمعدلات الربح. لذلك تمكنت الطبقات الشعبية في تلك البلدان من التمتع ببعض المكتسبات المقتطعة من عملية النزح الإمبريالي، من خلال توفير وتحسين فرص وشروط العمل، وهو ما عرف بسياسة إحلال الواردات الموصوفة من قبل هيئة المعونة الفنية والاقتصادية الأمريكية التي اشتهرت باسم النقطة الرابعة. وهنا «يتبدى المغزى الكامل من وراء ترويج الولايات المتحدة لهذه المشاريع، إذا تذكرنا أن هيئة النقطة الرابعة أسميت كذلك باعتبارها المسألة رقم ٤ الخاصة باحتواء حركة التحرر الوطني وإلحاحها على التصنيع ضمن الاستراتيجية الأمريكية لاحتواء الثورة العالمية وفرض الهيمنة الأمريكية على العالم الرأسمالي بأسره. وهي الاستراتيجية التي أعلنها الرئيس الأمريكي هاري ترومان في ١٢ مارس سنة ١٩٤٧ والتي عرفت باسم مذهب ترومان ...».[٣]

يمكننا اعتبار تلك الاستراتيجية حينها بدايةً لمرحلة ومفهوم جديدين لتقسيم العمل الدولي، يختلف عن سابقه المنتهي بنهاية الحرب العالمية الثانية، والتي استُهلت بمشروع مارشال الذي حول أوروبا، واليابان لاحقا، إلى مراكز رأسمالية متحكم بها ضمن تراتبية احتكارية تهيمن عليها الولايات المتحدة الأمريكية. وتحت ضغط انتصار الاشتراكية في روسيا والصين وبزوغ ما عرف وقتها بـ«دول الكتلة الاشتراكية» وخشيةً من تطور ثورات التحرر الوطني، اضطرت الإمبريالية الجديدة لتقديم ما يمكن توصيفه بـ«الاحتواء» الذي من شأنه إبقاء بلدان الأطراف

(٣) الاشتراكية في السياسة والتاريخ خرافة الطريق الثالث، عيداروس القصير، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٢ – ص ١٦٢ -١٦٣

خاضعة للهيمنة الاحتكارية وضمن تقسيم العمل الدولي الجديد.

أما الاتجاه الثاني الممكن فهو تخصيص «العالم الثالث» بالإنتاج الصناعي «الكلاسيكي» (بما فيه إنتاج معدات التجهيز) مع احتفاظ المركز بالنشاطات الفائقة التحديث (الأتمتة، الإلكترونيك، غزو الفضاء، الذرّة). والحق أن عصرنا هو عصر ثورة علمية وتقنية خارقة، فيكون من شأن البلدان المتخلفة أن تتخصص، والحالة هذه، في إنتاجات كلاسيكية لا تتطلب إلا عملاً بسيطاً، بما فيها الإنتاجات الثقيلة الكلاسيكية (التعدين، الكيمياء الخ).»[٤] لقد تعلمت الرأسمالية من دروس أزمتها في ثلاثينيات القرن الماضي وتنبهت لخطر صعود الاشتراكية وانتصارها في بلدان مهمة، فما الذي يتبقى من العالم وثرواته من المواد الخام وأسواقه في حال انتصار الاشتراكية في بلدان حركة التحرر الوطني؟

الفترة الثانية كانت بداية من تسعينيات القرن الماضي وهي تلفظ أنفاسها الآن، وكانت وسيلة لتفادي تراكب كلٍّ من الأزمة المالية والهيكلية والتي حملت في طياتها تناقضين: طفرة كبرى في التطور العلمي والتقني انعكست بدورها على بنية وسائل الإنتاج وزيادة مكون العمل الميت المختزن فيها من ناحية، وزيادة نسب البطالة والتغير في طبيعة كتلة العمل وارتفاع معدلات التضخم، من ناحية أخرى؛ هذا التناقض الحاكم سببه ارتفاع نسبة رأس المال الثابت على حساب رأس المال المتغير، في معادلة المركب العضوي لرأس المال، الأمر الذي أدى لهبوط معدل الأرباح الرأسمالية.

لم تعد أساليب المسكنات المتمثلة في إطلاق حركة رؤوس الأموال العابرة للأسواق العالمية المالية، بهدف اصطياد الأرباح عبر المضاربات في الأوراق المالية والعملات، وتتبع آثار تنفيذ تعليمات البنك والصندوق الدوليين واستثمارها؛ لم تعد هذه الأساليب كافية لعلاج آثار الأزمة الهيكلية ولا غيرها من حُزم سياسات التكيف الهيكلي لدول الأطراف. لقد كانت كلها إجراءات وقتية عابرة تحت ضغط الأزمات الدورية المتتابعة، وتطور/ احتدام التناقضات الأساسية للرأسمالية تطوراً استحال معه بقاء الاستراتيجية المتبعة لتنظيم تراكم رأس المال، ومنها وسائل الهيمنة على قوة العمل، والسيطرة على الصراع الطبقي في مراكز النظام والعالم، بالإضافة لخروج تقسيم العمل الدولي السائد عن محدداته التي وضعت بعد الحرب العالمية الثانية. لجأت رأسمالية الاحتكارات المعولمة إلى الخيار الأصعب لها على الصعيد الداخلي للمراكز الإمبريالية، وضمن نفس الاستراتيجية السالفة الذكر، ألا وهو الإطاحة بدولة الرفاه. واتخذت وبدرجات متفاوتة تبعا لأوضاع المراكز، إجراءات متتابعة أنهت ميزات الرعاية الاجتماعية، التي جسدت في مرحلة سابقة أحد أهم أدواتها، والحل التاريخي لمنع وحدة الطبقة العاملة في العالم، والذي أخرج لعقود طويلة -إلى جانب عوامل أخرى- وما يزال، أُجراء وعمال المراكز

(٤) سمير أمين -التراكم على الصعيد العالمي- نقد نظرية التخلف، ترجمة حسن فبيصي، الطبعة الثانية، دار ابن خلدون، صفحة ١٣٤-١٣٥

من الحلف المعادي للإمبريالية. واضطر المركز الأمريكي المهيمن على صيغة الإمبريالية المُعولمة إلى تطوير استراتيجيتها الجديدة، وذلك بفرض تراتبية جديدة لتقسيم العمل الدولي، نقلت بموجبها كل الصناعات كثيفة العمل الحي لأطراف النظام، ونقلت معها الصناعات التي كانت تحتكرها قبل «النقلة التقنية الرابعة» وهي صناعات متقدمة بمفهوم نهايات القرن العشرين. واختيرت الصين، ولأسباب عدة لا يتسع الموضع لمناقشتها، لتكون المصنع الكبير للعالم، مع احتفاظها هي والمراكز الشريكة بالتقنيات الأكثر تطورا، في نفس الوقت الذي تم فيه إضعاف اليابان لحساب مراكز أخرى لتتراجع في تراتبية المراكز. وذلك يأتي في ظل محاولة المركز المهيمن تدوير التراتبية بشكل يجعله يحافظ على بقاء هيمنته في صيغة الإمبريالية المشتركة «العولمة».

«وعندما نقول: إن نظامًا يعطي أولوية لمثل هذا التراكم غير المتناهي، فهذا يعني وجود آليات بنيوية تضع العراقيل بطريقة ما أمام أولئك الذين يعملون بدوافع أخرى، وصولاً إلى عزلهم من المشهد»[٥]، وهذا ما سنجده لاحقا ونعايشه الآن حيث يمثل احتجاز التطور التقني مسألة متكررة في استراتيجيات إحكام الهيمنة على العالم، استخدمت من قبل الرأسمالية المُعولمة في المراحل المختلفة من تطورها وصراعها مع الأطراف.

(٥) - إيمانويل وولرشتاين، تحليل النظم الدولية، ترجمة أكرم على حمدان، ٤٤ ٥

## تغير طبيعة العوامل المضادة لميل معدل الربح للهبوط

اعتبر ماركس أن قانون ميل معدل الربح للهبوط هو أهم قانون في الاقتصاد السياسي الحديث وأهمها حسب وصفه لفهم أصعب العلاقات. والواقع أن التناول الماركسي الأورو – مركزي الذي سيطر على وعي أغلب الماركسيين العرب قد حال بينهم وبين إنزال هذا القانون المنزلة التي وضعه فيها ماركس، سواء في الجزء الثالث من رأس المال، أو حتى في الجزء الأخير من الجروندريس، فماركسيو أوروبا لم يشعروا بتأثير ميول الهبوط، نظرا لأن العوامل المضادة لكبح جماح الهبوط كانت تتموضع في مكان آخر غير عالم المراكز الأوروبية، وعلى وجه التحديد كانت تفعل فعلها في أطراف النظام حيث يعيش الماركسيون العرب في جزء منه، وهذا ما سوف أحاول أن أبينه في هذا الموضع.

أشار ماركس في الجزء الثالث من كتابه رأس المال، إلى وجود خمسة عوامل مضادة أساسية، وعامل سادس ثانوي «ازدياد رأس المال المساهم» اكتفى ماركس في حينه بإضافته دون بحثه تفصيلا، وهذه العوامل من شأنها إضعاف تأثير ميل معدل الأرباح للهبوط وهي:

١- رفع درجة استغلال العمل.

٢- خفض الأجور دون قيمة العمل.

٣- رخص عناصر رأس المال الثابت.

٤- فيض السكان.

٥- التجارة الخارجية.

٦- ازدياد رأس المال المساهم.

وبغض النظر عن كون رصد ماركس للعوامل المضادة قد خضع لحقائق وطبيعة رأسمالية عصر المنافسة الحرة، إلا أنها جميعا كانت من الدقة بمكان، بحيث يمكن اعتبارها صالحة إجمالا لتفسير وفهم أسباب انخفاض تأثير قانون «ميل معدل الربح للهبوط».

فما الذي تغير إذا؟

في اعتقادي أن التغير حدث في طبيعة العوامل المضادة ذاتها نتيجة لتطور الرأسمالية من رأسمالية عصر المنافسة الحرة، إلى رأسمالية احتكارية ذات طبيعة إمبريالية، وصولاً للعولمة الإمبريالية، الأمر الذي أدى إلى الحقيقة التالية: أنه بدون فهم قانون ميل معدل الربح للانخفاض، في علاقته بتبدل طبيعة العوامل المضادة، سيستحيل على الكثيرين فهم طبيعة إمبريالية العصر الراهن، كذلك سوف يستغلق عليهم فهم تناقضاتها الرئيسية والثانوية.

## ١- رفع درجة استغلال العمل - خفض الأجور دون قيمة العمل.

اعتبر ماركس أن رفع درجة استغلال العمل يرتكز على عدة عوامل أهمها: إطالة يوم العمل وزيادة شدة العمل «غير أن تمديد يوم العمل، هذا الاختراع الذي ابتدعته الصناعة الحديثة، هو الذي يزيد، على الأخص، من كتلة العمل الفائض المستولي عليه من دون أن يغير جوهريا في التناسب بين قوة العمل المستخدمة وما تحركه من رأسمال ثابت، بل يؤدي في الواقع بالأحرى إلى تقليص نسبي لرأس المال الثابت هذا.

.....وهذا ما يؤلف السر الحقيقي لميل معدل الربح للهبوط -ترتكز أساليب إنتاج فائض القيمة النسبي، عموما على ما يلي: تحويل أكبر قدر ممكن من كتلة العمل إلى فائض قيمة «[٦] . وإذا أخذنا في الاعتبار أن نضالات الطبقة العاملة في بلدان المركز ومنذ بدايات القرن المنصرم، قد انتزعت بجانب عوامل أخرى مساعدة شروطاً أفضل للعمل مقارنة بزمن دراسة ماركس لواقع رأسمالية منتصف القرن التاسع عشر، منها تقليص يوم العمل لمتوسط ثمان ساعات، وتقليص عمالة الأطفال، ومساواة أجور النساء، واضطرار رأسمالية المراكز الإمبريالية لاعتماد «دولة الرعاية الاجتماعية»؛ لأدركنا أن تمديد يوم العمل كف عن كونه عاملا مضادا لميول الهبوط في معدلات الأرباح في دول المراكز، وبعبارة أخرى تقلص استقطاع فائض القيمة المطلق في بلدان المراكز .

ولم يتبقَّ من متغيرات رفع درجة استغلال العمل غير زيادة شدة

(٦) كارل ماركس، رأس المال، المجلد الثالث، الفصل الرابع عشر عوامل مضادة، ترجمة فالح عبد الجبار ص٢٧٧

العمل من أجل تعظيم فائض القيمة النسبي، والعامل الحاسم فيها هو استخدام آلات أسرع ذات تقنيات أعلى ترفع من نسبة رأس المال الثابت إلى رأس المال المتغير «. وهناك لحظات كثيرة مشددة للعمل، تنطوي على زيادة لرأس المال الثابت قياسا إلى رأس المال المتغير، فتنطوي بالتالي على هبوط معدل الربح»[٧]. ومن هنا نفهم ظهور مفاهيم الحوكمة والتنمية البشرية كمفاهيم جديدة ضمن أيدلوجية الليبرالية الجديدة من أجل اعتصار فائض القيمة النسبي، ونفهم أيضا محاولات إعادة إحياء مفاهيم ريكاردو التي أودعها ماركس مقبرة التاريخ. وهنا يجب التنبه أنه «لم يستخدم ماركس مصطلح «إنتاجية العمل» مرادفاً لمصطلح «قوة العمل»، كما يفترض البعض، بل إنه ميز بينهما وبشكل علمي في مبحث «تغيرات الحجم في ثمن قوة العمل وفائض القيمة» من «كتاب رأس المال»، ولا يمكننا معرفة «مفهوم إنتاجية العمل» إلا في علاقته بمفهوم آخر، وهو «حدة العمل»، ومن الممكن إجمالا وضعهما في الصيغة الرياضية التالية:

١- حدة العمل العادية (قدرة) = كمية العمل / الزمن.

٢- إنتاجية العمل = حدة العمل (قدرة)/ عدد المنتجات.

وماركس، في شرحه ونقده لريكاردو، ناقش ثلاث متغيرات (طول يوم العمل، حدة العمل، إنتاجية العمل)، وهنا أفترض حالات التغير والثبات للمتغيرات الثلاثة وشرح أربع احتمالات من جملة ثمانية، وهي مجمل الاحتمالات التي تأخذها ثلاث متغيرات، إذا تراوحت حالتها بين التغير والثبات ٢^٣=٨، ولأنه افترض في حالتين من الحالات الأربع التي ناقشها ثبات يوم العمل، أي استبعاد زمن العمل (استبعاد تأثيره) فيمكن هنا، وهنا فقط، اعتبار حدة العمل قوة وليست قدرة.....»[٨].

وهنا أستطيع القول أن استقطاع القيمة اتخذ مستويين مختلفين: الأول في بلدان المراكز وهو استحواذ استقطاع فائض القيمة النسبي على النصيب الأكبر في معادلة فائض القيمة حيث تظهر حدة العمل كقوة، والثاني في بلدان الأطراف حيث يتراكب شكلا الاستقطاع معا بحيث يشكل استقطاع فائض القيمة المطلق النسبة الأكبر في معادلة القيمة، حيث تظهر حدة العمل على شكل قدرة، ومجموعهما معا يشكلان متوسط استقطاع فائض القيمة على المستوى العالمي. ولما تقدم فلم يعر ماركسيو الأورو- مركزية قانون ميل معدل الربح للهبوط أدنى اهتمام ووقع الكثيرون منهم أسرى الأيدلوجية الليبرالية، اعتقادا منهم بأن هذا القانون أبطله التطور التقني. فهم يرون ازدهار الرأسمالية في بلدانهم وتمتعهم بمزايا دولة الرعاية الاجتماعية أو بقاياها الحالية، ولم يرَ هؤلاء أبدا أن التراكم على الصعيد العالمي يتركز في بلدانهم.

إذاً، فنحن بصدد واقع يقول إن الرأسمالية انتقلت من مرحلة تقسيم

(٧) كارل ماركس، المصدر السابق، ص ٢٧٦

(٨) إنتاجية العمل، سيد البدري، صحيفة ميسلون، ٢٥ نوفمبر، ٢٠١٥

العمل المصنعي الضيق إلى مرحلة تقسيم العمل الدولي الأوسع، في إطار مرحلة العولمة، والتي تتسم بانتزاع فائض قيمة نسبي في المراكز، وفائض قيمة أعظم في الأطراف حيث درجة استغلال العمل تتضمن انخفاضاً لشروط العمل، من حيث طول يوم العمل وانخفاض رأس المال الثابت بالنسبة لرأس المال المتغير. «مثال للعوامل التي تبطئ من ميل معدل الربح للهبوط لسلعة تشترك في إنتاجها صناعات عدة يحتفظ المركز بالإنتاج ذي الطابع المتفوق تكنولوجياً والذي يتميز بعظم الرأسمال الثابت نسبة للرأسمال المتغير (العمل الحي) في المركز وينتج باقي السلعة في أكثر من بلد ....ومع ذلك فرغم أن قيمة ساعة العمل واحدة على مستوى الرأسمالية المعلومة، إلا أنها تحصل على أجور متفاوتة بشكل شاسع. ولا شك أن هناك تفاوتاً في أسعار ساعة العمل في داخل دول المركز الرأسمالية، ولكن هذا التفاوت يتضاعف لعشرة أمثاله على المستوى العالمي»[٩]. وعليه، فإنه فضلاً عن كون عملية استغلال العمل تتم بشكل غير متساوٍ على الصعيد العالمي، وهو ما يؤكد ما ذهب إليه ماركس في العامل الثاني «خفض الأجور دون قيمة العمل»، ولكنه مرة أخرى يتم في الأطراف وليس في مراكز النظام، الأمر الذي يعني عدم التساوي في معدلات فائض القيمة بين المركز والأطراف، إلا أن متوسط معدل الربح يحافظ على ثباته النسبي، وهو يعني بشكل مباشر تعويض هبوط معدل الربح في المراكز، وزيادة تراكم رأس المال في ذات المراكز.

(٩) سمير أمين- قانون القيمة المعولم، ترجمة سعد الطويل، المركز القومي للترجمة، الطبعة الاولى،٢٠١٢، ص٨٦

### ٣- رخص عناصر رأس المال الثابت.

مرة أخرى تتأكد دقة رؤية ماركس فيما يخص انخفاض تكلفة عناصر رأس المال الثابت، بالنسبة لحجم نمو النطاق المادي الإنتاجي للآلات الأحدث ذات الإنتاجية الأعلى. وعلى سبيل المثال، ماكينة إنتاج الشرائح الإلكترونية الأعلى من ١٢ نانو ميتر، والتي تنتج في هولندا بتقنيات الأشعة فوق البنفسجية، يبلغ ثمنها ١٧٥ مليون دولار، في حين أن الماكينة تنتج عدداً من المنتجات السنوية يتخطى قيمتها وقيمة الإنشاءات الخاصة بمسابك أشباه الموصلات المرتفعة الثمن في ذاتها، وهذه الآلة تستهلك/ تفقد قيمتها ليس بعامل الإهلاك فقط، بل نتيجة استحداث آلات بتقنيات أقل من ١٢ نانوميتر أيضا. «وباختصار، فإن التطور ذاته الذي يؤدي إلى زيادة كتلة رأس المال الثابت قياساً إلى رأس المال المتغير، يؤدي إلى خفض قيمة عناصره نتيجة لتزايد قدرة إنتاجية العمل، فيمنع بالتالي قيمة رأس المال الثابت، رغم نموها المطرد، من التزايد بنفس تزايد النطاق المادي لرأس المال الأساسي، أي النطاق المادي لوسائل الإنتاج التي يحركها المقدار ذاته من قوة العمل»[١٠]

(١٠) كارل ماركس، رأس المال، المجلد الثالث، الفصل الرابع عشر عوامل مضادة، ترجمة فالح عبد الجبار ص 280

جدول (١) معدل الربح في بلدان المركز الرأسمالي، بمتوسط خمس سنوات في الفترة من ١٩٥٠:٢٠٠٩[١١]

| السنوات | دول المراكز الرأسمالية | ألمانيا | أمريكا | هولندا | اليابان | بريطانيا | السويد |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 1950-54 | 22,3% | 26,7% | 20,9% | 25,0% | | 16,3% | 22,5% |
| 1955-59 | 22,0% | 26,8% | 18,6% | 22,1% | 33,0% | 13,9% | 17,6% |
| 1960-64 | 21,3% | 22,2% | 20,2% | 19,1% | 40,4% | 12,2% | 13,8% |
| 1965-69 | 19,6 | 18,6% | 22,2% | 16,5% | 39,4% | 9,6% | 11,4% |
| 970-74 | 15,9% | 15,7% | 18,4% | 14,8% | 28,3% | 7,6% | 10,4% |
| 975-79 | 12,3% | 13,4% | 16,9% | 12,7% | 19,0% | 4,6% | 6,9% |
| 1980-84 | 11,5% | 11,6% | 14,3% | 14,0% | 17,1% | 3,9% | 7,8% |
| 1985-89 | 13,1% | 13,1% | 16,6% | 15,7% | 17,4% | 6,1% | 9,7% |
| 990-94 | 12,6% | 14,3% | 17,8% | 14,8% | 14,1% | 5,3% | 9,4% |
| 1995-99 | 13,9% | 14,8% | 19,2% | 15,4 | 11,0% | 8,3% | 14,5% |
| 2000-04 | 12,9% | 14,9% | 18,0% | 14,3% | 10,2% | 7,5% | 12,2% |

(١١) world development report 2011/2012-

| | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|
| 2005-09 | 13,4% | 17,0% | 18,2% | 15,1% | 9,2% | 7,3% | 13,8% |

جدول (٢) معدل الربح في بلدان الأطراف الرأسمالية، بمتوسط خمس سنوات في الفترة من ١٩٥٠:٢٠٠٩ (١٢)

| السنوات | دول خارج المراكز | أستراليا | البرازيل | تشيلي | الصين | كوريا | إسبانيا | المكسيك |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ١٩٥٠-٥٤ | | | | | | | ٤٥,٤٪ | ٤٦,٧٪ |
| ١٩٥٥-٥٩ | ٤٢,٣٪ | | ٤٣,١٪ | | | ٣٦,٢٪ | ٤٥,٢٪ | ٤٠,٥٪ |
| ١٩٦٠-٦٤ | ٣٩,٩٪ | ٣١,٣٪ | ٣٧,٤٪ | ٣٥,٧٪ | | ٤٧,٧٪ | ٤٠,٢٪ | ٤٠,٧٪ |
| ١٩٦٥-٦٩ | ٣٨,٦٪ | ٢٦,٥٪ | ٣٧,٠٪ | ٣٦,١٪ | | ٥٥,١٪ | ٣٤,٦٪ | ٤٠,١ |
| ١٩٧٠-٧٤ | ٣٧,٥٪ | ٢٣,٦٪ | ٤٢,٨٪ | ٢٩,٧٪ | | ٥٥,٠٪ | ٣٢,٩٪ | ٣٨,٦٪ |
| ١٩٧٥-٧٩ | ٣٢,٦٪ | ١٧,٩٪ | ٣٦,٢٪ | ٢٣,٤٪ | ٢٩,٧٪ | ٦١,٥٪ | ٢٥,١٪ | ٣٢,٤٪ |
| ١٩٨٠-٨٤ | ٢٦,٥٪ | ١٧,٦٪ | ٢٢,٣٪ | ٢٦,٨٪ | ٣٠,٣٪ | ٣٠,٥٪ | ٢٤,٩٪ | ٣١,٥٪ |
| ١٩٨٥-٨٩ | ٢٦,٥٪ | ١٨,٤٪ | ١٥,٥٪ | ٢٨,٣٪ | ٣٣,١٪ | ٣١,٤٪ | ٣١,٢٪ | ٢٦,٢٪ |

(١٢) international labour office –٢٠١١ World employment report

| | | | | | | | | |
|---|---|---|---|---|---|---|---|---|
| ١٩٩٠-٩٤ | ٪٢٦,٧ | ٪٢٠,١ | ٪١٤,٧ | ٪٣١,٩ | ٪٣١,٤ | ٪٣٠,٢ | ٪٢٦,٥ | ٪٢٩,٥ |
| ١٩٩٥-٩٩ | ٪٢٦,٣ | ٪٢١,٧ | ٪٢٣,٥ | ٪٢٩,٢ | ٪٢٧,٤ | ٪١٨,٠ | ٪٢٨,١ | ٪٢٧,٦ |
| ٢٠٠٠-٠٤ | ٪٢٤,٨ | ٪٢٣,٤ | ٪٢٢,٣ | ٪٢٤,٧ | ٪٢٥,٦ | ٪١٢,٣ | ٪٢٩,١ | ٪٢٨,٦ |
| ٢٠٠٥-٠٩ | ٪٢٤,٨ | ٪٢٤,٠ | ٪٢٢,٧ | ٪٣٠,٣ | ٪٢٦,٢ | ٪٦,٨ | ٪٢٦,٠ | ٪٢٨,٤ |

## ٤- فيض السكان.

افترض ماركس، في تناوله للعوامل المضادة في المجلد الثالث لرأس المال، أن ثمة تلازماً في زيادة النمو السكاني المطرد، مع تعاظم وتطور إنتاجية العمل بقوله «ويتجلى فيض السكان النسبي، في بلد من البلدان بدرجة أكبر كلما كان نمط الإنتاج الرأسمالي فيه أكثر تطورا». وحقيقة الأمر، مرة أخرى، أن هذا الاستقصاء كان دقيقا في زمان رأسمالية عصر المنافسة الحرة. ففي أعقاب الحرب العالمية الثانية في منتصف القرن الماضي، اتخذت ملاحظة ماركس شكلا معكوسا، وتلازم انخفاض معدلات الخصوبة مع ارتفاع معدلات إنتاجية العمل في المراكز الرأسمالية، للدرجة التي تجعلنا نقول أن تركز التراكم في المراكز الرأسمالية الكبرى لازمه انخفاض/ انكماش في معدلات الخصوبة، لدرجة تهدد تجدد نمو كتلة العمل داخل المراكز. وما زالت المراكز الرأسمالية الكبرى تحافظ على هذا المعدل المنخفض للنمو السكاني والمرشح للتحول لانكماش، كما في حالة كل من اليابان وإيطاليا وفرنسا وألمانيا، في الوقت الذي توضع فيه أشد القيود على حركة الهجرة إليها. ونحن نجد أنه رغم ارتفاع إنتاجية العمل في معظم المراكز الرأسمالية الكبرى، إلا أن كتلة العمل داخلها تتقلص بفعل استراتيجية تقسيم العمل الدولي الإمبريالية (حرية رأس المال في الحركة مقابل تموضع العمل في الأطراف). ووفقا لبيانات هيئة الرعاية الصحية الأمريكية[٢] عام ٢٠١٧، شكل عمال الصناعة والإنتاج السلعي والتكنولوجي نسبة أقل من ٧٪ من إجمالي عدد الأجراء في المركز الرأسمالي الأمريكي، وشكل عمال الخدمات النسبة الأعظم من إجمالي عدد الأجراء، في الوقت الذي لم تشهد فيه الولايات المتحدة اتجاها لنمو السكان، بل ظلت نسبة الخصوبة في حدود أقل من حدود نسبة الإحلال. وهذا يقودنا إلى أن ملاحظة ماركس ارتبطت باستقصاء محدد في زمان ومكان محددين، غيّر التطور الرأسمالي من طبيعتها ومكان حدوثها، ولكنه لم يغير من صحتها بل أكدها وفقا لمفهوم «فائض القيمة المعولم»، ويقودنا كذلك لملاحظة تلازم الانخفاض في عدد السكان داخل دول الظاهرة الإمبريالية.

١٣- المصدر السابق.

١٤- https://www.nytimes.com/2013/12/22/sunday-review/health-cares-

## الرسم البياني لمعدلات نمو السكان والخصوبة في دول المراكز الرأسمالية السبع[١٣]

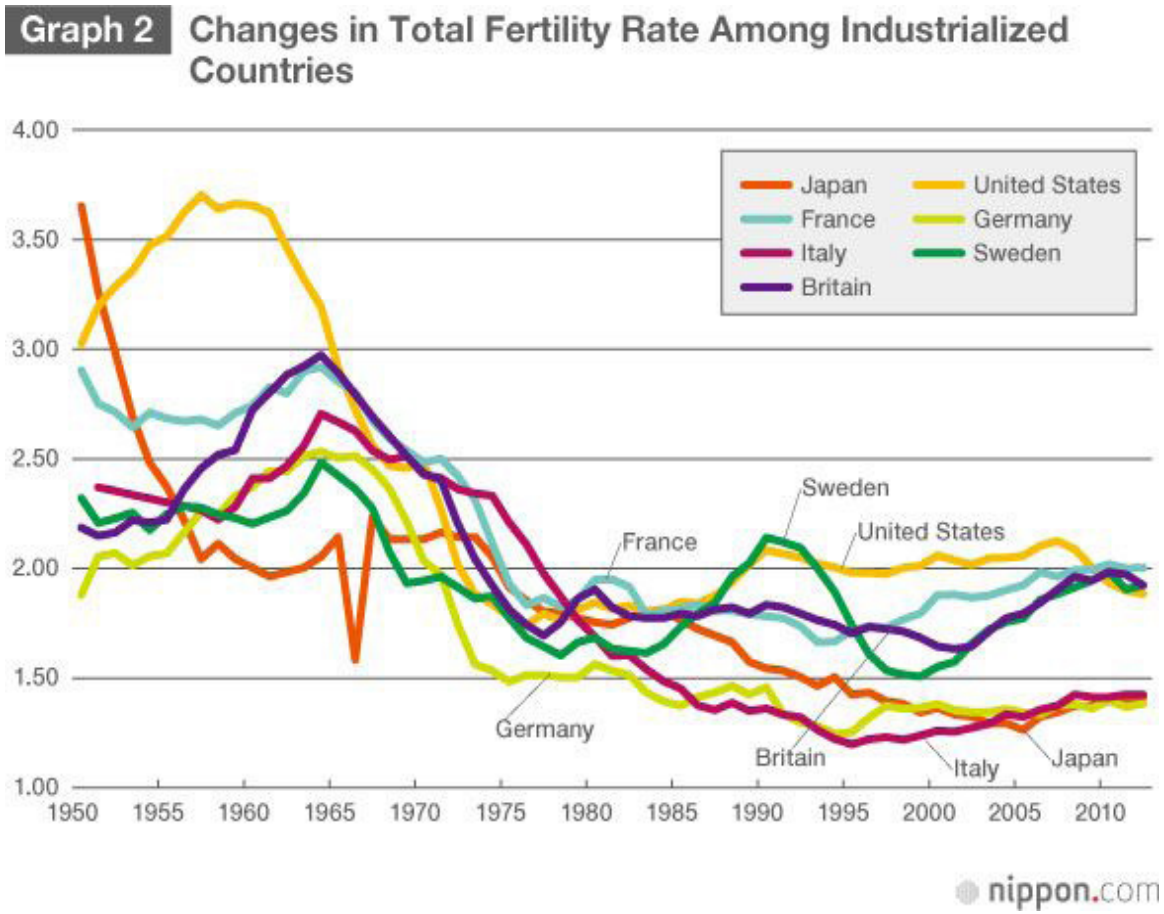


(١٣) https://www.nippon.com/en/ncommon/contents/features/٥١٥٤٢/٥١٥٤٢.jpg

## ٥- التجارة الخارجية -ازدياد رأس المال المساهم

عاصر ماركس نمو السوق العالمية للرأسمالية، والتي تشكلت في الزمن المركنتيلي ورصد دور التجارة العالمية. وعلى الرغم من أن ماركس لم يسعفه الوقت لاستكمال دراسته تلك، إلا أنه رصد ملمحا هاما يكشف طبيعة عملية التبادل بين بلدان رأسمالية متفاوتة التطور «أن رؤوس الأموال الموظفة في التجارة الخارجية، يمكن أن تدر معدل ربح أعلى، لأنها تتنافس، في المقام الأول، مع سلع تنتجها بلدان أخرى في ظروف إنتاج أقل ملاءمة، بحيث أن البلد الأكثر تطوراً يبيع سلعة بما يفوق قيمتها .....فمثل هذا البلد قد يعطي عملاً متشيئاً عينياً أكثر مما يأخذ ويتلقى مع ذلك السلع المقصودة وهي أرخص له مما لو أنتجها بنفسه»[١٤] .

ظلت مسألة التبادل تراوح مكانها في حدود فتح الأسواق للبضائع، ولم تنتقل إلا في مرحلتها «الاحتكارية» إلى عتبة حركة رؤوس الأموال كما حددها لينين. والواقع أن تصدير رؤوس الأموال لم يكن نفيا لتصدير البضائع، بل كان دافعا للتوسع في تصديرها، وشكلا عاملاً هاماً في تقليل ميل معدل الربح للهبوط، ارتبط بظهور المرحلة الاحتكارية، وإن كان عائد الأرباح من تصدير رؤوس الأموال يشكل النسبة والطريقة الأعلى في نزح القيمة باتجاه المراكمة في المراكز». هذا ما فهمه لينين جيدا إذ جعل من الاحتكارات المحور الجوهري لتحليل الرأسمالية تحليلا مجدداً، ذلك أن المنشأة الصغيرة التي كانت في القرن التاسع عشر، ليست قادرة على تصدير رؤوس الأموال. والاتجاه نحو توسيع السوق يتجلى -والحالة هذه- بالضرورة إما بواسطة التجارة (تصدير البضائع) وإما بتدخل الدولة تدخلاً سياسيا، فتعمل عندئذ على إخضاع الأطراف لمقتضيات المركز الموضوعية. ابتداء من عام ١٨٨٠، سوف تعمل الاحتكارات بصورة مباشرة، فيصبح بوسع الاتجاه نحو توسيع السوق أن يعبر عن نفسه بصيغة جديدة: صيغة تصدير رؤوس الأموال»[١٥].

وفيما يخص زيادة رأس المال المساهم، فماركس اعتبر أن عوائد الفائدة دائما ما تكون دون معدل الربح الوسطي ولا تدر إلا مجرد «ربح الأسهم»، لذلك لم يعتبرها عاملا هاما إلا من زاوية دخولها ضمن مجموع رأس المال المحسوب نظريا، ولا تدخل في حساب معدل الربح العام.

,, يُتبع ,,

(١٤) كارل ماركس، المصدر السابق، ص ٢٨٢

(١٥) سمير أمين، التراكم على الصعيد العالمي- نقد نظرية التخلف، ترجمة حسن فبيصي، الطبعة الثانية، دار ابن خلدون، صفحة١٤٥

## المراجع


- كارل ماركس، إسهام في نقد الاقتصاد السياسي، ترجمة أنطون حمصي، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٧٠
- سمير أمين، الشروط التي تضمن الرد الفعال من الجنوب، مقال، موقع الحوار المتمدن، ٢٠١١ / ٨ / ٩
- الاشتراكية في السياسة والتاريخ خرافة الطريق الثالث، عيداروس القصير، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٢ – ص١٦٢ –١٦٣
- سمير أمين، التراكم على الصعيد العالمي– نقد نظرية التخلف، ترجمة حسن فبيصي، الطبعة الثانية، دار ابن خلدون، صفحة ١٣٤–١٣٥
- إيمانويل وولرشتاين، تحليل النظم الدولية، ترجمة أكرم علي حمدان، ص ٤٤
- كارل ماركس، رأس المال، المجلد الثالث، الفصل الرابع عشر عوامل مضادة، ترجمة فالح عبد الجبار ص٢٧٦
- إنتاجية العمل، سيد البدري، صحيفة ميسلون، ٢٥ نوفمبر ٢٠١٥
- سمير أمين، قانون القيمة المعولم، ترجمة سعد الطويل، المركز القومي للترجمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص٨٦
- كارل ماركس، رأس المال، المجلد الثالث، الفصل الرابع عشر عوامل مضادة، ترجمة فالح عبد الجبار ص ٢٨٠


## تقارير:


- –World development report 2011/2012
- World employment report 2011– international –labour office
- https://www.nytimes.com/٢٠١٣/١٢/٢٢/sunday–review/health–cares
- https://www.nippon.com/en/ncommon/contents/features/٥١٥٤٢/٥١٥٤٢.jpg

# منازلة رأس المال في حقله الحقوقي .. اختيار للهزيمة

إبراهيم أحنصال

تشكل مرجعية حقوق الإنسان حلقة وصل وانصهار لتوجهات ليبرالية مع تيارات يسارية إصلاحية وتحريفية، حيث تتلاشى الفروق السياسية والإيديولوجية بينها وينتفي التمايز لتبدو على درجة عالية من التعايش والتطابق. فهي تشترك في كونها حبيسة لنفس المرجعية في «شموليتها» ومزاعم «كونيتها»، وتلتقي في الخضوع لنفس آليات العمل المغرقة في وصف نتائج مجردة والتعمية عن الأسباب المادية. والمنظمات المنتسبة إلى إيديولوجيا حقوق الإنسان، إجمالاً، تقدم خدمات هائلة للنظام الرأسمالي الإمبريالي، بإسهامها في طمس تناقضاته والتنفيس عن أزماته وتلطيف حدة الصراع الطبقي وكبحه، كما وتقوم بدور وظيفي بقلبها أولويات البلدان المستعمرة أو شبه المستعمرة، وبالقفز عن ظروف مساراتها الثورية وتمايزها ومستوى التطور الاقتصادي والسياسي غير المتكافئ.

## التجلي الكولونيالي لحقوق الإنسان في المستعمرات

إن الطابع التقدمي لحقوق الإنسان في مرحلة صعود وثورية الطبقة البرجوازية قد تآكل في عصر الإمبريالية والثورة البروليتارية، لتغدو إيديولوجيا حقوق الإنسان -كأحد أشكال الإيديولوجيا البرجوازية- آلة جبارة لترويض البشر لصالح سلطة رأس المال، حيث اصطبغت تعابيرها بالهيمنة الامبريالية وطوعت «الاتفاقيات الدولية» ذات الصلة لخدمة مصالحها وتعميق التبعية. فهي فعليا مجرد قشرة برانية يُصَدِّرها إلى مستعمراته عبر التمويلات والشبكات والمنظمات «غير» الحكومية والنشطاء والجوائز المسمومة، في إطار تأكيد تفوقه وفرض إملاءاته ووصايته عليها، وفي الوقت نفسه إشغالها عن تركيز نضالها في سبيل إنجاز تحررها الوطني وجعله في صدارة الكفاح.

كما تُلحِق المنظمات الحقوقية أكبر الضرر وأشده وطأة على المنظمات النقابية بوجه خاص والجماهيرية المناضلة بوجه عام، سواء باستقطاب كوادرها وتدجينهم بالخطاب الحقوقي بدل الفهم الطبقي للصراع، فتتخلص من مرجعيتها النظرية التقدمية لتنساق خلف الوهم الحقوقي وتنزاح إلى تقاسم نفس التصور والخطاب الإيديولوجي البرجوازي الرجعي. حيث يحل الإنسان الفرد المجرد محل الطبقات الاجتماعية والتناحر الملموس الجاري بينها في الواقع المادي، وتُستبدل مفاهيم علمية وثورية كـ(نمط الإنتاج، علاقات الإنتاج، قوى الإنتاج، التحرر الوطني والقومي، الأممية...) لتحل محلها مصطلحات كـ(الكونية، حقوق الإنسان كما هي متعارف عليها عالميا، المواثيق الدولية، النشطاء...). والمحصلة هي إفراغ أدوات النضال من مضمونها الكفاحي وتجريدها من مرشدها في العمل. وهنا تصبح أي منازلة خاطئة ومختلة ومحكومة بالهزيمة،

ما دامت تجري على نفس الأرضية وبنفس العدة الإيديولوجية للقوى المهيمنة.

وبدل تركيز النضال في مجرى تحقيق هدف مركزي ذي أولوية: كحقوق العمال الاقتصادية وحتى السياسية في وجه رأس المال ومقاومة الاستعمار وأنظمة الحكم العميلة له وفك الارتباط به وقطع علاقة التبعية، يتم هدر طاقات الجماهير الكادحة وتشتيت جهودها خلف شعارات تُمزق وحدتها وتُنَفِّرها بزرع ألغام إمبريالية تنسف تماسكها وتفقدها لحمتها كاستدخال (المثلية الجنسية والجندرية وغيرهما)، أو ثيمات ثانوية يتم تضخيمها كـ(العنف الرقمي ضد النساء، الكوطا، الأمهات العازبات...). والحالة هذه يضيع الهدف المركزي ويتدنى الطموح إلى جزيئات تغرق في بحر التفاصيل، هنا تتغول أنظمة الحكم الرجعي أكثر. أولاً، لأنها خارج دائرة الاستهداف السياسي المباشر لها. وثانياً، لأن أدوات المقاومة والرد عليها تم احتوائها وشلها. وثالثاً، غياب القضية الجامعة والمُحَشِّدة لنقيضها؛ فهل نحتاج للقول: أنه لا يمكن القضاء على أي شكل من أشكال العبودية إلا بالقضاء على كامل العبودية، وفق تعبير ماركس. والأمر الأهم في كل ذلك أنه لا يمثل أرضية سياسية لنضال ديمقراطي ثوري جماهيري.

حتى أن النُّظُم الرجعية امتطت هي الأخرى موضى حقوق الإنسان منافسة المنظمات «غير» الحكومية في توظيفها وتجييرها لصالحها، فأنشأت لها مؤسسات ومجالس ووزارة لحقوق الإنسان وزركشت دساتيرها بشعارات حقوقية. كل ذلك لإضفاء مُسوح الحداثة ومساحيق الديمقراطية على نظامها الفاشي المتعفن. بل إن الكيان الاستعماري الإبادي الصهيوني يسمح بعمل المنظمات الحقوقية في فلسطين المحتلة، طالما أن عملها لا يتعدى إدانة نتائج الاحتلال والمطالبة بتنفيذ «الشرعية الدولية»، وليس الكفاح التحريري المقاوم ضد الاحتلال لتحرير كامل فلسطين.

كما ويتم استنساخ أطروحة «الدفاع» عن الأقليات وتبنيها وفق هندسة الاستعمار لها وإسقاطها على البلاد العربية، فيتم قلب النتائج التي أفرزها التغلغل الاستعماري في الوطن العربي إلى أسباب كما لو هي من صميم بنية هذا المجتمع وملازمة له! فيُطمر هذا التغلغل الذي أفرز تقطيع أوصال الأمة إلى قطريات واحتجاز تطورها، وزرع داخل كل قطر منها ما يهدده داخليا بالمزيد من الانشطار عبر إذكاء وتوظيف الانقسامات والصراعات الطائفية والمذهبية والعرقية والقبلية، لإدامة إلحاقها به وضمان تفوق الكيان الصهيوني عليها. وهذا من صميم السياسة الاستعمارية «فرق تسد» التي طبقتها بريطانيا وفرنسا منذ القرن التاسع عشر، وورثتها أمريكا قائدة الامبريالية عبر ما سمته «الفوضى الخلاقة»، أي تفخيخ المجتمعات والدول بالصراعات الإثنية وحركات الدين السياسي وإدارة تفجيرها وفق الاستراتيجية التي تضعها.

لقد تحولت إيديولوجيا حقوق الإنسان والمبشرين بها من المنظمات الحقوقية إلى أدوات طيعة تحركها الامبريالية، والشواهد الملموسة على ذلك كثيرة في تمظهرها كطلائع تغطي جيوش حلف الناتو في غزوه لليبيا وسوريا وأفغانستان وغيرها. وتجدر الإشارة هنا أن المنظمات غير الحكومية العاملة في مجال حقوق الإنسان قامت بحملة ضد سحب أمريكا وحلفها الناتو قواتهم العسكرية من أفغانستان، فعلى إثر اجتماع أعضاء هذا الحلف في أيار/ مايو ٢٠١٢ في شيكاغو لمناقشة ضمن جدول أعماله ما سماه بـ«الربيع العربي» وكذلك انسحاب قواته من أفغانستان، أي إعادة التموضع لتقليل خسائره. فموازاة لهذه القمة، عقدت منظمات حقوقية حملة تحت شعار: «نعم لحقوق الإنسان، للنساء والفتيات في أفغانستان» و«واصل التقدم أيها الناتو». حتى إن أقدم وأشهر منظمة حقوقية في العالم وهي منظمة العفو الدولية أعدَّت رسالة «أكدت فيها أهمية مواصلة تدخل الناتو في أفغانستان، واستطاعت

أن تحصل على توقيع وزيرة الخارجية الأمريكية الأسبق مادلين أولبرايت وآخرين غيرها». لقد تكيفت هذه المنظمة الحقوقية وغيرها مع السياسة العدوانية للإمبريالية الأمريكية والتي تُطلق عليها شعار «التدخل الإنساني». (أنظر تفاصيل ذلك وغيره ضمن كتاب «عن «حق الإنسان» في الهيمنة»، نيكولا بيروجيني ونيف غوردون، ترجمة محمود محمد الحرثاني، الطبعة الأولى ٢٠١٨، الصفحات ٢١ و٢٢ و٢٣ وما بعدها). وشبيه هذا التوظيف لحقوق الإنسان وللمنظمات العاملة في هذا المجال عندما تستعمل كـ«ممرات إنسانية» التي تنادي بها الدول الاستعمارية إبان حروبها العدوانية لتسهيل الاختراق، لضمان الإمداد بالعتاد وتسريب الجواسيس والعناصر المدربة للتخريب وضرب خطوط المقاومة من الخلف، أو لتدارك عناصرها الاستخبارية وسحبهم بقناع حقوقي مخافة وقوعهم في الأسر. فـ«الممرات الإنسانية» هي تاكتيك عسكري بامتياز مرتبط بكامل الخطة الحربية. وهذا مما يفاقم الشكل الوظيفي لهذه المنظمات.

من نافل القول أن جميع المنظمات ذات الصبغة الدولية وعلى رأسها «محكمة العدل الدولية» و«مجلس حقوق الإنسان» وامتداداتهما ممن يتعامل أو يدور في فلكهما، هي أدرع للهيمنة الامبريالية وفي مقدمها أمريكا كذا والكيان الصهيوني. هناك فروق تكتيكية بين هذه المنظمات يقتضيه أسلوب تغلغلها لكنها لا تخرج عن ضابط إيقاعها الجماعي، بما يبقي إخضاع المستعمرات وشبه المستعمرات لنيرها وتكريس التبعية واحتجاز تطورها. بل هي توظف للتمهيد لنيران الحروب اللصوصية وإضفاء طابع الشرعية عليها. لقد كان المؤتمر العالمي الشيوعي السادس محقا ودقيقا عندما اعتبر «المحاكم الدولية» والمؤسسات من هذا القبيل أنها: «لا تصلح أكثر من فقاقيع رغوة الصابون التي سرعان ما تنحل عن أول اصطدام. فتلك المحاكم هي بمثابة أدوات القرصنة بأيدي القوى الامبريالية». (المؤتمر الشيوعي العالمي السادس، الفقرة ٦٠، ترجمة محمد علي العربي ونضال الحديدي، نبع للنشر البلشفي العربي).

## نقد أسس الوهم الحقوقي البرجوازي

إذا كانت حقوق الإنسان ذات الأصل البرجوازي تشكل تقدما في سيرورة التاريخ الكلي، فإنه من الضرورة النقدية الوعي بمحدودية سقفها والأوهام التي ينسجها دعاتها، والتي لا تمس علاقات الإنتاج المادي ولا جوهر السلطة السياسية القائمة بما هي تعبير عن مصالح اقتصادية طبقية ووسيلة لتأمينها وديمومتها. لقد فند ماركس حقوق الإنسان باعتبارها حقوق عضو المجتمع البرجوازي، أي حقوق «الإنسان الأناني، الإنسان المفصول عن الإنسان وعن الجماعة»؛ فهي حق الملكية الخاصة وحق الأنانية التي تأخذ عنوان «الحرية الفردية» والتي تشكل قاعدة المجتمع البرجوازي. فالحقوق البرجوازية وتصورها للعدالة تستند على أن كل فرد يحتاج إلى الحماية من البشر الآخرين، «الأمن هو بالأحرى تأمين الأنانية». متتبعا بالنقد مفهومها لـ(الحرية، المساواة، الأمن، الملكية...) على اعتبار أن الطرح البرجوازي لها لا تتخطى الإنسان الأناني، أي الفرد المنطوي على نفسه المفصول عن الجماعة والمأخوذ بمصلحته الخاصة، بوصفه عضواً في المجتمع البرجوازي. (كارل ماركس، حول المسألة اليهودية، الصفحة ٧٥ وما بعدها، طبعة ٢٠٢١، الملتقى الجديد- مراكش).

في مقاله «اشتراكية رجال القانون» الصادر في ١٨٨٧ يتناول فريدريك إنجلس مسألة الحقوق كإحدى مرتكزات الطبقة البرجوازية في طور ظهورها الصاعد، حيث أصبحت الدعوة للمساواة أمام القانون بمثابة «صرخة الحرب الكبيرة للبرجوازية»! و«كما أن البرجوازية، في الماضي، في نضالها ضد النبالة بقيت، بالتقليد، تجر معها المفهوم اللاهوتي للعالم بعض الوقت، كذلك فإن البروليتاريا في البداية أخذت من خصمها المفهوم الحقوقي وحاولت أن تستمد منه أسلحة ضد البرجوازية». كما أن «المطالبة بالمساواة، شأن المطالبة بكامل ناتج العمل، كانت تضيع في تناقضات عصية منذ أن نحاول صياغتها

تفصيلا على الأرضية الحقوقية فلا تصيب أولا تصيب إلا قليلا عقدة المشكلة، ألا وهي تغيير نمط الإنتاج». فالطرح الحقوقي كما الطرح

الذي ينبذ النضال السياسي مثاليان، «كلاهما كان يخاطب الشعور؛ أحدهما يخاطب شعور الحقوق، والآخر الشعور الإنساني. كلاهما كان يصوغ مطالبه على شكل أمنيات ورعة». والخلاصة أن الطبقة العاملة «لا يمكن للوهم الحقوقي للبرجوازية أن يكفي للتعبير كليا عن الحالة التي توجد فيها. إنها – أي الطبقة العاملة – لا تستطيع هي نفسها أن تتملك معرفة كاملة بهذا الوضع إلا إذا نظرت إلى الأشياء في حقيقتها الواقعية، بدون نظارات ملونة بألوان حقوقية».

على ضوء ما سبق يمكن فهم الخلفيات التي تجعل بلدان المركز الرأسمالي الامبريالي تولي أهمية قصوى في تجنيد المنظمات «غير» الحكومية ومراكز البحوث، تحت يافطة التبشير بشرعة حقوق الإنسان ودعم ثقافتها والتربية عليها، لتتحول في غالب الأحايين إلى أدرع للاختراق ووكالات لشراء الذمم وترويض المواقف. مع العلم أن هذه الدول الامبريالية هي أول من يدوس على شرعة وشعارات حقوق الإنسان/ الشعوب عندما يكافح أي شعب للانعتاق والاستقلال، ولا تتورع عن استعمال أشد الأساليب وحشية في سبيل تأمينها! يمكن أن ينبري بعض المنتسبين المتحمسين لمنظومة حقوق الإنسان ليستعرض قائمة من إنجازات الحركة الحقوقية، لكنها في المحصلة النهائية لا تخرج عن نطاق من يتغاضى، بل ويطمس، أسباب الاضطهاد الطبقي لينتقد نتائجه. بحيث ينطبق عليهم توصيف إنجلس وهو ينتقد «الاشتراكية الصحيحة» التي «أحلت الجملة الأدبية محل المعرفة العلمية، تحرير البشر بواسطة «الحب» محل تحرير البروليتاريا بواسطة التحويل الاقتصادي للإنتاج، والخلاصة أنها تاهت في هذا الأدب وهذه الفخفخة العاطفية المقززة».

## خلاصة

ما من شك أن جمعيات حقوق الإنسان محلية المنشأ والولادة كانت لأمد معين من وسائل النضال الجماهيري ورافداً له، لكنها –لاسيما في العقدين الأخيرين– تفسخت بالتمويلات التي تغدقها الدول والمراكز الامبريالية وسقوطها أمام إغراءات الجوائز الدولية والسفريات والفنادق الباذخة وانخراطها في البرامج المملاة عليها، وتَقزّمت إلى غرف لتسجيل الانتهاكات ورفع التقارير والصور إلى الجهات الممولة. وتفاقم هذا التفسخ مع مناداتها بـ«حماية النشطاء» الذي ينسف مبدأ المساواة في الحماية للجميع، وكأن النشطاء لهم خاصية يستمدونها من صفتهم تلك ومن الطابع التدويلي لهم، مما يجعل لهم اعتباراً يتفردون به مقارنة مع مناضلي الجماهير الكادحة! لهذا يكون نصيب الناشط –عندما يكون عرضة لما يسمونه انتهاكا– في التضامن أعلى نفيرا وأكبر صيتا، مقارنة بأي معتقل سياسي لا تنطبق عليه صفة الناشط. قارنوا ذلك بالأسير جورج ابراهيم عبد الله في سجون الامبريالية الفرنسية مهد «فلسفة الأنوار وحقوق الإنسان واستقلالية القضاء» حيث يوجد رهن الاعتقال للعام ٣٨، وبالأسرى العرب الفلسطينيين في معتقلات الاحتلال الصهيوني.

إبراهيم أحنصال

# إيران

# الواقع و التصورات

أحمد صبري السيد علي

منذ انتصار الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني، وهي محط اهتمام وسائل الإعلام الغربية والعربية، خاصة بعد تبنيها مشروعاً مقاوماً ضد النفوذ الأمريكي والصهيوني في المنطقة، عبر دعمها للمقاومتين الفلسطينية واللبنانية، بالإضافة لكونها النقيض الإيدولوجي للتيارات الليبرالية التي سعى الغرب لسيادتها على الدول الطرفية، والإسلاموية ذات المرجعية السلفية الوهابية المعبرة عن دويلات الخليج العربي والتي بدورها تأسست بدعم من الاستعمار البريطاني ضمن مخططه لتأمين الطريق إلى مستعمراته في شبه القارة الهندية والصين .

أن الأحداث هذه المرة لم تتعلق بالسلوك الإيراني المقاوم في المنطقة وإنما بالداخل الإيراني ذاته والذي يبدو غامضاً وغير مفهوم بالنسبة للعالم العربي، تحت تأثير الدعايات السلبية الغربية والسلفية .

لعقود، ومنذ انتصار الثورة الإسلامية، نجحت الإعلاميات الغربية والعربية (الممولة خليجياً) في إثارة الكثير من الغبار حول الداخل الإيراني، والتشويش حول واقع هذا البلد وحتى تاريخه وحضارته، مظهرة إياه ككيان يسيطر عليه التخلف والرجعية والتعصب الديني والطائفي، فهو أشبه بسجن كبير، كما يحلو لذوي النزعة البرجوازية الاستهلاكية التافهة وصفه، الذين تفرض عليهم تلك النزعة الاستسلام والتبعية للمركز الرأسمالي وتدفعهم لتبني كل ادعاءاته .

إن هذه الذهنية المفرطة في سطحيتها، هي التي سيطرت على الغالبية العظمى ممن يكتبون عن إيران في العالم العربي حتى بين الكثيرين من مدعي الماركسية الذين يفتقدون حتى للمعلومات الأولية عن جغرافية إيران الطبيعية والسكانية وتاريخها وثقافتها؛ وبالتالي فقد برز في الفترة الأخير سيل من المقالات والمشاركات على مواقع التواصل الاجتماعي التي طنطنت حول نضال النساء في إيران ضد الحجاب والرجعية، تبعاً لموجة العناوين الغربية، وقرب سقوط النظام الإسلامي والطائفي المتعصب ... الخ من هذه المغالطات .

وبالرغم من أن هذه النوعية من التظاهرات تشهدها أوروبا وأمريكا في حوادث قتل عرقية وعنصرية بشكل سنوي تقريباً، فالمثير للتعجب أن هذه النوعية من الكتاب لا تلتفت كثيراً لهذه التظاهرات بقدر تركيزها على التظاهرات في إيران ولا يمكن أن يدعي أي إنسان أن بعض الاحتجاجات كفيلة بإسقاط نظام مهما بلغت كثافتها بالرغم من أن هذه الاحتجاجات ذاتها لم ترفع مطالب بهذا الشكل، بل ويعتبر بعض هؤلاء أنها من أهم دعائم الديموقراطية في الغرب الرأسمالي بالقارتين .

قبل الكلام عن الأحداث في إيران من الضروري الإشارة بصورة مختصرة إلى جغرافيتها الطبيعية والسكانية، والتي أثرت لحد كبير في تاريخها وتطورها كدولة في العصر الحديث منذ تأسيسها على يد الشاه إسماعيل الصفوي سنة ١٥٠١ .

تتميز إيران بطبيعة وعرة للغاية، فالقسم الأكبر منها يتكون من هضبة تعرف باسم هضبة إيران، وتحيط بها سلاسل جبال شاهقة من كل جانب تقريباً، فتحدها من الشرق ثلاثة من الجبال المتوازية تعرف بجبال سليمان، ومن الشمال سلسلة جبال البُرز والتي تمتد إلى الهند حيث تتصل بجبال الهيمالايا، ومن الغرب جبال زاجروس التي تمتد من الشمال للجنوب، ثم تعرج جنوباً وشرقاً لتصل إلى بحر عمان، وفي وسط الهضبة هناك مناطق صحراوية مثل صحراء كوير شمالاً وصحراء لوط جنوباً[٢].

كان لهذا الوضع الجغرافي تأثيره على الواقع الاقتصادي والسياسي والثقافي في التاريخ الإيراني، فسلاسل جبال البُرز تفصل مناطق شمال إيران المطلة على بحر قزوين، مثل (غلستان، مازنداران»طبرستان سابقا»، جيلان «الديلم سابقاً») عن المركز في الهضبة، وهي من المناطق القليلة التي تنتشر فيها الزراعة

(٢) حسن پيرنيا . تاريخ إيران القديم من البداية حتى نهاية العهد الساساني . ترجمة / محمد نور الدين عبدالمنعم، السباعي محمد السباعي . طبعة دار الثقافة للنشر والتوزيع . الطبعة الثانية . القاهرة ١٩٩٢ . ص ٥، ٦ .

نتيجة طبيعتها السهلية ووفرة الأمطار، وهو ما ينطبق على خوزستان في الغرب والمناطق المطلة على بحر عمان كذلك التي تفصلها عن الهضبة سلسلة جبال زاجروس، وسلاسل الجبال الجنوبية، كما تعزل صحراء كوير مناطق الشمال جنوب جبال البُرز، وتعزل صحراء لوط المناطق الشرقية، وبالتالي فقد ظلت مركزية الدولة في إيران ضعيفة طوال تاريخها واعتمدت على نظام يشبه الحلف بين الأسر الحاكمة في هذه المناطق[٣] .

من الناحية الثقافية، أثرت هذه العوازل الجغرافية على الشعوب الإيرانية ووحدتها اللغوية، فبالرغم من كون اللغة الفارسية هي الرسمية، إلا أن هناك لغات أخرى يتحدثها الشعب الإيراني، ففيمحافظات الشمال المعزولة بجبال البُرز يتحدث السكان المازندرانية (الطبرية) والديلمية والقزوينية ، وفي غرب إيران وجنوبها الغربي، حيث جبال زاجروس، يتحدث السكان الكردية بلهجاتها المختلفة (الكرمانجية، السورانية واللرية) بالإضافة لانتشار اللغة العربية والمندائية على سواحل الخليج العربي وبالقرب من شط العرب، أما في الشرق فهناك البلوش الذين يتحدثون اللغة البلوشية، وفي الشمال الغربي يتحدث السكان التركية الآذرية، وفي الشمال الشرقي يتحدث بعض السكان التركية التركمانية، وثمة لهجة تركية تتحدثها قبائل

(٣) حسن پيرنيا . م . س . ص ٢٩٦، ٢٩٧ .

رعوية في شيراز وأصفهان هي لهجة قشقاي، وهناك لغات أخرى تنتشر في الشمال مثل تالش وإن كانت الأخيرة تمتد إلى آذربيجان كذلك .

إن الغالبية العظمى من هذه اللغات (المازندرانية، الديلمية، القزوينية[٤]، الكردية، البلوشية، التالشية والفارسية) في بالأساس لهجات آرية، وبالرغم من تقاربها الكبير إلا أن العوازل الطبيعية سالفة الذكر أدت إلى تطورها بصورة مختلفة عن الفارسية (بلهجتيها الفهلوية القديمة والدرية الحالية) في مركز الهضبة الإيرانية، كما أن هذه المناطق طوال تاريخ الدول الفارسية المختلفة مثلت الأكثر شغباً ضد سيطرة حكومة مركزية على الهضبة الإيرانية .

من الناحية الدينية يمثل الإسلام الدين الغالب على إيران بنسبة ٩٨٪، ويمثل المذهب الشيعي نسبة ٩٠٪ من المسلمين وهم من الشيعة الإمامية الإثنى عشرية، لكن ثمة طوائف شيعية أخرى متواجدة يمكنها أن ترفع نسبة الشيعة إلى ٩٥٪ من المسلمين كالشيعة العلويين، والشيعة الإسماعيلية، وكليهما يعدان عند فقهاء الشيعة الإثني عشرية من الغلاة .

ومن هنا يمكن توضيح السبب الذي من أجله تحظى المرجعية الدينية الشيعية بكل

(٤) ينتمي سكان محافظات الشمال الإيراني إلى الكادوسيين، وهو شعب آري له صلات قوية بالفرس والأكراد إلا أن المعلومات عنه من الناحية التاريخية قليلة للغاية

هذا القدر من الأهمية في إيران، فالإسلام والمذهب الشيعي هما ما يجمعان الشعب الإيراني بشكل فعلي، وهما عنصرا القوة الأساسي لضمان وحدة أراضي الدولة ومن غير المتوقع أن ينسحب هذان العنصران من الحياة السياسية مهما كان شكل الحكم فيها، إسلامياً أو علمانياً؛ وهو ما ساد في التاريخ الإيراني حتى قبل الإسلام، حيث اعتمدت الأسرة الساسانية على الديانة الزرادشتية كعامل توحيد في إيران لما يزيد عن أربعة قرون[٥] ، ولم تواجه المصاعب إلا بعد الغزو البوذي من الشرق والمسيحي من الغرب والشمال الغربي، والذي اقترن مع انتفاضات إجتماعية لعل أهمها «المزدكية» .

أما المحيط بإيران، فمن الملاحظ أنه باستثناء آذربيجان [٦] وأرمينيا (المسيحية[٧])

(٥) كان جد الأسرة الساسانية « ساسان » سادناً لبيت نار في اصطخر

(٦) ترتبط آذربيجان بإيران تاريخياً وثقافياً ودينياً، وسابقاً لم تكن اللغة التركية هي السائدة في آذربيجان وإنما سادت لهجات آرية لعل أهمها لغة تالش . وبعد السيطرة المغولية على إيران وتوافد قبائل الأوغوز (يطلق عليهم المصريون الغز)، تغيرت اللغة تدريجياً إلى التركية بلهجة آذرية خاصة .

(٧) هناك تقارب عرقي بين الإيرانيين والأرمن كونهما من الشعوب الآرية، ودائماً ما كانت علاقة الأرمن مع الدولة في إيران ودية، وحتى في إيران الإسلامية يحتفظ الأرمن بوضع جيد وعلاقة رائعة مع الدولة، وفي فترة سابقة كان الأرمني أندرانيك تيموريان هو كابتن منتخب إيران الإسلامية لكرة القدم، وقد شارك فنانون من الأرمن في تزيين مرقد الإمام علي بن موسى الرضا في مشهد .

في الشمال الغربي، والعراق في الغرب، فإن إيران محاطة بدول تتبنى المذهب السني، وبالتالي فعلاقاتها مع الخارج بشكل عام تعتمد على الانتماء الإسلامي العام، ولا يمكنها بكل الأحوال تبني سياسة قومية فارسية في الداخل أو في التعامل مع الخارج، وللاحظ أن هذه السياسة القومية الفارسية كانت من أهم أسباب سقوط الشاه وتعاطف الجماهير الإيرانية مع ثورة إسلامية يقودها عالم دين شيعي .

وإذا كان هذا هو تأثير الجغرافيا الطبيعية والسكانية، فإن تأثير الاقتصاد وهو العامل الأول في التغيرات الاجتماعية يبدو أكبر، فمن المعطيات الجغرافية السابقة فإن الزراعة ليست هي النشاط الاقتصادي الأبرز في إيران خاصة أنها لا تنتشر إلا في سهول الشمال وسهول خوزستان، وإنما كان تواجد إيران في وسط الطريق بين الصين والهند شرقاً وبين أوروبا غرباً هو ما جعل النشاط التجاري هو النشاط الاقتصادي الأكثر أهمية في إيران، وحرصت الدولة الساسانية على السيطرة على موانئ الخليج العربي وبحر عمان والبحر العربي من أجل احتكار التجارة بين الشرق وأوروبا .

وفي تاريخ إيران الحديثة كانت إرادة البازار الإيراني التقليدي، الناقم على غزو البضائع الأجنبية وما يصحبها من مزاحمة تجارية وثقافية في الداخل الإيراني، هي المحرك الأول للانتفاضات الاجتماعية في إيران، كثورة التبغ (١٨٩٠)، الثورة الدستورية (١٩٠٥ : ١٩١١)، وثورة تأميم النفط (١٩٥٣)، ونظراً للتحالف القوي بين البازار وعلماء الدين فلم يكن من المستغرب أن تكون قيادة كل هذه الانتفاضات الاجتماعية خاضعة لعلماء دين إيرانيين مثل السيدين محمد الطباطبائي وعبدالله البهبهاني[٨] ، حتى ثورة مصدق سنة ١٩٥٣ لم يكن لها لتنجح لولا تحالفه مع آية الله العظمى السيد أبو القاسم الكاشاني .

لقد كانت معطيات الوضع الجغرافي والاقتصادي هي أساس التحالف بين البازار والحوزة العلمية الشيعية، فتجار البازار، وبحسب أحكام المذهب الشيعي الإثني عشري، يدفعون خُمس أرباح السنة لمراجع التقليد الشيعة[٩] بالإضافة إلى الزكاوات والصدقات، بهدف إنفاقها في الوجوه الشرعية المعروفة بالإضافة للإنفاق على طلاب الحوزة، وبالتالي هم الممول الأساسي لها، كما أن هذا التمويل كان الضمان لاستقلال الحوزة العلمية عن أي مؤثر سياسي من قبل الحكومات المختلفة والتي فشلت في إجبار المجتهدين الشيعة على الافتاء لصالح محاولاتها تغريب إيران ومنح اقتصادها للأجانب، وفي المقابل كان علماء الدين بكل ما لديهم من نفوذ على الجماهير الشيعية هم الضمانة لعدم تفتيت إيران ووحدتها، ورفض منح الاقتصاد الإيراني لوكلاء الشركات الغربية (الكومبرادور) والذي تشكلت بداياته في العصر القاجاري وخاصة في فترة ناصر الدين شاه (حكم في الفترة بين ١٨٤٨ : ١٨٩٦) [١٠] .

وبالرغم من أن إيران شهدت تواجداً يسارياً كبيراً بداية من حركة جمهورية جيلان السوفيتية سنة ١٩٢٠، ثم تأسيس حزب توده سنة ١٩٤١ وحتى حظر نشاطه سنة ١٩٨٣ [١١]، إلا أن الحركات الشيوعية في إيران عموماً

(٨) من قادة الثورة الدستورية

(٩) لا تتشابه المؤسسة الدينية الشيعية مع غيرها من المؤسسات الدينية الأخرى في العالم الإسلامي، حيث يعتمد نظام مراجع التقليد بالأساس على شعبية المجتهد بين جماهير المؤمنين الشيعة في العالم والذين بدورهم يختارون المرجع الذي يقلدونه

(١٠) تشبه ممارسات ناصر الدين شاه ما قام به كل من سعيد باشا والخديو إسماعيل في مصر، وقد كان معاصراً لفترة حكم عباس حلمي الأول، سعيد، الخديو إسماعيل، الخديو توفيق، وجزء من فترة حكم الخديو عباس حلمي الثاني، وبالتالي لم يكن من الغريب أن تظهر الحركتين البابية والبهائية خلال فترة حكمه، ويصنف بعض الباحثين كلا الحركتين ضمن مساع النخب الإيرانية لتسريع تغريب إيران والتعجيل بالقضاء على النظم التقليدية .

(١١) كان حزب توده حزباً سرياً منذ تأسيسه ولم يظهر إلى العلن إلا عقب انتصار الثورة الإسلامية عام ١٩٧٩، وكان من أسباب الصدام بينه وبين الحكومة الإسلامية هو علاقة قيادته بأحد موظفي السفارة السوفيتية بطهران وهو فلاديمير أناتوليفيتش كوزچكين، والذي اتضح سنة ١٩٨٢ كونه عميلاً للبريطانيين، بالإضافة للاتهامات التي وجهت للحزب بالمشاركة في تمرد سنندج بكردستان الإيرانية .

وعلى رأسها هذا الحزب فشلت في الانتشار بين الجماهير نتيجة عدائها للمؤسستين، خاصة في دعوته الغامضة للدفاع عن الحقوق القومية للإثنيات في إيران، بالإضافة لخلافاتها الداخلية، وخاصة بين حزب توده وحركة فدائيي خلق .

كان التمسك بالهوية الإسلامية في إيران، ومن بينها الحجاب، هو إرادة أبناء الريف والأقاليم في مواجهة برجوازية المدن الكبرى، والتي ينتمي إليهم الغالبية العظمى من علماء الدين وكبار رجال البازار (في هذه المرحلة)، وهم الذين تم تجاهلهم في العهد الشاهنشاهي، وبقيت في حالة من الفقر ونقص الخدمات، الصحية والتعليمية على وجه الخصوص، كما تركوا ضحية للكوارث الطبيعية ولعل أشهرها زلزال طبس الذي قضى تماماً على المدينة وأدى لوفاة ٩ آلاف من ابنائها سنة ١٩٧٨ .

إذن كيف يمكن قراءة الأحداث الأخيرة في إيران ؟! في البداية من الضروري التأكيد أن التظاهرات في إيران لم تطالب أبداً بإسقاط الجمهورية الإسلامية، وإنما ارتبطت مطالبها جميعاً بمصالح البازار الإيراني .

لقد شهدت فترة حكم هاشمي رفسنجاني والتي تلت انتهاء الحرب مع العراق، تأسيسه لما يسمى كوادر البناء في محاولته لإعادة بناء الاقتصاد الإيراني، وفي سبيل تحقيقه لهذا الغرض، ومع انتماء عائلته المعروف للبازار فقد سعى لحرية السوق وخصخصة الصناعات المملوكة للدولة، والذي تلاقى مع رغبة رجال البازار في عدم الصدام مع الأمريكيين، وجاء خلفه محمد خاتمي ليواصل سياساته ويفتح المجال أمام الاستثمار الأجنبي .

برزت الاشكالات الاجتماعية في إيران بوضوح منذ رئاسة خاتمي، كنتيجة لسماحه بالاختراق الأجنبي عبر الاستثمارات المزعومة، فالبازار الإيراني الذي دعم الثورة سابقاً للقضاء على المنافسة الأجنبية، أصبح أمام المتغيرات الإقليمية والعالمية يسعى لفتح المجال أمام ثرواته المهددة نتيجة للعقوبات المطبقة على إيران منذ نجاح الثورة، ويتطلع للقيام بدور الكومبرادور في الداخل الإيراني مع الإحتفاظ بالشكل الإسلامي المظهري بعيداً عن شعارات الثورة الأساسية التي أطلقها الإمام الخميني والرافضة لتراكم الثروة والمنحازة بوضوح للكادحين [١٢]، وبالتالي فهو يطالب بضرورة تجنب الصدام مع الأمريكيين والعودة للاتفاق النووي، وتخفيض الدعم للمقاومة في لبنان وفلسطين واليمن، بهدف رفع الحصار الاقتصادي عن إيران، وزيادة التبادل التجاري مع أوروبا والولايات المتحدة، والتي غالباً ما يتعثر نتيجة الأزمات السياسية بين الطرفين وتبني السيد الخامنئي لسياسة دعم الصناعات المحلية[١٣] .

ومما يدعم موقف البازار الإيراني هو زيادة حجم الطبقة البرجوازية بشرائحها الثلاثة على حساب الريف الإيراني، في الفترة الممتدة من رئاسة رفسنجاني وحتى نهاية رئاسة حسن روحاني [١٤]، والتي شهدت توسعاً ضخماً في التعليم وفي حجم الشركات التي تقوم على اقتصاد الخدمات وخاصة خدمات الاتصالات والانترنت، وشهدت فترة خاتمي على وجه الخصوص زيادة التبادل التجاري مع الغرب، والذي استفاد منه الكثيرين (خاصة أبناء رجال الثورة السابقين) في الدخول إلى مجال الأعمال التجارية، حيث انتشرت المنتجات الغربية في إيران وبدت بوضوح في استهلاكيات هذه الشرائح الاجتماعية، وهو ما استفز السيد علي الخامنئي ودفعه لتوجيه انتقاد علني في ٢٠١٦ لهؤلاء الأثرياء الذين يتحركون بسيارات باهظة في طهران حيث تساءل عن السبب الذي يدفع الحكومة للسماح باستيراد هذه السيارات باهظة الثمن والتي لا يمكن للعامل الإيراني العادي التفكير

(١٢) تعبر هذه الشعارات عموماً عن التقاليد الموروثة في المذهب الشيعي، والمنقولة عن أئمة أهل البيت

(١٣) في ٢٠١٦ وبناء على انتقادات من قائد الثورة حظرت إيران استيراد السيارات الأمريكية، حيث شدد السيد الخامنئي على ضرورة دعم الصناعات المحلية .

(١٤) تعتبر فترة رئاسة محمود أحمدي نجاد حالة اعتراضية .

في شرائها، وتجاهل الصناعة الوطنية، معتبراً أن هذا المشهد يعبر عن مشكلة هوية وسوء تربية في آن [١٥] .

إن المراقب للأحداث في إيران يمكنه ملاحظة أن المشاركين فيها ينتمون لمجموعتين تتشكل كل منهما من عدة فصائل .

هناك المجموعة الأولى وهي الفصائل الانفصالية مثل :

حزب الحياة الحرة الكردستاني (بيجاك)، والذي يقال أن بعض أفراد أسرة مهسا أميني ينتمي إليه، وحزب كوملة (له ماض شيوعي سابق قبل أن يتراجع مؤخراً لمطالب عرقية كردية) [١٦]، وكلاهما يطالب بدولة كردية أو على الأقل بحكم ذاتي للأكراد في إيران، وقد تم الكشف مؤخراً عن علاقة الحزبين بالكيان الصهيوني .

على الجانب الشرقي هناك منظمة جند الله البلوشية السلفية، والتي تسعى لانفصال بلوشستان عن إيران وباكستان تحت دعاوى قومية ودينية، وقامت أثناء الأحداث باغتيال عالم الدين السني الإيراني عبد الواحد ريغي بتهمة موالاة النظام، ومن المعروف أن لهذه المنظمة دور في تسهيل تجارة المخدرات والسلاح، كما أن لها علاقات صريحة بالأمريكيين، وقد تم سابقاً القبض على زعيمها عبد الملك ريغي أثناء عودته من اجتماع معهم في أحد قواعدهم العسكرية بالخليج العربي.

من الناحية الغربية، هناك بعض الفصائل الانفصالية العربية في خوزستان الموالية لبعض الدول الخليجية، وتسعى لانفصال الجزء العربي من خوزستان، تحت دعاوى عرقية ودينية مذهبية، رغم أن أغلبية عرب إيران من الشيعة الإثني عشرية .

وقد تولت هذه العناصر الانفصالية بمساعدة من بعض كوادر مجاهدي خلق الموجودة في الداخل، تنفيذ بعض العمليات ضد الحرس الثوري والمزارات الدينية ومن أهمها تفجير مرقد شاه جراغ [١٧] في شيراز (يضم رفات أحمد ابن الإمام موسى الكاظم، وشقيق الإمام علي بن موسى الرضا المدفون في مشهد) والذي قتل فيه ١٥ شخصاً ما بين زائر وموظف، وإصابة أكثر من ٤٠ آخرين .

هناك كذلك الفصائل المدعومة غربياً ومن أهمها الإصلاحيون، وهم التيار الأكبر حجماً بين المتظاهرين، وعلى رأسهم جبهة المشاركة الإسلامية في إيران والذي يضم لعضويته كلًّا من زهرا إشراقي حفيدة الإمام الخميني من ابنته، وزوجها محمد رضا خاتمي شقيق محمد خاتمي رئيس الجمهورية الأسبق، وفائزة رفسنجاني ابنة الرئيس الأسبق، الراحل هاشمي رفسنجاني .

وثمة فصيل آخر ينتمي لهذه المجموعة وهم المنتمون للطرق الصوفية وخاصة طريقة نعمتلاهي (نسبة إلى نعمة الله ولي) وهي من الطرق الصوفية المعروفة في إيران ولأقطابها وأفرادها توجهات علمانية، وهم في غالبيتهم من النخب المثقفة، كما أن لها تفسيراً خاصاً للإسلام والتشيع لا يقبله علماء الدين الشيعة[١٨] ، وهذه الطرق الصوفية تحظى بدعم واضح (معنوي ومالي) من قبل الغرب

عموماً نتيجة عدم تبنيها لمشروعات عدائية تجاهه، بالإضافة لعلاقتها الفاترة بالنظام في إيران، وقد ابتكر أبناء هذه الطريقة أسلوب استخدام السيارات في دهس عناصر الحرس الثوري خلال تظاهراتهم الأخيرة في سنة

(١٥) تعد فكرة تقارب أسعار السلع موروثة عن الإمام علي بن أبي طالب، حيث تذكر إحدى المرويات زيارته لأحد أتباعه وهو ميثم التمار وخلال الزيارة وجده قد قسم التمر وسعره بناء على جودته، فأمره بخلط التمر ببعضه وبيعه بسعر واحد مشيراً إلى أنه باستخدامه لهذه الطريقة في التفريق بين أسعار التمر إنما يفرق بين الناس .

(١٦) كان حزب كوملة قد شارك مع القوات العراقية أثناء الحرب مع إيران، ثم أوقف نشاطه العسكري بعد وقف إطلاق النار عام ١٩٨٨ وحتى عام ٢٠١٦ عندما بدأت علاقاته مع الأمريكيين عبر مفوضه في أمريكا صلاح بايزيدي والذي كون علاقة كذلك مع لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية (إيباك) .

(١٧) تعني بالفارسية ملك النور.

(١٨) تأسست هذه الطريقة على يد المتصوف نعمة الله ولي الحسيني المولود بحلب ١٣٣٠ والمتوفي بمدينة ماهان في كرمان بجنوب إيران عام ١٤٣١، وقد عاصر بدايات تأسيس دولة الآق قوينلو (أصحاب الحمل الأبيض) التركمانية المدعومة من قبائل الأوغوز .

٢٠١٨، ضد اعتقال زعيمهم نور علي تابنده وبعض أفراد الطريقة، وقد استخدم هذا الأسلوب كذلك في الاحتجاجات الأخيرة .

وبالرغم من أن أهداف المجموعتين ليست واحدة بكل تأكيد، إلا أن المجموعة الأولى المكونة من فصائل انفصالية مسلحة سعت لاستغلال التظاهرات بهدف تنفيذ عمليات عسكرية ضد عدد من الأهداف في إيران، وخاصة معسكرات الحرس الثوري والباسيج (المتطوعين)، على أمل زيادة اشتعال التظاهرات، وإجبار النظام على تقديم تنازلات لتهدئة الأوضاع .

إذن فالصراع الداخلي في إيران لم يسع بالأساس إلى إسقاط النظام، وإنما المستهدف الحقيقي هو قائد الثورة السيد علي خامنئي والذي يتخذ موقفاً متشدداً من الاتفاق النووي، ويسعى لدعم المقاومة في لبنان وفلسطين واليمن ضد الأمريكيين والكيان الصهيوني، ويرفض التخلي عن دعم الصناعات المحلية (التقليدية كصناعة السجاد والمتطورة)، خاصة في مجالات صناعة الأدوية حيث تنتج إيران ٩٥٪ من احتياجاتها في هذا المجال، وهنا تلتقي مصالح البازار مع النظام والأمريكيين في وقت واحد، فهو يرغب في الحفاظ على الصناعة التقليدية اليدوية، ويسعى لفتح السوق الإيراني أمام غزو المنتجات الصناعية المتطورة بما لا يتعارض مع منتجاته التقليدية [١٩] .

ومن هنا لا نستغرب أن المتظاهرين لم يستهدفوا أي من رموز الثورة الإسلامية السابقين والحاليين، وإنما تركزت جهودهم على استهداف شخص السيد الخامنئي، كما لا نستغرب أن يدعم رئيس الجمهورية السابق محمد خاتمي وبعض الشخصيات من أسرة الإمام الخميني وأسرة الرئيس السابق هاشمي رفسنجاني، بل وشخصيات من أسرة السيد الخامنئي ذاته [٢٠] مطالب المتظاهرين، وهم الذين تمكنوا من الدخول بمجال الأعمال التجارية في عهد محمد خاتمي [٢١] الأمر الذي كان ممنوعاً عليهم سابقاً، خاصة في حياة الإمام الخميني مؤسس الجمهورية، كما لا يستغرب أن نسمع دعم للتظاهرات من عناصر حكومة حسن روحاني، التي وقعت الاتفاق النووي السابق مع الأمريكيين، والتي وجه لها السيد الخامنئي انتقادات علنية، مثل معصومه ابتكار نائبته لشئون المرأة، ونائبه إسحاق جهانجيري .

إذن الخلفية الأساسية لهذه التظاهرات هي محاولة الضغط على السيد الخامنئي لتقديم تنازلات في الداخل والخارج، وكانت مقدمات الأحداث واضحة منذ بداية العام حيث نجحت المؤسسة الأمنية الإيرانية خلال هذا العام، في تفكيك العديد من الشبكات الإرهابية وشبكات التجسس للكيان الصهيوني ولعل أهمها الشبكة التي تكونت من عناصر من حزب كومله الكردستاني بقيادة عبد الله مهتدي، وبإشراف من ضباط الموساد الصهيوني [٢٢] ، مما يؤكد أن أحداث الشغب كان محضراً لها منذ فترة وليست عفوية على الإطلاق .

إن ما يطلبه هؤلاء في الواقع هو نظام إسلامي مدجن في إيران على غرار الأنظمة الدينية في الخليج الفارسي، أي التخلي عن الحالة الثورية الرافضة لهيمنة المركز الرأسمالي وممثله في المنطقة الكيان الصهيوني، إلا أن كلا المجموعتين

(١٩) لعل هذا الموقف الوسطي للبازار يؤكد أنه لا يرغب بل لم يفكر أصلًا في إسقاط النظام وإنما يسعى لمراكمة مكاسبه التي حققها في فترتي رئاسة رفسنجاني وخاتمي

(٢٠) على رأس الشخصيات المعارضة للسيد الخامنئي من أسرة الإمام الخميني حفيده حسين مصطفى الخميني والذي توجه لإقامة في العراق سنة ٢٠٠٣ والتقى هناك ببول بريمر أكثر من مره، وحفيدته زهراء إشراقي، ومن أسرة الشيخ رفسنجاني فائزة رفسنجاني، أما من أسرة السيد الخامنئي فمن المعارضين له شقيقه هادي خامنئي وشقيقته بدري حسيني خامنئي، وابناها محمود مراد خاني وفريدة مراد خاني والأخيرة اعتقلتها السلطات الإيرانية في نوفمبر الماضي .

(٢١) أغلب هذه الشخصيات وعلى رأسها هادي خامنئي وفائزة رفسنجاني وزهرا اشراقي كانوا من المؤيدين لمحمد خاتمي .

(٢٢) تم الكشف عن هذه الخلية في ٢٧ يوليو ٢٠٢٢ الماضي، وفي شهر ديسمبر تم تفكيك أربع شبكات تجسسية أخرى .

تعرفان أن إسقاط النظام في إيران غير واقعي خاصة مع جماهيريته الضخمة التي أظهرتها التظاهرات الداعمة له، وبالتالي فقد تقلصت المطالب تدريجياً لتصل إلى محاولة الضغط من أجل تقديم أي تنازلات من قبل قائد الثورة تساوي الخسائر والنفقات والتغطية الإعلامية التي تمت خلال هذه الأحداث، لعل أهمها تقييد سلطاته، قبل أن تتراجع التظاهرات تماماً، وتنتهي إلى لا شيء، مع بقاء بعضها في مهاباد الكردستانية، وبعض العمليات الإرهابية المتفرقة، والتي كانت تتم سابقاً نتيجة الصدامات مع الفصائل المسلحة المتواجدة على الحدود .

لا يمكن إنكار أن هناك قطاع من البرجوازية الإيرانية (كالممثلين مثل كتايون رياحي[٢٣] ولاعبي الكرة مثل علي كريمي وعلي دائي) وأبناء رجال الأعمال الإيرانيين ينظر بعداء للحجاب، أو لفكرة فرض الحجاب، كما يتمنى نمط الحياة في أوروبا وشمال أمريكا، وهذه النوعية ينتمي إليها حتى بعض أبناء المسئولين الإيرانيين سواء من الإصلاحيين أو الأصوليين، الذين أقاموا مشروعات تجارية وخدمية في الفترة الأخيرة، إلى درجة أجبرت رئيس الجمهورية بإصدار قرار بمنع سفر أبناء المسئولين للتعليم أو الهجرة للخارج قائلاً بأنه إذا رحل الابن فليرحل الأب أو الأم معه، كما وجه قائد الثورة قراراً بإعادة مواجهة الثقافة الاستهلاكية المنبهرة بالغرب التي سيطرت في الفترة الأخيرة على الشعب الإيراني بما يعني ثورة ثقافية جديدة، وفي سبيل تحقيق هذا الهدف فمن المتوقع أن تتغير وجوه كثيرة في الفترة القادمة لتتصدر المشهد في إيران بينما ستبتعد وجوه أخرى كانت في الصدارة منذ تسعينات القرن الماضي، إلا أن المؤكد هو عدم قدرة هذه النماذج على التواصل الحقيقي مع الشعب الإيراني والذي يتعاطف أغلبه مع النظام كما أظهرت التظاهرات المؤيدة .

الممثلة كتايون رياحي في مشهد من مسلسل يوسف الصديق

في النهاية نجح النظام، عبر الدعم الجماهيري، في تجاوز الموقف دون خسائر حقيقية أو تنازلات، حتى الآن، كما أنه استخدم هذه التظاهرات بهدف تنحية المعارضين للسيد الخامنئي من داخل النظام بصورة نهائية، وتوجيه ضربات قاسية للمجموعات الانفصالية الموجودة في شرق إيران أو في كردستان العراق وخاصة بالسليمانية .

على إن مطالبة السيد علي خامنئي قائد الثورة بإعادة قيم الثورة الثقافية (التي تمت في فترة قيادة الإمام الخميني) مرة أخرى، يعني أن النظام في إيران قد أدرك أنه من الضروري عليه تحديد موقفه غير الواضح من التعامل مع سعي المركز الرأسمالي لإعادة تقسيم سوق العمل في العالم، فطوال عهد رفسنجاني ثم خاتمي وروحاني كان مشروعهم الأساسي هو دمج الاقتصاد الإيراني في هذا النظام، بناء على التحالفات السابقة مع البازار، إلا أن الأحداث الأخيرة أكدت مدى هشاشة هذا التحالف حالياً مع المتغيرات الأخيرة، وأصبح من الضروري استعادة الوجه الثوري القديم لإيران بل بصورة أكثر ثورية من السابق لمواجهة الأزمات الداخلية المرشحة للتصاعد في الفترة القادمة، والأهم تحديد هوية الاقتصاد الإيراني بدلاً من صفة « الاقتصاد الإسلامي » الغامضة من ناحية المفهوم .

**أحمد صبري السيد علي**

(٢٣) عرفت كتايون رياحي بدور زليخة في مسلسل يوسف الصديق الذي حقق شهرة كبيرة في العالم العربي .

# د.احمد الخميسي

# يتحدث لأشتباك

قام بالحوار:

سيد البدري

## شخصية العدد

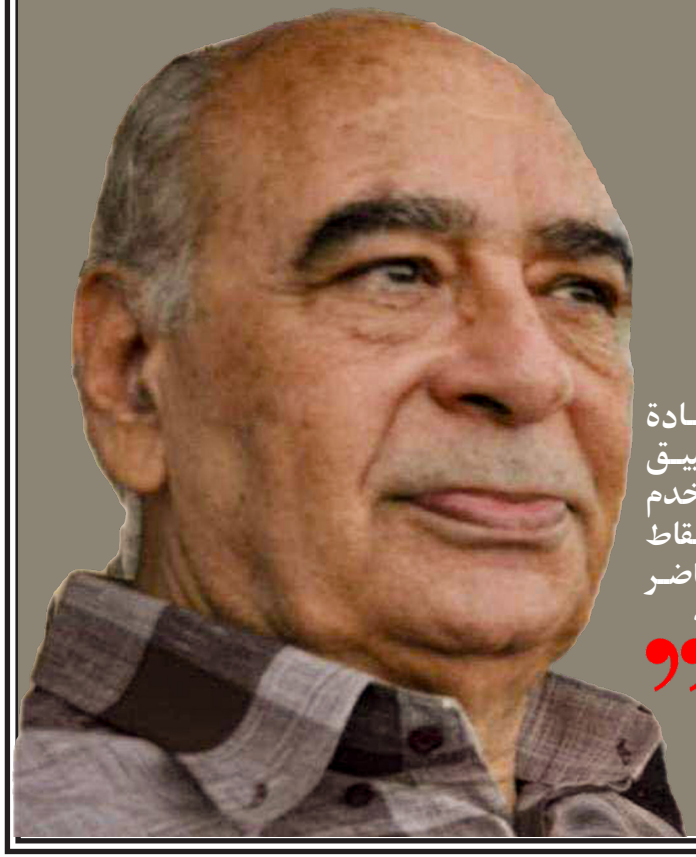

يلجأ الكاتب للتاريخ عادة في ظروف الرقابة والتضييق على حرية التعبير، فيستخدم صفحة من التاريخ لإسقاط دلالاتها على الحاضر الممنوع الحديث عنه

يعد أحمد الخميسي قامة أدبية وفكرية مؤثرة في الحياة الثقافية المصرية والعربية، وقد ترك بصمته الواضحة في عالم القصة القصيرة بأكثر من خمس مجموعات قصصية نال بعضها جوائز مرموقة، وهو طريق شقه أحمد الخميسي منذ أن قدمه الكاتب العبقري يوسف إدريس في مجلة الكاتب عام ١٩٦٦، كما قدم الخميسي العديد من التراجم المهمة عن الأدب الروسي، علاوة على العديد من كتب الدراسات مثل « موسكو تعرف الدموع»، و» حرب الشيشان» و» نجيب محفوظ في مرآيا الاستشراق» ، وهو أيضا كاتب أغنيات وطنية كثيرة، وكاتب مسرحي، وصحفي يكتب بانتظام أسبوعيا في الثقافة والفن والسياسة، وخلال تلك الرحلة ظل الخميسي أحد الذين لم يفرطوا في مباديء الوطنية قبل وبعد اعتقاله في مظاهرات الطلاب عام ١٩٦٨ مع الكاتب صلاح عيسى وآخرين، ويمكن لأي متتبع لتاريخ الخميسي أن يوقن أنه لم يمالىء أو ينافق نظاما أو سلطة أو قوة ، ولعله بذلك كما يقول هو كان: " فرعا من شجرة والدي الشاعر المناضل عبد الرحمن الخميسي". وقد كان لنا معه هذا الحوار الذي يغطي جوانب متعددة من رحلته الطويلة الثرية.

**سيد البدري**

س١- يعتبر البعض أن عائلة الخميسي أو كما يسمونهم « الخمايسة» بداية بالوالد الاديب الفنان عبد الرحمن الخميسي، ثم الابناء وحتى الأحفاد قد ساهموا بنصيب يعتد به في الحياة الثقافية والوطنية، فهل لكم من تعليق على ذلك؟.

ج١- ربما تكون عائلتنا قد قامت بدور ما وطني وثقافي، لكن تلك الحكاية قد بدأت بفلاح مصري هو والدي هاجر من المنصورة إلى القاهرة صفر اليدين، شاعرا بالفطرة والوعي، أو مقاتلا بلا سلاح كما أطلق عليه عمنا محمود السعدني، فلاح جاء من الريف لينشر النور والفن، كما جاء من قبل رفاعة الطهطاوي من الصعيد، وطه حسين من مغاغة، وقد أخلص والدي شاعرا ومقاتلا لمبادئه وناله من ذلك الكثير من العنت والملاحقة والسجن، أظن أنه ملهم العائلة الذي مضينا على طريقه نستظل بمعاركه ضد الملك فاروق، وخلافه مع عبد الناصر الذي أودي به للمعتقل، ثم السادات الذي أجبر المثقفين على الهجرة لفترة. ونحن جميعا أو من تسميهم الخمايسة فروع من تلك الشجرة الكبيرة، آمل ألا نكون قد خالفنا ضمائرنا في شيء.

س٢- يستشعر البعض أن مصر تفقد تدريجيا مع الشام والعراق ريادة الحركة الأدبية العربية، وأن هناك مراكز خليجية تحاول من خلال الجوائز المالية الكبيرة واتاحة النشر انتزاع تلك المكانة، فهل هذا صحيح ؟

ج٢- لا أعتقد أن ذلك صحيح ، فريادة الحركة الأدبية لم تتحقق قط بالجوائز، كانت مصر رائدة بطه حسين وعبد القادر المازني، ويوسف إدريس وغيرهم، ولم يكن للجوائز دور في تلك الريادة، في الوقت نفسه لا أرى ضررا في ظهور الجوائز المالية الكبيرة هنا أو هناك طالما أن الكاتب لا يكتب على مقاس شروط الجائزة.

س٣- شكل اتحاد الكتاب المصري واتحاد كتاب وأدباء الأقاليم حائط صد في مواجهة موجات التطبيع الادبي، فهل أن مقاومة التطبيع في مصر مازالت تحافظ على مناعتها؟

ج٣- لا أظن أن اتحاد الكتاب بمفرده شكل ذلك الحائط ، فقد سبقته وتجاورت معه تنظيمات شعبية عديدة تقاوم التطبيع ومازالت، كان في مقدمتها « لجنة الدفاع عن الثقافة الوطنية « التي أسستها لطيفة الزيات لمقاومة التطبيع الثقافي مع الكيان الصهيوني، وهناك أيضا مواثيق النقابات المختلفة التي جرمت التطبيع ومنها نقابة الصحفيين، ولذلك فإن الشعور الشعبي العام قد تحرك وشكل حائط الصد وبلور الوعي بحقيقة القاعدة الاستعمارية التي أطلقوا عليها صفة دولة واخترعوا لها شعبا.

س٤- هناك من يعتبر أن الحركة الشيوعية المصرية الثانية هي الحركة الاشد تاثيرا من ناحية اسهاماتها في الصحوة الثقافية التقدمية فترة الخمسينات والستينات، فما هو تعليقكم حول هذا الاستنتاج؟ .

ج٤- لا أستطيع الجزم حقيقة إن كان ذلك الاستنتاج صحيحا أم لا، بل وأزعم أن الحركة الشيوعية في الأربعينيات قدمت من التضحيات والاستمرارية والصلابة ما لم تقدمه بعد ذلك الأجيال اللاحقة، إلا أن المسألة تظل مسألة تواصل ذلك التاريخ بصفته تاريخا واحدا لليسار، قد يهدأ فترة ويندلع أخرى بحكم ظروف موضوعية، لكنه تاريخ واحد بلحظات متنوعة.

س٥- يظهر المزج بين الخيال والواقع

في العديد من أعمالك القصصية، مثلما في مجموعة « كناري» وغيرها، هل تعتبر أن ذلك المزج أمسى شرطا من شروط الابداع؟

ج5-أعتقد أن المزج بين الواقع والخيال، أو اختراق الحاجز بين الواقع وصورته الذهنية أصبح مهمة أساسية للأدب، فقد تعرف الأدب طويلا لنحو قرن ونصف من الرواية والقصة على شكل ومواصفات الواقع الخارجي، والشعور بأن الأدب مشبع بشكل الواقع يقود الكاتب للبحث في الخيال عن جوهر ذلك الواقع، عن انعكاس الواقع خيالا وشعورا. وأصبح من المهم جدا أن تلامس الواقع لتحلق منه إلي أعلى. وعلى حد قول إيتالو كالفينو : "إذا قمت بتصوير حديقة حقيقية واقعية فلابد أن يكون الدب الذي فيها خياليا، والعكس إذا صورت دبا حقيقيا فضعه في حديقة متخيلة".

س٦- انت تمثل نموذجا نادرا يجمع بين الكفاح السياسي؛ والكتابة الأدبية والسياسية؛ والنقد والترجمة، بل وكتابة الأغاني الوطنية بدواعي كفاحية، ترى هل كان مكسيم جوركي ملهما لك في فترة الشباب؟

ج٦- في شبابي بل في صباي كان أعمال جوركي في متناول يدي، وغيرها أيضا، لكن من الصعوبة أن أقول إنه كان الملهم على هذا الطريق، لقد ألهمني الكثير من الكتاب وخاصة تشيخوف، أما أندفاعي إلى طريق العمل العام، السياسي، والوطني، فقد قادتني إليه حياتي نفسها، فقد فتحت عيني وأنا صبي في الثامنة على والدي معتقلا عام ١٩٥٣، وأخوالي معتقلون بعد ذلك بتهمة الشيوعية، وحين اشتد عودي وجدت أصدقائي في الستينيات معتقلين، إلى أن دخلت أنا نفسي المعتقل. هذه الحياة بحد ذاتها هي التي ألهمتني تمسكي بضميري، وشعوري بضرورة أن أكون فاعلا ومشاركا في الحياة بكل الطرق المتاحة.

س٧- لجأت إلى التاريخ فى قصتك "ليلة بلا قمر" في المجموعة المسماة بنفس الاسم .. وجعلت أحداث القصة تدور فى عصر المماليك.. متى يلجأ الكاتب للتاريخ؟

ج٧- يلجأ الكاتب للتاريخ عادة في ظروف الرقابة والتضييق على حرية التعبير، فيستخدم صفحة من التاريخ لإسقاط دلالاتها على الحاضر الممنوع الحديث عنه. نجيب محفوظ كتب ثلاث روايات تاريخية، وقال بعدها إنه اكتشف أنه يكتب الحاضر متخفيا في ثوب الماضي، وأن عليه - مادامت هذه هي الحال- أن يكتب الواقع مباشرة ومن ثم انتقل إلي رواياته الاجتماعية" زقاق المدق" وغيرها. التاريخ في الأغلب ثوب يتوارى فيه الحاضر. إلا أن الكاتب في حالات أخرى قد يلجأ إلي التاريخ ليس لأن هناك رقابة أو حظر بل لأنه عثر على واقعة تساعده معطياتها على التعبير الفني عن حقيقة عامة، وعلى سبيل المثال فقد استخدم بريخت في مسرحيته « دائرة الطباشير القوقازية» قصة من قصص الملك سليمان، لأن القصة تحمل دلالاتها بقوة. وأحيانا أخرى يلجأ الكاتب للتاريخ رغبة في احياء معنى محدد كما فعل أبو المعاطي أبو النجا في رائعته « العودة إلي المنفى» عن حياة عبد الله النديم. الدوافع والأهداف من استخدام التاريخ كثيرة، وبعضها يكون لمجرد تسلية القارىء بحواديت عن قصور السلاطين وغرام الأسياد. التاريخ متاح .. المهم لماذا نلجأ إليه وكيف نستخدمه.

الكاتب الدكتور احمد الخميسي و الأديب بهاء طاهر

س ٨-هل تعتقدون باعتباركم من الادباء الذين يستخدمون مواقع التواصل الاجتماعي أنها قد أصبحت متنفسا بعد تقلص المجلات الأدبية ؟ وهل أثرث طبيعة وسائل التواصل في طابع الأدب المتداول عليها ؟

ج8- نعم . مواقع التواصل أمست متنفسا

ليس فقط للأدب، بل ولحرية التعبير عامة رغم قيود تلك المواقع على بعض القضايا خاصة فلسطين. أيضا فإن سهولة النشر فيها من دون انتظار لموافقة جهة النشر في الصحافة المطبوعة، ومن دون التزام بلغة أو موضوع معين، كل ذلك جعلها متنفسا للكثيرين، ويكفي أن نعلم أن عدد المشتركين في موقع واحد هو " فيسبوك" بلغ نحو ملياري إنسان أي ربع البشرية، لكن ذلك لا يعني أن تلك المواقع تؤثر في طبيعة الأدب، ربما تجعل لغته أسهل، أبسط، وتجعل التعبير أكثر إيجازا، لكن ذلك كله لا يؤثر في طبيعة الأشكال الفنية فتظل القصة القصيرة هي القصة القصيرة والرواية هي الرواية والقصيدة هي القصيدة، ما تكفله المواقع من انتشار لا يعني أن تؤثر في الأدب، وإلا لكان ظهور الطباعة قد أثر أو غير من الأدب.

**س9- قلت في حوار صحفي ذات مرة إنك نادم على ما لم تكتبه. ماذا تقصد بذلك؟**

ج9- أقصد أنني لم أتفرغ للكتابة زمنا طويلا، فقد تنازعتني ميول عديدة جرفتني للانخراط في العمل العام بشتى دروبه، وتناهبتني عواصفي النفسية الداخلية فلم أكتب الكثير مما كنت أود لو أنني كتبته. هناك على سبيل المثال الفترة الطويلة التي قضيتها في روسيا، وفي حينه لم أنتبه إلى تسجيل يومياتي وانطباعاتي عن ذلك الزمن والناس والكفاح الذاتي من أجل التشبث في الغربة بهويتك كمصري، تبدد كل ذلك ولم أكتبه، وأشعر بالندم لأني لم أفعل.

**س10- كتبت عملا مسرحيا واحدا هو مسرحية " الجبل " التي فازت بجائزة نبيل طعمة السورية عام 2011 ، لماذا لم تكرر التجربة ؟**

ج10- حبي للمسرح قديم، لكن هذا الولع مثل معظم قصص العشق كان ينتهي أحيانا بالإحباط، عندي عشق قديم للمسرح لم يتحقق، للحوار، للمشاهد المشبعة بالصراع والخلافات واستعراض الشخصيات المختلفة، لكن ذلك لم يجد الفرصة أو عكوفا كافيا لكي يظهر إلا مرة واحدة تكاد تكون بالمصادفة في مسرحية" الجبل"، لكني اعتبرت أن علاقتي بالمسرح مثل شخص يمضي على الطريق ويرى فجأة فتاة باهرة الجمال فيتجمد أمامها، ويتعرف إليها ويصافحها ثم ينصرف ليكمل مشواره. المسرحية كانت لحظة جميلة انصرفت بعدها إلى مشواري في عالم القصة.

**س11- تمتاز أعمالك بجمال اللغة وموسيقاها ..من أين اكتسبت تلك اللغة؟**

ج 11- أشار الاستاذ علاء الديب إلى ذلك في مقال له حين كتب عن مجموعتي " كناري" قائلا : " هذا كاتب لا يرضى الا عندما تشف اللغة وتستقر على شاطيء الموسيقى"، وأظن أن هذا يرجع إلى علاقتي بالموسيقى التي وفر لي والدي فرصة سماعها منذ الصغر، وإلى علاقتي بالشعر وحفظي له، وأسهم صلاح جاهين برباعياته القصيرة المدهشة في اجتذابي إلى حفظ الشعر وتكراره وأن أتشرب أوزانه حتى تمسى جزءا غير مرئي من تكويني اللغوي.

**س 12- درست الأدب الروسي ولك باع كبير في ترجمته.. ماذا استفدت من علاقتك بالثقافة الروسية؟**

ج١٢-استفدت الكثير من دراسة الأدب الروسي، وأظن أن كل من يدرس أدب شعب آخر يجد هذه الفائدة : أولا أن تتعرف روحيا على شعب آخر عبر آدابه، ثم تتعرف إلى تقاليده وطرق تفكيره ونفسيته أيضا، فتخرج بأهم النتائج وهي أن الانسان هو الانسان مهما اختلفت لغاته، وهي نتيجة مهمة جدا، وتستخلص أيضا أن طرق التعبير تختلف في شيء أو آخر، لكنها أيضا تتفق في الكثير. دراسة أدب شعب آخر يجعلك توقن تماما أن الانسان هو الانسان، بل

وقد تجد لديه أحيانا نفس كلامك، نحن نقول في الأمثلة الشعبية : " إن سرقت اسرق جمل وان عشقت اعشق قمر"، والروس لديهم مثل يقول : " إن أحببت فاعشق ملكة وإن سرقت اسرق مليون". وبالمناسبة فإن الأدب الروسي بالذات له علاقة وثيقة بالثقافة العربية، فقد ترجم ليف تولستوى العديد من أحاديث النبي» صلعم» ونشرها في كتاب بعنوان « حكم النبي محمد» وكتب بوشكين أمير الشعراء الروس» ليال مصرية» وكتب قصيدته الشهيرة " قبسات من القرآن» من تسع مقاطع. أنت تكتشف من دراسة الأدب أن الآخر هو أنت بصورة أخرى، وأظن أن ذلك يحدث مع دراسة الآداب الأخرى، وفي ذلك تحديدا تكمن قيمة الأدب، إنه يكشف لك عما هو مشترك في الانسانية.

**س 13 – ترى ماذا ورثت عن والدك الأديب الراحل عبد الرحمن الخميسى؟**

ج 13–ورثت عنه استهانته بالمال، وشعوره بالكرامة، وحبه الناس، والموهبة، وحرصه أن يظل حرا، حتى أن شاعرا مثل كامل الشناوي حين سألوه : " من كنت تود أن تكون؟ " أجاب : " كنت أود أن أكون الخميسي، الذي كلما عاندته الحياة لوى ذراعها". ورثت شعوره بأن حريته الباطنية أهم من أي شيء، فلم أقم يوما بمدح مسئول أو حاكم ولم أنافق يوما قوة أو سلطة أو مال ونفوذ، لم أفعل ذلك قط ، وفي كثيرمن الأحيان كنت أتذكر عبارة يوسف إدريس : " ربما لم تتح لي الظروف أن أقول الحقيقة كلها، لكن كل ما قلته حقيقة". ومع أنني لم أرث عن والدي خصالا أخرى كثيرة وجميلة، إلا أن ما ورثته يكفيني لكي أكون راضيا.

**س ١٤– ماذا تعد للعام الذي نشهد بداياته الآن ؟ عام ٢٠٢٣؟**

ج١٤– لدي كتابان ، أكاد أفرغ من الأول منهما وهو بعنوان : « مصريون وروس» مقالات عما هو مشترك بين الشعب المصري والروسي وما يميز كل منهما، ولدي أيضا مجموعة قصصية شبه جاهزة بعنوان « دراجات نارية».. ولدي مشاريع كثيرة آمل أن يتوفر لدي الجهد والإرادة والأمل لكي أنفذها.

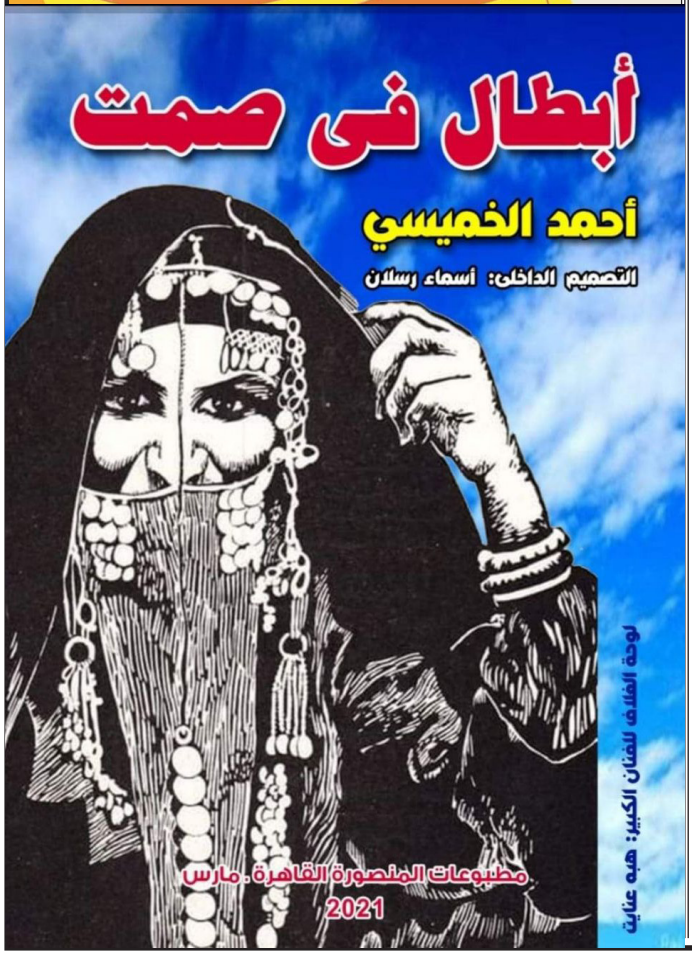

## نص قصصي

# يـــوم الزيـــارة

محمود فنون

**كانت في زيارة لابنها الأكبر في العراق، وهذه المرة الثانية التي ذهبت فيها لزيارته، كانت الزيارة الأولى في آخر كانون الأول عام 1974م وامتدت حتى بداية كانون ثاني 1975م.**

**هو ابنها الأكبر وكان في سفرة طويلة امتدت اثنتا عشر سنة متصلة، هي اثنتا عشر سنة من الفرقة، اثنتا عشر سنة من عذاب الشوق والحسرة، بل هي سنوات انقضت يوما بيوم يملؤها الحنين وتزخر لياليها بالحلم، أحلام النوم وأحلام اليقظة.. وهل تنام أم وابنها في الغربة لا تكاد تعلم من أخباره شيء؟**

**إن الفرقة أشد من الرمضاء لسعا على قلب الأم الفلاحة التي تربت طوال عمرها معتدة "بالعزوة".. العزوة الذين تفرقوا.. تفرق ثلاثة من فلذاتها (الخمسة)، واحد إلى الهند والثاني إلى الجزائر والثالث ابتلعته سجون الاحتلال للمرة الثانية ..**

**تملأ خيالها يوميا برؤيتهم مجتمعين حولها.. يجلسون على مسطبة الدار.. يتناولون أقراص السنبوسك التي صنعتها بيديها الماهرتين وخبزتها في الطابون، ونضجت حتى تقمّرت تفوح منها روائحها الشهية.**

– سأصنعها من اللحمة الحمراء هذه المرة قالت في نفسها.. الأولاد كبروا.. لا..لا.. لا أستطيع هذه المرة صناعة السنبوسك من زوائد اللحمة التي يضعها اللحام بجانب الميزان.. ساق الله على تلك الأيام كنا في بيت واحد.. فنشتري من أجل "الزفر" حرصا على صحة الأولاد، لحمة "قطيم" مع بصل، ومع الفلفل والبهارات وعجين القمح البلدي.

– لا.. لا اليوم الحال أفضل يمكن أن نشتري ثلاث كيلو لحمة نظيفة، والمرة سوف أحشوا العجينة كلها باللحمة وليس مثل أيام زمان حيث يضع الناس ما تيسر "الريحة ولا العدم".. صاحبنا يحب السمبوسك جدا.. هذه المرة سوف أخبز كمية كبيرة وليأكل الواحد قدر ما يشاء بدون تقسيم.. سأضع الأقراص في الصينية، وليأكلوا حتى يشبعوا.

– أي لعن الله أبو الفرقة والله اليوم الحال أحسن ..

لا أحسن ولا شيء.. الحال أحسن باللمة وبدون يهود ..

– ولكن الامكانيات أحسن.. وأصبح في بيتنا غاز ثلاث عيون، وبيت خارج داخل البيت!..– والله الدنيا هيك وهيك، يوجد ما هو أفضل

ولكن.. اليهود.. الاحتلال!...

---

حرق قلبها الاشتياق وقررت الانطلاق الى بغداد صبيحة اليوم التالي، ولم تهدأ نفسها إلا حينما رتبت حقيبتها وحزمت أمرها وشدت رحالها ورأت نفسها تسير في الطريق.

---

- "في أي يوم نحن؟" سألت ابنها.. بغداد جميلة قالت في نفسها ثم كررت السؤال على ابنها.

- "الاربعاء "أجابها

- "يا يما.. يعني بعد غد الجمعة؟" سألت بلهفة وقد تشوش كل شيء في رأسها.

- "يعني.. يعني بعد غد الجمعة" قالت ذلك وقد لاحظ ابنها أنها تتكلم بصورة غير عادية وهي تقريبا شاردة الذهن. وتساءل في نفسه إن كان يوم الجمعة القادم هذا ليس كبقية الأيام، وقد لاحظها صامتة ولاحظ في صمتها حزما.. لاحظ في صمتها أمرا ما لم يفهمه.

- "ما بك يا أمي؟" سألها علّه يفعل لها شيئا أو يفهم منها سبب تغيرها الواضح.

- "سأسافر الآن" قالت بصوت يملأه الحزم والشوق والأسف في آن واحد.

لم يمض على زيارتها لابنها أكثر من ستة أيام

- "رأيته" قالت في نفسها ولكن لا أستطيع الغياب عن يوم الزيارة.. إن لم أذهب أنا فمن يذهب لزيارته؟"

أخذت تلملم أغراضها بطريقة تعبر عن أقصى درجات الاصرار، والدمع يملأ عينيها الاثنتين

---

لقد سبق أن ذهبت الى بيروت حينما عرفت أن ابنها هناك قادم من الجزائر. لم تكن قد دخلت لبنان ولم تكن تعرف أي عنوان هناك، كل ما كانت تعرفه أن ابنها مسافر الى لبنان، وأنها لا يمكن أن تفوّت هذه الفرصة دون أن تراه دون أن تشمه، بعد غياب ست سنوات متصلة.

هل يمكن لأم قطعت الظروف بينها وبين أولادها بسبب حرب 1967م أن يعجزها جهلها بلبنان عن رؤية ابنها، وتجلس في بيتها تزفر الحسرة تلو الأخرى؟

لقد طارت بجناحين ملائكيين، وحطت في بيروت، واهتدت إلى ابنها بخطة محكمة اتبعتها بدقة متناهية حيث أمسكت بأول الخيط من خلال جامعة بيروت العربية وسألت عن طلبة من فلسطين، كانت بثوبها الفلاحي تتميز بين الجموع. وفعلا هرع إليها أبناء فلسطين فسألتهم عن أبناء القرية، أبناء القرية هناك، ومن خلالهم الى من

يستطيع أن يرشد عن مكان وجوده ودلوها، وقد طاولت السماء أو ما هو أبعد من ذلك.

---

– هل من المعقول يا أمي أن تسافري بهذه السرعة؟ سألها متبرما من الفكرة.

– بللت شوقي قليلا برؤيتك، فقط أوصيك بأن تتدبر أمرك وتتزوج أريد أن أرى أولادك أو على الاقل زوجتك..“

ثم أردفت وهي لا تدري إن كانت تكلمه أو تكلم نفسها

– ”يا حبيبي أخوك في السجن كما تعلم، ويوم الجمعة القادم علينا هو موعد زيارته.. من يزوره غيري.. لا زوجة ولا ولد.. ولا حتى أب...“

---

إن يوم الزيارة ليس يوما عاديا..

يبدأ المعتقلون بتهيئة أنفسهم للزيارة قبل أيام من موعدها، بعضهم يتدبر قميصا معينا من زملائه وبعضهم يريد ملابسه مكوية، ومعظمهم يقصون شعورهم، وصباح الزيارة يحلقون ذقونهم.. إن يوم الزيارة يقطع سياقا فيبدأ بعده سياق جديد، يساهم في كسر سيلان الزمن.

– ”بعد غد زيارة الضفة“ قال أحدهم

– ”ليتني أزور معكم“ قال آخر. ”لقد حكمني المدير بمنع زيارتي لمدة شهرين متتاليين“

– ”ستأتي أمي وأختي هذه المرة، لم أر أختي منذ ثلاث سنوات“ قال لصاحبه ”قد كبرت خلالها، وأنا كذلك كبرت، تخيل: إننا نكبر داخل السجن! وأهلنا يكبرون وهم خارج السجن“!

– ”أقول لك بصراحة: قبل ثلاثة أشهر، شاهدت صبية جميلة جدا، كانت تزور أحدهم بجانبي، طار عقلي معها، وهذا يجيب على سؤالك يومها عندما عدت من الزيارة ولاحظت أنني في مزاج غير عادي ولم أتقبل أسئلتك، عدت يومها وطمرت رأسي تحت البرش وتمددت نائما حتى المساء.. هي فتاة أرق من النسمة، وأبهى من القمر، وأشهى من كل شهي في الدنيا، نظرت إليها وأظنها بادلتني النظرة، فشعرت حينها أنني بائس.. إن السجن قبر وأنا ميت فيه، وهي نجمة الصبح وأنا لا أشاهدها حقيقة.. أنا لم أعرف حينها من أنا.. فقط طمأنت نفسي أنني في حلم جميل كي أتمكن من التماسك الداخلي والاستمرار في التعامل الطبيعي مع أهلي.. ربما لاحظت أمي نظراتي وحالي.. لقد شاهدتها توزع نظرتها بيننا مصحوبة بتنهيدة عميقة، وغامت عيناها ثم رمشت بشكل متواصل، ربما أنها كانت تداري دمعة حرّى.. وسألتني عن أحوالي في السجن“

وبعد لحظة صمت:

– يا صاحبي شعرت حينها أنني إنسان تعس.. ماذا فعلت لأمي سوى أنني أسبب لها الحزن العميق الذي تداريه أمامي؟ لقد حلمت كثيرا بيوم عرسي وضبطّها أكثر من مرة تحدث نفسها في شؤون الخطبة

والزواج.. كان وجهها يتغير.. يمتلئ وجهها سعادة ويكشف ثغرها عن ابتسامة رقيقة، ثم ينقلب حالها ...“

– ”لا تقلبها غما يا صديقي، فحالنا كله من بعضه. ثم قل لي: هل يتملكك كل هذا الاحساس المرهف وقلما يظهر عليك مثل هذا؟“

– ”إنني في أغلب الأحيان أتماسك وفعلا أنا كما قلت لي مرة بأنني أتمتع بصلابة، وأتفهم ظروف الرفاق ومشاعرهم، وفي الحقيقة أنا مثلهم، فربما يكون الثوريون أكثر رهافة من غيرهم إلى جانب ما يتمتعون به من صلابة وترفع عن بعض الأمور...“

– ”أنظر إلى هذا.. إنه يتجمل قدر استطاعته، وقد أعطى ملابسه لصاحبه الذي يعمل في المغسلة وأعادها له مكوية بينما الذي يقف بجانبه استعار ألبسة صديق له من غرفة ثلاثة من أبناء قطاع غزة، يقول إن أناسا يشبهون الملائكة من المحتمل أن يأتوا مع زائريه.. نظف شعر وجهه كله بالخيط ورتب حاجبيه وشاربيه وكأنه في ليلة عرس ..“

– ”كما ترى كل الشباب مشغولة بالزيارة.. وبعضهم يتمنى أن تكون زيارته مع فوج أناس معينين من أصدقائه..“

أليس جميلا أن تأتي أمهات متطوعات لزيارة معتقلين من الدوريات ليس لهم أقارب، وبعض الزائرات يزرن أبنائهن ثم ومكررا يطلبن زيارة أحدهم من لبنان أو من العراق، أو يأتين في موعد آخر لزيارة أسرى الدوريات من العرب.

– إن الزيارة تعني لقاء أناس آخرين غير نزلاء السجن، كما تعني أربع علب سجاير عمر وربما يتاح للمرء أن يدخن سيجارة أو اثنتين بالكعب (الفلتر) بل إن بعضهم يستطيع أن يهرّب عددا من السجائر من تحت أنف السجان ويكون سعيدا بغنيمته إلى جانب سعادته بتفوقه على التفتيش...

غير أن الأهم هو تبادل الأشجان والأحزان والأفراح من وراء شبك الزيارة

”..أخوك مريض.. بنت خالك تزوجت.. سجنوا أولاد الجيران.. سافرت إلى الأردن.. ابن فلان تخرج من الجامعة، كان ابن صفك... عرس ابن الجيران كان جميل جدا تمنيت أن يكون عرسك وبكيت...“

نادوا على اسمه مع الفوج الثالث، خرج معهم من الغرفة ليتجمع آخرون من القسم، وبعد انتظار تحت رقابة الحراس، يفتحون باب القسم فيلتقوا مع الزائرين من أقسام أخرى.. إنه يوم عيد.. إنهم يلتقون من مختلف الأقسام.. أكثر من عشرين سجينا.

لا يرون بعضهم من أقسام مختلفة، تفصل بين القسم والقسم حواجز من الأسلاك الشائكة والمنع مما يجعل القسم عن الآخر وكأنه في ولاية أخرى.

– ”اليوم نرى بعضنا في الغرف المتجاورة بفعل النضالات والاضرابات وتكرار الاحتجاجات، بينما قبل سنتين ما كان يسمح لأحد في غرفة اثنين أن يتصل بمن هو في غرفة واحد وهما متجاورتان لا يفصل

بينهما سوى حائط إسمنتي.. أما الأقسام فكانت مفصولة عن بعضها تماما كما لو كان كل قسم في دولة ..“

– ”الاضرابات والمصادمات والثبات على المواقف زحزح إدارات السجون شيئا فشيئا وتمكن المعتقلون من انتزاع بعض التحسينات.. اليوم يمكنك أن تفرش البرش في النهار وتجلس عليه بينما كان هذا جريمة يحاسب عليها السجين بقطع الزيارة وأسبوع أو اثنين في الزنازين..“

– ”أنا سعيد أن ألتقي بك يا صديقي وإن شاء الله نجلس بجانب بعضنا على شباكين متجاورين..“

– ”إذا دخلنا قبل الأهل نجلس بجانب بعضنا أما إذا أدخلوا الأهل قبلنا، فالمسألة مسألة حظ..“

---

كانت غرفة الزيارة على مسافة من الأقسام، وهي عبارة عن غرفة مستطيلة مقسومة قسمين بشكل طولي ويتخلل الجدار الفاصل شبابيك متجاورة عليها حمايات وشبك بفتحات صغيرة على شكل مربع ضلعه واحد سنتمتر فقط.

على كل شباك كرسي يجلس عليه السجين ومن الجهة المقابلة كرسيين اثنين.

– ”في السجنة السابقة كنا نزور في ساحة مكشوفة مقسومة بشبك طبقتين وأسلاك شائكة يقف المعتقلون في جهة وأهلهم في الجهة الثانية“..

---

– ”توقفوا“ صرخ السجان بجلافة حينما اقتربنا من باب غرفة الزيارة. ”أنت اسكت.. ولا واحد يتكلم..“

قام أحدهم بعد المساجين وتسجيل الرقم على ورقة يحملها بيده، ثم أمر بتفتيشهم واحدا واحدا، وكل واحد يخلع نعليه ويفتشها السجان وحتى ”البابوج“ يخضع للتفتيش.

بعد إجراء التفتيش الجسدي بخشونة، يقرأ الأسماء اسما اسما ويدخلهم آحادا حيث يستقبلهم حراس آخرين ويأمروهم بالجلوس حسبما أرادوا، ولم يكترثوا كثيرا لرجاء المعتقلين الذين رغبوا في الجلوس المتجاور.

– ”اسكت.. تشمور على شيكت.. إذا حصلت أي فوضى نلغي الزيارة.. إذا رفع أحدكم صوته نحرمه من الزيارة..“ وتوالت التهديدات.

دخلت واحدة من الزائرات وكان وجهها ممتقعا

– ”لقد فتشني هؤلاء الكلاب وكل قطعة من جسدي.. كانت تفتشني السجانة والجنود واقفون. ثم أدخلتني إلى معزل وأصرت أن تفتش

ملابسي الداخلية. وإحدى الزائرات لم تتحمل التشديد في الاهانة والاذلال فصرخت ولم يسمحوا لها بالدخول، وحينها أخذت تبكي بصوت يقطع القلب خشية أن يمنعوها بعد أن وصلت إلى ابنها ..“

إن الشرطي في أقل رتبة يستطيع أن يتحكم في مسار الزيارة بالتفاصيل وكذلك بالجملة ويستطيع طرد الزائر أو السجين ويستطيع خلق أجواء من النكد والاشمئزاز، بل إن بعضهم يرى لقاءات الأهل وكأنها ترف تم انتزاعه من جلده.

---

دخلت وعيناها تسبقانها تفتش عن ولدها، كانت تشدّ جسدها إلى أعلى وتقطب حاجبيها وتزم فمها وكأنها عطشانة وتبحث عن قطرة من الماء لا.. لا.. بل كأنها تريد أن تتأكد أنها وصلت إلى المكان الصحيح وأنها سوف تجد شفاء روحها ووجعها الذي سعت إليه من بغداد حتى بئر السبع..

تغير لونها لقد أصبح أكثر إشراقا ثم أعادت ترتيب شكل وجهها مستهدفة التعبير عن سعادتها بابتسامة سرعان ما هاجمها الدمع فأجهشت في البكاء للحظات.. ثم جففت عيونها بكمها وأخذت تدفع بالابتسامة من بين الدموع، وبان عليها السرور وامتلأ وجهها حيوية وعادت إليها إشراقتها وأخذت تتلمس الشبك الفاصل، ويغالبها الدمع تارة وتبزغ من بين الدموع والتقلصات ابتسامة وكأنها منتزعة غصبا، إلى أن هدأت نفسها بعد أن تأكدت أنها وصلت في الوقت المحدد وأنها دخلت فعلا، وأنها تجلس قبالته بدون أي شك.

– ”يا حبيبي.. آه لو تعلم.. ثلاثة أيام وأنا في السيارات حتى وصلتك.. إنني لا أصدق نفسي.. كنت يوم الأربعاء في بغداد، وأخوك بخير“ قالت وهي تتعجل الكلام راغبة في توصيل كل ما تريده معا وفي جملة واحدة.

من الواضح أن صدرها يفور اشتياقا وأنها راضية عما فعلت كما لو كانت حققت انجازا هاما..

– ”وصلت صباح الخميس.. وتوجهت بعد أن استرحت قليلا إلى الجسر حيث نمت ليلة الجمعة في البيت“

نمت؟

لا أعلم إن نمت أو غفوت أو أسهدت

فقد كنت في الرابعة صباحا أمام مكتب الصليب الأحمر في المدينة وقبل وصول الباص.

ثم تحرك بنا الباص ليصل في الموعد المحدد إلى مكان الانتظار تحت حراستهم.

فيأخذوا بمراقبة كل حركات الأهل ويصرخون كي نظل جالسين وصامتين ومعنا الأولاد الصغار الذين لا يهجعون

كـدت أن أمـزق شـرطية تطاولـت علينـا وكأننـا حثـالات أمامهـا، ثـم قلـت في نفسـي "سـيطردونني بـلا زيـارة"

ولم أصـدق نفسـي حينمـا نـادوا علـى اسمـك للزيـارة.. التفتيـش قاسـي جـدا.. وهـو لا يحتمـل، والله لـولا الشـيء الأهـم لمزقتهـا هـذه الشـعثاء الـتي تصـرخ فينـا، والحمـد لله ضبـط نفسـي، وتنفسـت الصعـداء حينمـا قالـت لـي ادخلـي.."

– "احتجينـا عليهـا للضبـاط، وأحدهـم قـال اكتبـوا شـكوى.. نشـتكي لمـن؟ الله يلعـن أبوهـم.. الله يمسـحهم عـن وجـه الأرض بـدل هـذا الاذلال وهـذا التحكـم في مشـاعرنا.."

"إخوتـك بخـير والحمـد لله، إخوتـك في الخـارج وإخوتـك في البـلاد يهـدوك السـلام ولا ينقصنـا شـيء.. كل أهـل البلـد يهـدوك تحياتهـم وكل.." .

**محمود فنون**

كتابة احمد حسين :

# هيكل

# نماذج ليبرالية

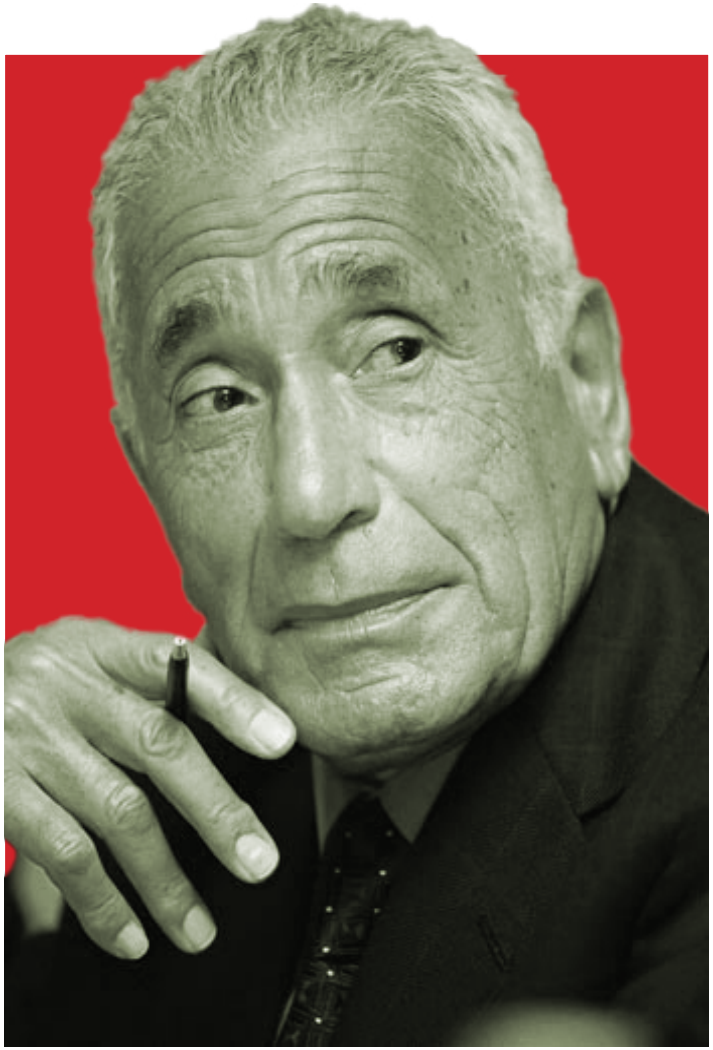

## احمد حسين :

كان محمد حسنين هيكل في مرحلة عبد الناصر ، يعامل جماهيرياً على المستوى القومي العام ، كأغنية وطنية من أغاني الثورة . كان الرجل يجيد الكلام ويجيد التحليل بأسلوب شيق يبدو موضوعيا إلى درجة المحايدة وعدم الإنحياز . ولكن أهم ميزة لديه هي لغة الصحفي اللبق الذي يجيد الإقتراب العقلي من المتلقي المتوسط الثقافة ، وبما أن الغالب على ساحة التلقي العربية هو المثقف الشكلي والمتوسط الثقافة ، الذي تأسره عادة هذه اللغة المتواضعة التي ترضي غروره ، فقد وجد هيكل نفسه ، بحميمية الموقع من الثورة وقائدها ، وبأسلوبه الدرامي المثير ، وتواضعه الظاهر ، الذي يصل أحيانا حد مداهنة القاريء أو المستمع ، وهذا حق مشروع واسلوب مشروع في التسويق المهني والشخصي على حد سواء .... وجد نفسه أقرب المشاهير على ساحة ثورة يوليو ، بعد عبد الناصر ، إلى قلوب الجماهير العربية .

ومن أشهر الحركات الفنية في أسلوب هيكل هو تدوير الموقف حول الواقعة أو النص ، واختيار أحدها بالترجيح فقط بتردد مصحوب بالإعتذار ، وأحيانا بالعودة بالتشكيك إلى شيء سبق وقاله في السياق . وقد يكون هذا حرصا على الموضوعية ، أو حرصا على التنصل من المواقف الملزمة . خاصة وأن هيكل كان يحرص على التوثيق بالرواية أو النص المكتوب شاهدا على ما يقول . ولكن إدمان الوجدان الفني لأم كلثوم ، جعل عشاقها يغفرون لها أغانيها الأخيرة التي لحنها لها عبد الوهاب وبليغ حمدي .

ويبدو أن الوجدان العاشق الذي كان يغفر لهيكل بعض مداوراته النصية ، ما زال يغفر له اليوم مواقفه السياسية المحيرة ، وخاصة تلك التي قام بأدائها على شاشة قناة الجزيرة .

ومن حق هيكل علينا قبل مناقشة حلقته الأخيرة في الفضائية المذكورة ، أن نشير إلى بعض ملابسات المرحلة الجديدة التي شكلت افتراقا جوهريا في التناقض والعداء لمرحلة عبد الناصر ، وأحدثت انقلابات جريئة في المواقف على الساحة . أهم هذه الملابسات هي أننا نعيش اليوم مرحلة العودة إلى الأمام ، التي أحدثتها القوى الدولية في المشاعة العربية ، والتي تسميها أمريكا وقناة الجزيرة بالربيع العربي . وداخل هذه الملابسة الأم ، ملابسات أخرى تشكل في طابعها وأهدافها الجوهرية ، سلة الأهداف الخاصة بالربيع المذكور . ومن استجواباته المتعددة في قناة الجزيرة خلال السنوات الأخيرة ، نلاحظ مدى الضغوط التي كانت تمارسها هذه الملابسات على هيكل ، وكيف ظل غارقا في التوتر والحذر وكثرة الإستدراك ، طيلة هذه الإستجوابات .

الملابسة الداخلية الأولى هي أن الدول الغربية أوكلت تنفيذ الإنقلاب الربيعي العربي ، إلى أهم فصائلها على الساحة العربية ،

وهم الإخوان المسلمين والليبراليين . أما الإخوان المسلمين فهم يشكلون الجناح العسكري للفتح الإسلامي الأمريكي لمناطق الفتح الإسلامي العربي . وعلاقة هيكل مع الإخوان بالعودة إلى خطابه السياسي القديم والجديد تتسم بكثير من التحوط ، وملامسة النفاق ، والتبرئة غير المباشرة ، لدورهم السياسي . ومع أن هذا يمثل الطابع المشترك لمقارباته لكل القوى على الساحة المصرية والعربية والدولية أيضا ، كما أشرنا ، إلا أن المغالطة ، وتجاوز المواقف ، والتجاهل ، والسطحية المتعمدة ، كانت دائما عماد توصيفه لحركة الإخوان المسلمين . ولعل عنصر التملق المهني كصحفي يريد فتح الباب أمام مصادر المعلومات ، كان هو شاغله في مقارباته للقوى الأخرى ، ولكن عنصر السلامة كان هو الشاغل الأهم بالنسبة له ، فيما يتعلق بمقاربة الإخوان المسلمين . فمن الواضح أنه ، كان كان يبدو عند الكلام عنهم ، كصحفي متوسط ، تنقصه الكثير من المعلومات بشأنهم ، لدرجة أنه اعتبرهم حركة سياسية موضوعية ،وشرعية وصحية بالكامل في المجتمع المصري . فكون المصريين متدينين في نظره هو رصيد تلقائي لحركة سياسية دينوية ، ومبرر موضوعي لارتكاب الشرعية والبراءة وموضوعية الوجود لفئة سياسية ذات مشروع طائفي يستخدم الدين آلية استبداد اجتماعي ، ومحمية سياسية لممارسة فقه الإستبداد ودعم مشروع الإستغلال الطبقي والفئوي . فشخص في مثل ثقافة هيكل لا يمكن أن يجهل هذه الحقيقة ، ولكن للأسف يمكنه تجاهلها . لقد كان هيكل كصحفي بارز عين ثورة يوليو ونافذتها على العالم السياسي ، ومستشارها المقرب . وكان الإخوان المسلمون عدو الثورة الأول ، والعدو السياسي والإيديولوجي الإستراتيجي للأمن الوطني والقومي في مصر والعالم العربي في ظروف ثورة قومية تدعو للإشتراكية . فكيف يمكن القول أن رجلا كهيكل موجود في صميم الملابسة الإشكالية الأكبر في حياة الثورة ، كان يجهل علاقات الإخوان بشركائهم الغربيين في محاربة « القومية الممنوعة » الوحيدة في العالم ، وهي العروبة . وثقافيا وفكريا ألم يكن هيكل يعرف أن الموضوعية التاريخية والإجتماعية ، تحتم أن يلتقي الإخوان جدليا مع الغرب . أم أن علاقتهم المفروضة والطبيعية هذه ، استطاعت أن تتجاوز جدل السياسة والإجتماع والحاجة ، وتكون نفسها في فجوة فراغها الخاص . وكيف يمكن تصور أن هيكل بثقافته التاريخية العميقة كان يجهل ، أن الفكر الدينوي كان دائما هو حليف فكر الإستبداد على مر العصور ؟ هل كانت الكنيسة حليفة للإقطاع ثم للملك ثم للإستعمار ثم للمحافظين الجدد بالصدفة ؟ هذا كلام مدرسي من العيب قوله لرجل في ثقافة هيكل تجاوز المراقبة إلى الإنغماس في الفكر التاريخي . ولكن هل من العيب أيضا أن يتجاوز هيكل أمانة الفكر والمعرفة ، لأي هدف ذاتي كان ، خاصة مع عشاقه على ساحة الإلتزام الذي قربه من الملايين ؟ ألم يعرف المؤرخ البارز أن الرجال الدينويين كانوا عبر العصور يمثلون عدمية الإلتزام والإيمان بحكم أنهم أتخذوا من الدين آلية للدجل السياسي والإرتزاقي . هل نسي أن الكرادلة الذين كان يستوزرهم النظام الملكي كان معظمهم من الملحدين ، وأن باباوات الكنيسة كان بعضهم من اللاأخلاقيين ، وكلهم ملوكا دينويين

استبداديين ؟ فهل يعتقد حقا أن الكرادلة والبابوات الإسلامويين سيكونين مختلفين ؟ لقد كان على ذكاء هيكل أن يحميه من الإضطرار إلى الكلام التهريجي ، وتفضيل الصمت عليه .

وهيكل بدليل توجهاته الفكرية والتفكيكية ليبرالي حتى النخاع . وفي الحقيقة أن المثقف العربي يشبه الإسلامويين إلى حد بعيد ، من حيث انفتاحه على العدمية وتحين الفرص وتسويق الإلتزام . فهو غالبا ضعيف الشخصية ثقافيا ، وارتزاقي مريض بحب الذات ، منبهر بالشهرة ، ومبتلى بعقدة الموقع . وقد أثبت بشكل لا يقبل الجدل أنه أسوأ عينات المشاعة العربية اجتماعيا وأخلاقيا ، وأرداً مثقفي العالم . وليس هذا تعميما على الإطلاق ولكن على الإكثرية . فقد كان نجاح الغرب في تجنيدهم مذهلا ، يمتد من القمة إلى القاع . وفي حين أن الإسلامويين يشكلون تنظيما فئويا بعيد الأهداف ، فإن هؤلاء يمثلون ظاهرة خريفية للسقوط الفردي الإرتزاقي بأشكاله . فما أن فردت أمريكا حلواها على الرصيف حتى تساقطت كثرتهم عليه مثل الذباب . وكان كما يبدو ، على هيكل أن يحمي رصيده الفخم على ساحتهم ، من ناحية ، رغم احتقاره المؤكد لهم مستوى وسلوكا ، لآنهم يشكلون في نظره معادلة العرض والطلب الثقافية . ولكن ليس هذا هو الأهم على أهميته ، في اعتقادي . إن المودة الفكرية للغرب ، كانت دائما هاجسه الأول . فهو ساحته الثقافية ومصدر شهرته كصحفي عالمي . ولديه صداقات سياسية وصحفية معروفة هناك ، هذه الشبكة من العلاقات ، ظلت تشكل ساحة طموحه في الشهرة وتبادل المعلومات ، ونمطه الفكري الليبرالي . إنه لن يسيء علاقاته بهذه الشبكة المتعددة المنافع ، تحت أي ظرف كما فعل حينما كان سفيرا صحفيا للثورة هناك . وبعد ازدهار الربيع العربي والسقوط الوشيك للمشاعة العربية تحت التأثير السيادي المباشر للغرب ، بوكالة إخوانية ليبرالية ، لم ير هيكل أي بأس في الإنحياز المتحفظ إلى الموقع السيادي الجديد كعادته . فهو كليبرالي ، وكمثقف عربي ، وكمكره أخوك لا بطل ، يدرك شرعية انحيازه العلني ، إلى الواقع . وقد يبدو هذا تفكيرا مقبولا في حالة رجل أو مثقف عادي ، ويشوبه الكثير من التحفظ في حالة هيكل . وهذا يقود إلى ملابسة ذاتية كان لها أهمية حاسمة في تحول هيكل ، رغم ضيق مساحة المستقبل أمامه كرجل في الثمانينات ، أطال الله عمره .

من لم يلحظ نرجسية هيكل الفاقعة ، خلال مخاطباته ، فهو من ضحايا الغفلة التي تسببها الرموزية . لم يتحدث هيكل عن أحد من أبطاله أكثر مما تحدث عن هيكل . كانت لفتاته المتواضعة عن دوره ، وحكاياته الهامشية عن نفسه في السياق ، وتأثر الآخرين بآرائه ، تبدو وكأن الرجل يتلو سيرته الذاتية ، وأنه هو الشخصية المركزية في الموضوع ، والباقون في السياق ظلال خلفية لحضوره . وأكثر ما كان يفعل ذلك حينما كان يتحدث عن عبد الناصر ، لآرتفاع الجدوى . هذا الكلام من جانبي لا يمكن قبوله على عوهنه كما يقولون . وعلى المعني باكتشاف الحقيقة العودة إلى حلقات « مع هيكل !! « التي بثتها قناة الجزيرة . مع هيكل في ماذا ؟ . ولماذا على البرنامج أن يحمل أسم الراوية بدلا

من الموضوع ؟ هل علينا أن نعرف عن ثورة يوليو ورجالها وعن عبد الناصر من خلال علاقتهم بهيكل وليس من خلال علاقة هيكل بهم ؟ أعتقد أن قناة الجزيرة توزع الإشرطة الخاصة بالمقابلة بأسعار رمزية ، ولن يكون الحصول عليها صعبا . هناك ستسمع عبد الناصر وهو يتحدث عن هيكل بصوت هيكل نفسه . ون المؤكد أنه كان لحميمية قناة الجزيرة ، الموقع الليبرالي الشامل ، تأثيره على الإسم والمضمون السياقي ، ولكن فقط برضى هيكل ودوافعه النرجسية المستحكمة .

أعتقد أن هذا التمهيد المطول كان ملزما لهذا المقال ، الذي يزعم أنه وجهة نظر خالية من أي تفكيك غير موضوعي في المضمون . أما الدافع للكتابة فهو فضح النموذج الليبرالي العربي وعدميته ، وإسهامه في مؤامرة الآخر خيانيا ، على مصير المجموعة البشرية التي ينتمي إليها ولو بجغرافيا الموقع المشترك . يمكننا أن نرضخ لمصيرنا القسري ، ولكن لماذا نتطوع إعلاميا وفكريا بالكذب لمصلحة ذلك الآخر ؟ هذا التساؤل هو الذي يمكن أن ينقلنا إلى ردود هيكل على استجوابه الأخير في ..... الجزيرة !!

كان المذيع المجاور أثناء هذه الحلقة ، كعادة مذيعي الجزيرة كموقع استعلامي لا علاقة بمهمة الإعلام الحيادي ، يحاول جر هيكل إلى تصريحات درامية مع أو ضد أحد الأطراف ، أو على الأقل الحصول منه على بعض خفايا المواقف على الساحة المصرية التي لا بد أن هيكل لديه الكثير منها . ولكن ذلك لم يكن سهلا مع رجل مثل هيكل يعرف ما يريه المذيع ، وبالطبع ما يريده هو . فحصل منه على الكثير من مواقف المجاملة والتهرب التي لم تفد مهمته الإستعلامية بشيء ، ولكنها أفادت ربما مصداقية الإعلام الموجه للموقع ، من خلال بعض التشابه بين ما يريد هيكل وما يريد الموقع . أي أن هيكل كان على استعداد للدفع للموقع ، من نزاهته وموضوعيته ، وقدرته على استخدام المغالطات الغامضة ، ولكن ليس الدفع المباشر نقدا من موقفه السياسي المماليء لكل الأطراف ، الذي أراد تقديمه . وهو بالطبع لم يكن أقل حنكة من مذيع مدرب في قناة الجزيرة في مجال المداورة . وهكذا استطاع هيكل أن يسجل لالتزامه الليبرالي المماليء للغرب وأمريكا كثيرا من النقاط لحسابه الشخصي ، وليس لحساب المهمة الشخصية للمذيع أو للموقع ، رغم التشابه الحميم بين موقف السياسي وهدف الإعلامي .

كانت الصورة التي قدمها هيكل للوضع داخل مصر هي الصورة التي يقدمها الإعلام السيادي الغربي ، الحريص على عدم الظهور بمظهر الإبتذال المفرط ، كما تفعل الحزيرة . فلو قدم هذه الصورة في السي. .إن .إن او النيويورك تايمز ، لتلقى الكثير من بطاقات التهاني من أصدقائه الغربيين . فماذا تريد أمريكا خاصة في ثورة الربيع المصري ، أكثر من أن يقال أنها تتصل بأصدقائها في مصر لتسأل عما يحدث هناك ؟ أليس هذا ابتذالا لا يليق حتى باعلاميي الربيع العربي من العرب ؟ فمصر تعيش ربيعا من الأزمات الذاتية التي لا دخل لأمريكا بها كما يقول إعلاميو « الثورة » . والجيش المسؤول عن الأمن القومي لمصر لم تكن مخابراته

العسكرية تدري بما سيحدث في البلد إلى درجة المفاجئة . وأن شباب الثورة هم الذين قلبوا حسابات الجيش المندهش ، وليس هو الذي أجهض حركتهم التحررية ، بسيناريوهاته الكاذبة حول حماية الثورة وهو يقصد احتواءها وإجهاضها كما حصل . هل سأل هيكل نفسه إذا كان هناك مصري واحد سيحمل كلامه هذا محمل الجد ؟ أم أنه قرر توظيف ابتذال المرحلة الأمريكية الجديدة السياسي والأخلاقي والإنساني ، مثل غيره من الليبراليين العرب أمثال تيزيني وغليون ومذيعات الفضائيات العربية ، لصالح التحلل من أي التزام فكري أو أخلاقي أو سياسي ؟ من الذي سيصدقه من المصريين أن الوضع اليوم في مصر ليس أكثر خطورة وسوءا على مستقبل الشعب المصري ، من عهد مبارك ؟ ليس بإمكان أحد سوى هيكل أن يتصور أن أمريكا حينما قامت بإسقاط مبارك ، فعلت ذلك لمصلحة الشعب المصري . أو أنها لم تفعل ذلك بتواطؤ الجيش والإخوان « المساكين » ، وبعض رموز الحزب الوطني الذين حاول الجيش وحكومة قراقوش حمايتهم من القضاء المصري . أليس الجيش هو الذي تزعم محاولة تنصيب عمر سليمان ولي العهد الأمريكي ،ولكن الخطة تم تعديلها بضغط من الشعب في ميدان التحرير . لقد كاد الشباب والشعب المصري يحققون التحول الثوري الحقيقي في مصر ، وكان الفضل للجيش في إجهاض زخم الوضع بالمناورة وكسب الوقت ، ليعطي لعناصر الثورة المضادة الفرصة لتعديل الوضع بالتيئيس والرشوة والإرهاب . لقد أدرك الحس الشعبي هذا وعبر عنه ، وهو لا يمكن أن يخطيء ، لأنه حس عفوي يعايش انعكاس التجربة وخامات الواقع المعاش ، وليس موقفا سياسيا ، قادما من أروقة النوايا الحسنة أو السيئة . هل هناك معنى إذن لتجاوز هيكل للوقائع ، سوى إضفاء صفة البراءة على القيادات العسكرية الطنطاوية المسجلة بالإسم في ملفات أصدقاء أمريكا ؟ وهل يمكن الإدعاء أن حماس هيكل في هذا المجال كان حماسا أرعن يخالف كل الوقائع والدلالات السلوكية . لقد لعب الجيش تحت قيادة نخبه الكبيرة دور عدو الشعب . ولم يتحرك هذا الجيش حركة واحدة تخرج عن السيناريو الأمريكي قيد أنملة . حمى الشعب من مذبحة النظام ، لآنها فقط ليست في صالح ذلك السيناريو ، حيث سيتسبب ذلك حتما في خروجه عن سياقه المحسوب . هذه الحماية الكاذبة هي التي استغلها الجيش فيما بعد لتمرير كل ألاعيب الثورة المضادة تحت سمع العالم كله وبصره بما فيه هيكل نفسه . وما يثير دهشة الوقائع والعقل المنظم هو أن كل المغالطات والتجاوزات التي قدمها هيكل تتطابق بالصدفة مع مقتضيات السيناريو المذكور :

١. الجيش الذي يقود الثورة المضادة ويحافظ على جمود الوضع وتهدئته ، ليعطي الفرصة للسيناريو الأمريكي للوصول إلى غايته ، يمكن في حالة تعذر ذلك شعبيا ، القفز إلى موقع السيادة السياسية ، ويقوم بإنقاذ الوضع من هناك . أي حمل السيناريو على الدبابات وأكتاف الأمن القومي إلى الغاية . وهذا لا يخيف هيكل ، فطالما أنقذ العسكريون بلادهم من الأزمات . أي أن الطنطاوي أو غيره منهم يمكن أن يلعب دور ضباط يوليو . بهذه اللفتة الذكية الفاتحة لشهية

البعض ، تنفس هيكل الصعداء . لقد قام بتلاوة السيناريو الأمريكي البديل بكثير من البراءة ،والإلتزام واالواضح بمصلحة الشعب المصري .

٢. بما أن الصورة البديلة هي مجرد التفاف تكيكي على ألية تنفيذ السيناريو الأصلي بحذافيره ، فالصورة يجب أن تكون على الوجه التالي كما يقول هيكل حرفيا :

....أنه متعاطف مع الإخوان بسبب كل ما تعرضوا له, بل إنه قال مرارا إن الديمقراطية في مصر لا تستقيم إلا إذا كان هناك طرفان: التيار الديني للإخوان واليسار.. واستطرد: كل ما أطلبه لهذا البلد فرصة لأن يبني مستقبله.

والمطلوب هو إذن تمرير السيناريو الأصلي بحذافيره ، على أنه باعتباره اقتراحا صادرا عن هيكل ولا شأن لآمريكا به . هذا يمثل نوعا من الإنهيار السلوكي العصبي . كيف يتخيل هيكل أن مئات ملايين المغفلين في المشاعة العربية سيأكلون التفاحة مرتين . إن هيكل يبدو رغم السن في تمام صحته العقلية ، ولكنه يعتمد كثيرا على أسلوب الإعلام الليبرالي الغربي . وحكاية عطفه على الإخوان لما لحق بهم من اضطهاد هي عطف تمهيدي سوريالي على محاولته إبعاد الإخوان المسلمين عن شبهة التحالف مع أمريكا أثناء أضطهادهم لمبارك ، الذي راهن على نتنياهو والسيناريو الإسرائيلي الذي ما زال يستبعد بحزم ، تسليم الوكالة الأمريكية في المشاعة العربية للإخوان المسلمين . لا يمكن لنرجسية هيكل أن تحتكر الصدق والكذب . فالنرجسية مطب مرضي وليست مهارة .

٣. النادي الناصري في مصر ، ربما ليس برئاسة هيكل مباشرة ، ولكن من الواضح أنهم يعتبرون تنظيراته دستورا لهم . ومع أن نادي الهواة هذا ، لا يشكل مضايقة سياسية لأحد ، إلا أن رموزية عبد الناصر المجني عليه ، تشكل وزنا توجيهيا في الوجدان القومي العربي لا جدال فيه ، خاصة خارج مصر . وفي دول الممانعة بالذات . وأسقاط النظام السوري وحزب الله ، يقع في لب النوايا الربيعية لأمريكا في المشاعة العربية . ولعل هذا يفسر موقف الناصريين الغريب من سوريا والإخوان والديموقراطية ( الليبرالية ) كانعكاس مباشر لتنظيرات هيكل . وهي خدمة من الدرجة الأولى بالنسبة لآمريكا ، فالناصرية على ضعفها التنظيمي والسياسي ، ما تزال تمارس تأثيراتها العفوية على قطاع واسع من الناس الذين ما زالوا يعيشون في دائرة النزاهة الفكرية .

وهذا شيء محزن على مستوى فذاذة الرجل العربية والعالمية ، ومقرف وعديم الإخلاص على مستوى ربيعية هيكل الذي صنعته ثورة يوليو وعبد الناصر . لو كان هيكل مواليا لغير ذاته ، لقال كلاما يعطي جرائم أمريكا وحلفائها الإسلامويين حقها الموضوعي من التنديد ، وعلى رأسها اغتيال ثورة يوليو وقائدها . ولكنه تجاهل أية إساءة موضوعية للغرب عموما ، واختصه الغرب وعملاؤه الأزليون بهدايا مرتفعة الثمن على حساب المصريين وغيرهم .

٤ – يلخص هيكل الموقف في أن مصر قد تم تجريفها ؟؟ ( لعله يقصد أبو الفتوح

والكفاءات الإسلاموية والمال العام ) . ان شعبا من ستة وثمانين مليونا ليس فيه كفاءة واحدة لرئاسة الجمهورية متجاهلا أن الثورة ، أية ثورة حقيقية في العالم تخلق كفاءاتها ، وتكتشف كنوزها المغيبة ، وتبلور القائد الثوري خلال السياق . هل كان عبد الناصر عندما قام بالثورة يملك سيناريو مكتمل لكل ما فعل ؟ تراكمات الوعي في السياق الثوري هي القائد المنتخب جماهيريا بديموقراطية الإلتزام الشعبي . هذه هي الديموقراطية الوحيدة الممكنة . أما هيكل فيرى الديموقراطية في تحالف الإخوان واليسار ( الليبراليين ) . وهي رؤية رؤيوية جليلة ، تتطابق تماما وبالصدفة وحدها مع السيناريو الديموقراطي المعد لمصر . ولن ندخل مع هيكل وهو يبتذل عقولنا بهذه الجرأة ، في كيفية دمقرطة الغيب ، أو دمقرطة الناس ، ولكننا نريد أن نسأله : هل هناك شروط موضوعية للديموقراطية غير النوايا الحسنة لكلينتون ووزير خارجيتها أوباما ؟ هل يمكن أن تتعايش الديموقراطية مع التبعية للخارج ، أم أن استقلال الإرادة الشعبية داخليا وخارجيا هو ضمانتها الوحيدة ؟ أم أن هذه يوتوبيا ورفاه لا سبيل له . إذن ما فائدة الديمواقراطية سوى ستر عورة الإستبداد ؟ وما فائدة الشعب المستعبد سياسيا واقتصاديا لقوى خارجية مستبدة من هذه الديموقراطية سوى تنظيم أليات العمالة ، وتسهيل مهمة النهب والإستبداد بالوكالة أمام القوى العميلة ؟ هل هذا أيضا يوتوبيا ؟ هناك كثير من الشعوب تتمتع بالديموقراطية الشكلية والسيادة الوطنية ، فلماذا لا يصلح هذا لمصر كمرحلة انتقالية ، لتنتظم في سياق الولاء الحر للمصلحة الوطنية على الأقل ؟ لماذا على الفلاح والعامل والمستثمر أن يعمل في إطار مصلحة لصوص العالم الدوليين ؟ لقد سبق لهيكل أن أجاب عن هذا السؤال في سياق مقابلوقد كتبت عنها لذلك ما أزال أتذكرها وكن ليس بنصها الحرفي . قال هيكل ما معناه ، أن هذا العالم أمريكي تتحكم فيه أمريكا بكل شيء ، ولا يمكن العيش فيه بدون أمريكا . ونقول لسيادته بأدب : هذا غير صحيح . نحن من سكان هذا العالم أيضا ، ونعرف أن أمريكا استخدمت كل وسائلها السياسية والإقتصادية والمخابراتية ضد إيران وضد سوريا وضد لبنان وضد كوريا الشمالية وضد الصين وضد روسيا . واستخدمت كل قدرتها على التدمير في العراق وافغانستان والصومال ، ولم يخسر في هذه المحاولات أحد سواها ، إذا حددنا أهداف الصراع . فلم هذا التجاوز الجرئ للوقائع ؟

هذا هو هيكل . مفكر قومي ليبرالي تنازل عن مصداقيته كلها لأمريكا .

احمد حسين

# الأعداد السابقة

## اشتباك.. الهوية والهدف

موقع عروبي دوره ومهمته المقاومة والنقد وبلورة وتعميق وعي نقدي.
موقع عروبي باتساع هذا الوطن، ويحمل همومه والدفاع عن حقوقه وطموحاته.
وعليه، فهو موقع علمي تقدمي اشتراكي يضع التحرر والتحرير والتنمية في طليعة ما ينشر سواء المقروء أو المرئي أو المسموع.
وعليه، فاشتباك يشتمل على الأدب، الفن، السياسة، الاقتصاد السياسي، منجزات العلوم، علم النفس، الرسم، النحت ومختلف أعمال ونتاج الفكر البشري، وبهذا المعنى فالموقع يرتكز على رؤية تاريخية ومقارنة.
ولأن الوطن العربي في حقبة التحرر القومي والاجتماعي فإن اشتباك موقع يواجه أنظمة وطبقات التبعية سواء، الأمر الذي يعني بالضرورة تركيز العمل على استعادة المواطن العربي من أنياب الإمبريالية والصهيونية والأنظمة التابعة وأدواتهم من قوى الدين السياسي.
لذا، سيجد من يتابع اشتباك مدرسة في النقد والرد والصد والتوجيه.
وإذا كان لنا أن نقوم بهذه المهمة، فإننا نفتح اشتباك لأمرين هامين، وإن لن يكونا وحدهما:

- تغذية اشتباك بما يتقاطع مع رؤيتنا أعلاه سواء ممن هم في فريق اشتباك أو يتقاطعون مع أهدافه من خارج فريقنا الذي يعمل كفريق تعاوني.

- استقبال النقد العلمي والملتزم.

«إن سلاح النقد لا يغني عن نقد السلاح».

:Facebook
/https://www.facebook.com/EshtebakAraby
:Twitter
https://twitter.com/eshtebakpage
:Telegram
https://t.me/EshtebakAraby
:Website
/https://eshtebakpage.mystrikingly.com
:YouTube
https://youtube.com/channel/UCj١٠tLPUX٠UIUyy٤Xi٢SxMw